بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة مؤتة

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي

(٥٦٩ - ٦٤٨هـ / ١١٧٣ - ١٢٥٠م)

إعداد الطالبة

عبير احمد عطاالله المحاسنة

بكالوريوس تاريخ وآثار

جامعة مؤتة ١٩٩٥ / ١٩٩٦م

إشراف

الأستاذ الدكتور احمد عبدالله الحسّـو

١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين

في العصر الأيوبي

(٥٦٩ – ٦٤٨هـ / ١١٧٣ – ١٢٥٠م)

إعداد الطالبة

عبير احمد عطاالله المحاسنة

"قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات

درجة الماجستير في جامعة مؤتة تخصص تاريخ"

"This thesis has been sumbmitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts in History At Mu'tah University."

أعضاء لجنة المناقشة :

١ – الأستاذ الدكتور أحمد عبدالله الحسّو "المشرف" .... رئيسا

٢ – الأستاذ الدكتور تقي الدين عارف الدوري .... عضواً

٣ – الدكتور زريف مرزوق المعايطة .... عضواً

تاريخ مناقشة الرسالة : ٢١ / ١ / ٢٠٠٢ م

الإهداء

إلى روح جدَّتي رحمها الله

إلى أبي و أمي أطال الله عمريهما..

إلى أخوتي ..

إلى أساتذتي ..

أهدي هذا الجهد المتواضع

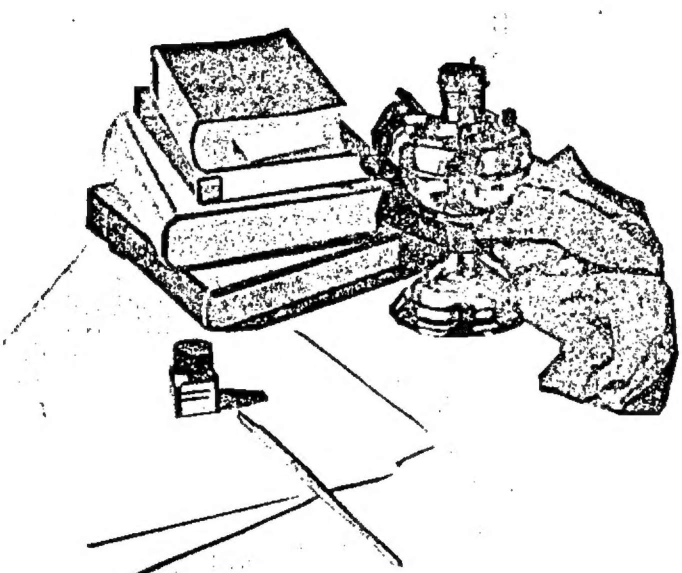
الباحثة



الرموز والمختصرات

الرمز	المختصر
ت	تاريخ وفاة
جـ	جزء
ط	طبعة
ص	صفحة
ق	قسم
ع	عدد
هـ	هجري
م	ميلادي
تح	تحقيق
مج	مجلد
د.ت	دون تاريخ
د.ط	دون طبعة
د.م	دون مكان نشر
د.ن	دون ناشر
Ibid	المرجع نفسه
P	Page
Vol	Volume
T	Tome

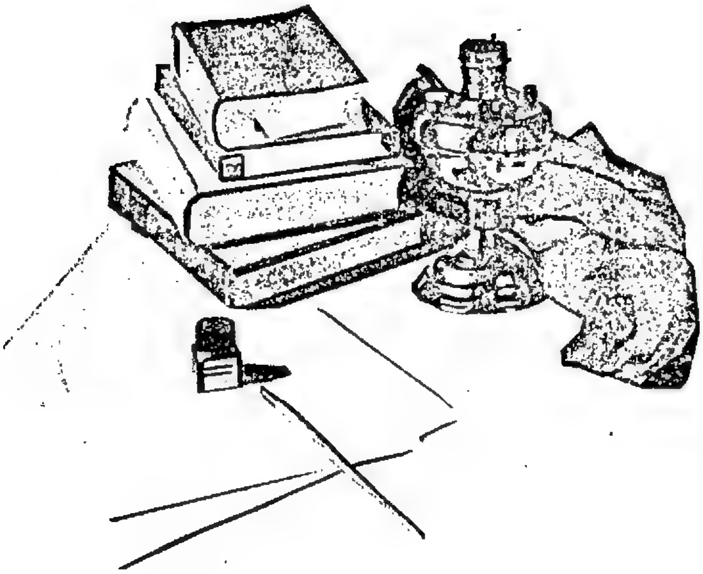
المحتويات



المحتويات

الموضوع	الصفحة

المقدمة



المقدمة

تعرض العالم الإسلامي في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلى غزو الصليبيين ، الذين اخترقوا حدوده سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، واحتلوا جانبا من أراضيه في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، وزرعوا لهم فيها كيانات سياسية هي : مملكة بيت المقدس ، وإمارات الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وقد ترك الاحتلال الأجنبي هذا تأثيرات ، وردود فعل متباينة في صفوف المسلمين على المستويين الرسمي والشعبي ، ظلت متصلة حتى تمكنت من إجلاء آخر هؤلاء الغزاة عن البلاد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، أي بعد مرور قرنين على بداية الغزو ، وقد أولى الباحثون في الشرق والغرب هذه الحقبة المهمة ، باهتمام كبير ، وقدموا دراسات عديدة عنها ، غير أن معظمها تركز على الجانبين السياسي والعسكري ، وعلى الشخصيات التي كانت ذات أثر واضح فيها ، ومع أن جانبا من هذه الدراسات اهتم بالكشف عن دور هذه الشريحة ، أو تلك ، من شرائح المجتمع الإسلامي ، تجاه الغزو الصليبي ، - ومنها دراسة بعنوان **"موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي - دراسة في الموقف الشعبي (٤٩٢-٦٥٥هـ/١٠٩٨-١٢٦١م)"** ، وهي رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي مقدمة من جمال سالم خليفة ، بإشراف الدكتور فلاح الأسدي ، قدمت في كلية الآداب بجامعة الفاتح في الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية ، تناولت الدراسة موقف الفقهاء والقضاة في المدن الشامية من الغزو الصليبي ، خلال الحقبة المشار إليها ، ودراسة أخرى بعنوان **"الدور السياسي للعلماء المسلمين إبان الحروب الصليبية"** (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م) ، وهي رسالة لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في اختصاص التاريخ الإسلامي ، مقدمة من الطالب سلطان جبر سلطان ، بإشراف الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م ، مقدمة في كلية الآداب جامعة

الموصل ، وتناولت هذه الدراسة دور العلماء السياسي منذ بداية الحروب الصليبية وحتى نهايتها (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م) – فإن هذا الجانب ما يزال بحاجة إلى اهتمام أكبر ، وهو ما تحاول هذه الدراسة المساهمة فيه من خلال تلمس موقف الطبقة المثقفة من الغزو الصليبي في العصر الأيوبي ؛ أي أولئك الذين يعبر عنهم عادة بالعلماء (بالمفهوم العام لهذا المصطلح) ، والأدباء (أي : رجال الفكر من شعراء وأدباء وغيرهم) ، ولقد وضعت الدراسة هدفا أمامها أن تجيب بهذا الخصوص على التساؤلات التالية :

أولا : ما هو موقف العلماء والأدباء من الغزو الصليبي لبلاد الشام في العصر الأيوبي ؟ وما مدى تطابقه ، أو تباينه ، مع الموقف الرسمي خلال الحقبة نفسها ، مقارنة بما كان عليه الأمر في الحقبة السابقة للعصر الأيوبي ؟

ثانيا : هل تأثر موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في حقبة الدراسة ، بموقفهم خلال الحقبة التي سبقتهم ؟

ثالثا : هل تأثر موقف العلماء والأدباء في العصر الأيوبي من غزو الصليبيين ، بتغيرات السياسة الأيوبية من الصليبيين خلال عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٣-١١٩٣م) ، وعهد خلفائه من بعده (٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م) ؟

أما منهجية البحث في هذه الدراسة فتقوم على الإحاطة بالمصادر ، والمراجع ، والبحوث ذات العلاقة ، ورصد واستقصاء ما تضمنته من معلومات ، مع إخضاع ذلك لقواعد منهج البحث التاريخي ، بما يوصل إلى صورة أكثر اقترابا من الحقيقة التاريخية .

انتظمت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ومجموعة ملاحق وفهارس وقائمة مصادر ومراجع ، خصص الفصل الأول منها لتحليل أهم مصادر الدراسة .

أما الفصل الثاني فقد عني بدراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام الدولة الأيوبية ؛ أي بين سنتي (٤٩٠-٥٦٩هـ/١٠٩٦-١١٧٣م) ، في أربعة مباحث تناولت أولا موقف كل من الخلافة العباسية ، والخلافة الفاطمية من الصليبيين ، ثم موقف العلماء والأدباء منهم خلال هذه الحقبة .

أما الفصل الثالث فقد عني بدراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي بين سنتي (٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٣-١١٩٣م) ، في ستة مباحث ؛ تناولت أولا موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين قبل معركة حطين (٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م) ، ثم موقف العلماء والأدباء منهم قبل معركة حطين (٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م) ، ثم موقف صلاح الدين الأيوبي منهم في الحقبة ما بين معركة حطين وحتى قيام الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م) ، ثم موقف العلماء والأدباء منهم في الحقبة ما بين معركة حطين وحتى قيام الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م) ، ثم موقف صلاح الدين الأيوبي منهم بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة وحتى صلح الرملة (٥٨٦-٥٨٨هـ/١١٩٠-١١٩٢م) ، ثم موقف العلماء والأدباء منهم بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة وحتى صلح الرملة (٥٨٦-٥٨٨هـ/١١٩٠-١٩٩٢م) .

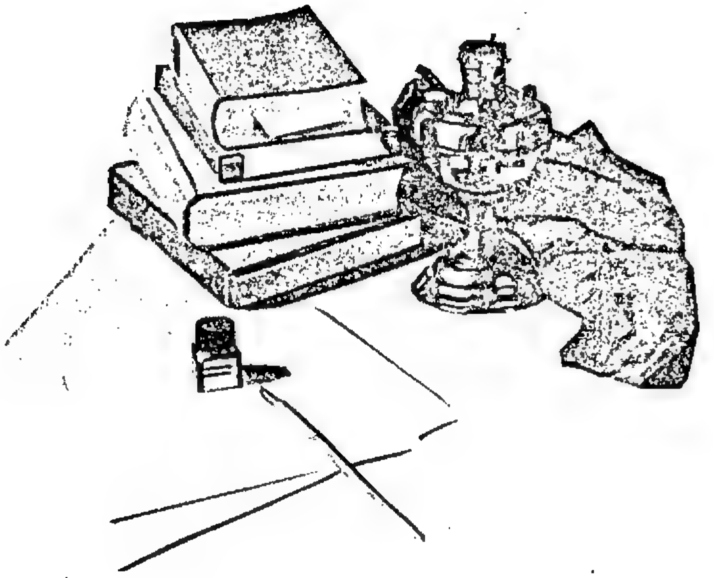
أما الفصل الرابع فقد عني بدراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي ؛ أي بين سنتي (٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م) ، في أربعة مباحث تناولت أولا موقف الأيوبيين من الصليبيين ، ثم موقف

العلماء والأدباء منهم في الحقبة ما بين (٥٨٩-٦١٥هـ/١١٩٣-١٢١٨م) ، ثم موقفهم في الحقبة ما بين (٦١٥-٦٣٧هـ/١٢١٨-١٢٤٠م) ، ثم موقفهم في الحقبة ما بين (٦٣٧-٦٤٨هـ/١٢٤٠-١٢٥٠م) ، مع الأخذ بنظر الاعتبار تباين سياسات الأيوبيين تجاه الصليبيين خلال ذلك .

أنهيت الدراسة بخاتمة وقائمة مصادر ومراجع وملاحق وفهارس عامة .

وختاما لا يخلو عمل المرء من نقص ، وحسب كاتبة هذه السطور ، مساهمتها المتواضعة هذه ، في ميدان يستحق الاهتمام ، والله أشكر ، فهو الموفق وهو المعين .

الفصل الأول



تحليل لأهم مصادر الدراسة

الفصل الأول

تحليل لأهم مصادر الدراسة

اعتمدت الدراسة في جمعها للمادة ، وتحديدها للدور الذي أداه العلماء والأدباء في العصر الأيوبي ، على مجموعة من المصادر التي كان معظم مؤلفيها ممن عاصروا أحداث ذلك العصر ، وفيما يلي عرض لأهمها ، مرتبة حسب سنيّ وفاة مؤلفيها :

١ – <u>ذيل تاريخ دمشق</u> ، لابن القلانسي(١) (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) :

ولد ابن القلانسي سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م في دمشق ، وتوفي فيها سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، مما يعني أنه عاصر أحداث الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية ، وكان قريبا منها ، فقد عمل رئيسا لديوان الإنشاء مرتين في دمشق ، وهذا ما أتاح له الاطلاع على الوثائق الرسمية التي استعان بها في مادته . يتناول ابن القلانسي في كتابه هذا ، تاريخ بلاد الشام منذ دخول الأتراك إليها سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م ، وحتى وفاته سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠(٢) ، قدم فيه مادة أفادت في معرفة نمو وتطور ردود فعل المسلمين تجاه الصليبيين ، وما كان من روح الجهاد ضدهم ، ووضحت موقف الخلافتين العباسية والفاطمية منهم ، وهو ما أغنى الفصل الثاني الذي يعالج الحقبة السابقة لحقبة الدراسة .

---

(١) هو حمزة ابن أسد بن علي بن محمد أبو يعلي التميمي ، الدمشقي ، العميد المعروف بابن القلانسي . أنظر عنه : أبو القاسم هبة الله بن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) ، <u>تاريخ مدينة دمشق</u> ، تح : صلاح الدين المنجد ، د.ط ، مطبوعات المجمع العلمي ، دمشق ١٩٥١م ، جـ٥ ، ص١٤٩ . سيشار إليه تاليا : ابن عساكر ، <u>تاريخ</u> ؛ السيد الباز العريني ، <u>مؤرخو الحروب الصليبية</u> ، د.ط ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص١٩٢ . سيشار اليه تاليا : العريني ، <u>مؤرخو الحروب الصليبية</u> ؛ خير الدين الزركلي ، <u>الأعلام</u> ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩م ، مج٢ ، ص٢٧٦ . سيشار إليه تاليا : الزركلي ، <u>الأعلام</u> .

(٢) العريني ، <u>مؤرخو الحروب الصليبية</u> ، ص١٩٢ .

٢ – **الاعتبار** : لأسامة بن منقذ[1] (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) .

ولد أسامة بن منقذ سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م في مدينة شيزر ، شمالي الشـام ، في أسرة عربية من بني منقذ التي تنسب إلى قبيلة كنانة ، والتي كانت قد أقامت لنفسـها إمارة صغيرة شمالي الشام ، حول حصن شيزر ؛ غربي حماة على نهر العاصي فـي الحقبة ما بين (٤٨٢-٥٥٢هـ/١٠٨٩-١١٥٧م) . توفي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م في دمشق ودفن فيها بعد أن بلغ من العمر ستة وتسعين عاما ، أي أنه عاصر قدوم الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، وشاهد ما وقع من حروب بين المسلمين والصليبيين حتى ما بعد تحرير المسلمين لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م .

كان أسامة بن منقذ أحد رموز الثقافة في عصره ، فهو أديب ، وشاعر ، ومؤرخ ، إضافة إلى أنه اكتسب خبرة واسعة من خلال تنقلاته الكثيرة بين بلاد الشام ومصر ، فقد خرج من شيزر بعد الاضطرابات التي وقعت بين أفراد أسرته سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م متوجها إلى دمشق ، وأقام فيها ، ثم توجه إلى مدينة حماة ، لينتقل بعدها إلى مصر سنة ٥٣٨هـ/١١٣٤م ، حيث أمضى فيها أحد عشر عاما ، وكان له خلالها علاقات مع رجال الدولة الفاطمية في مصر ، والأتابكية الزنكية ، ثم غادرها إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، وأقام فيها حتى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، ثم إلى حصن كيفا ، وقضى هناك عشر سنوات ، ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ،

---

(١) هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ ، الكناني ، الكلبي ، الشيزري ، الملقب مؤيد الدولة ، مجد الدين . أنظر عنه : محمد بن محمد العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تح : شكري فيصل ، د.ط ، دمشق ١٩٥٥م ، جـ١ ، ص٤٩٨ . سيشار إليه تاليا : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ؛ شهاب الدين ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء ، تح : إحسان عباس ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت١٩٩٣م ، جـ١ ، ص١٠١ . سيشار إليه تاليا : ياقوت الحموي ، معجم الأدباء .

وأقام فيها حتى وفاته سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م[١] . لقد وفر هذا التنقل الواسع لابن منقذ مجالا واسعا للتعرف على الأحداث السياسية في بلاد الشام ، ومصر ، بل المشاركة فيها ، وبخاصة أنه كان على علاقة مع الشخصيات السياسية في هذه الجهات ، من أمثال عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، والخلفاء الفاطميين ، ووزرائهم ، إضافة إلى العلاقة التي كانت تربطه ببعض بالصليبيين .

يتضمن كتاب الاعتبار ، الذي ألفه أسامة بن منقذ عندما كان في التسعين من عمره ، خلاصة لتجاربه ، ولِمَا صادفه في حياته من أحداث ، مقدما صورة لشاهد عيان عن العصر الذي عاش ، لذا فإنه يعتبر من أهم المصادر التاريخية في الحقبة التي سبقت حقبة الدراسة ، فقد زودها بمادة غنية ، وبخاصة ما أورده عن المراسلات التي تمت بين نور الدين محمود ، وبين وزيري الدولة الفاطمية ؛ ابن السلار (٥٤٤-٥٤٨هـ/١١٤٩-١١٥١م) ، وطلائع بن رزيك (٥٤٧-٥٥٦هـ/١١٥٣-١١٦١م) ، والتي كان هو الوسيط فيها ، مما تناوله الفصل الثاني من هذه الدراسة .

---

(١) أحمد بن محمد بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح : إحسان عباس ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨م ، جـ١ ، ص١٣٢ . سيشار إليه تاليا : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ١ ، ص٢٩١ .

٣ – البرق الشامي ، وخريدة القصر وجريدة العصر ، والفتح القسي في الفتح القدسي ، للعماد الأصفهاني[١] (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) :

ولد العماد الأصفهاني سنة ٥١٩هـ/١١٢٠م في أصفهان ، ينتمي إلى أسرة عربية ، تولى كثير من أفرادها وظائف هامة في الدولة السلجوقية ، وفي دولة الخلافة العباسية .

انتظم العماد في المدارس النظامية في بغداد ، فلما أنهى دراسته ، ولاه الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الشيباني – وزير الخليفة العباسي ؛ أبو عبدالله المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م) – نظر البصرة ثم نظر واسط ، اتجه إلى دمشق والتقى بقاضي قضاتها ؛ كمال الدين الشهرزوري (٥٧٢هـ/١١٧٦م) ، الذي قدمه إلى نور الدين محمود ، فأمر بتعيينه في ديوان الإنشاء سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م ، كما أنه تولى التدريس في المدرسة النورية الشافعية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، وتولى في السنة التالية الإشراف على ديوان الإنشاء[٢] في دمشق .

بعد وفاة نور الدين محمود ، تدهورت مكانة العماد الأصفهاني ، لأن الصالح إسماعيل بن نور الدين ، ولي الملك بعد أبيه سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، عزل العماد عن جميع مناصبه من البلاط الزنكي ، فخرج قاصدا بغداد ، فوصل إلى الموصل ، ثم غادرها ، بعد أن علم ببروز مكانة صلاح الدين الأيوبي ، إلى دمشق ، فاتصل بالقاضي الفاضل الذي توسط في أمره عند صلاح الدين الأيوبي ، فعينه في ديوان الإنشاء ، لينوب عن القاضي الفاضل ، وليحمل عنه بعض أعباء وظيفته[٣] .

---

(١) هو محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله المعروف بالعماد الأصفهاني . أنظر عنه : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص١٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٥٢ .

(٢) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ١٩ ، ص١١ ؛ صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ، الوافي بالوفيات ، باعتناء س ديد رينغ ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢م ، جـ١ ، ص١٣٢ . سيشار إليه تاليا : الصفدي ، الوافي بالوفيات .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٤٠ .

لازم العماد صلاح الدين الأيوبي قرابة عقدين من الزمن ، ثم آثر بعد وفاته سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م أن ينعزل في بيته ، ويقبل على التصنيف حتى وفاته في دمشق سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م[١] .

لم تقتصر نشاطات العماد الأصفهاني على الأعمال الإدارية ، التي عهدت إليه في دولة نور الدين محمود ، ثم في دولة صلاح الدين الأيوبي ، فقد اهتم بتسجيل انطباعاته عن عصره شعرا ، ونثرا ، وتعتبر كتبه التي صنفها ذات أهمية كبيرة لهذه الدراسة ، وهي :

أ – <u>البرق الشامي</u> :

يقع كتاب البرق الشامي ، في عدة أجزاء ، لم يبق منها سوى الجزئين الثالث والخامس ، وقد بدأه العماد الأصفهاني بالحديث عن نفسه ، وعن تنقلاته من العراق إلى الشام ، ونشاطه في دولة نور الدين وخدمته لصلاح الدين الأيوبي ، وسماه البرق الشامي لأنه "شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لسرعة انقضائها[٢]" .

تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه وثيقة تاريخية سجلها العماد الأصفهاني بالاعتماد على المشاهدة ، وقد أفادت الدراسة في حدود السنوات التي عالجها الجزء الثالث من سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م إلى أواخر سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ، ثم الجزء الخامس الذي دونه في حوادث السنوات من ٥٧٨هـ/١١٨٢–١١٨٤م ، وقد أفاد الدراسة في تحديد موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين ، كما كان لما نظمه من أشعار ؛ ذات علاقة بموضوع الدراسة ، أهمية كبيرة في الفصل الثالث .

---

(١) الصفدي ، <u>الوافي بالوفيات</u> ، جـ١ ، ص١٤٠ .

(٢) محمد بن العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، <u>البرق الشامي</u> ، تح : فالح صالح حسين ، ط١ ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ١٩٨٧م ، جـ٣ ، ص١٧ . سيشار إليه تاليا : العماد الأصفهاني ، <u>البرق الشامي</u> .

ب - خريدة القصر وجريدة العصر :

يعتبر كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، من كتب التاريخ الثقافي والأدبي ، فقد ترجم فيه العماد الأصفهاني لشعراء القرن الخامس ، والسادس الهجريين/الحادي عشر ، والثاني عشر الميلاديين ، في أربعة أقسام ؛ خصص القسم الأول لمدينة بغداد ، وما يجاورها في العراق ، أما الثاني فقد خصصه لفضلاء عراق العجم ، وخراسان ، وغزنه ، وأذربيجان ، وأرانية ، وما وراء النهر ، وسائر بلاد البر ، والبحر ، فيما خصص القسم الثالث لشعراء الشام ، والجزيرة ، والموصل ، وديار بكر ، وقد أورد ضمن هذا الجزء شعراء الحجاز ، واليمن ، وصنعاء ، وزبيد وعدن ، أما القسم الرابع فقد جعله قسمين ؛ إحداهما خصص لمصر ، وأعمالها ، وصعيدها ، وأسوانها ، أما الثاني فقد تناول شعراء البلاد الغربية والأندلس ، والمهدية ، والقيروان(١) .

أفاد الدراسة في ما قدمه من تراجم علماء ، وأدباء ، عاصروا الدولة الأيوبية ، ممن اتصل بهم العماد الأصفهاني مباشرة أو راسلهم ، كما أفادها فيما قاله هؤلاء من شعر ؛ ذي علاقة ، بموضوع الدراسة ، وبخاصة ما ورد في القسم الأول ؛ الخاص بشعراء العراق ، والقسم الثالث ؛ الخاص بشعراء الشام والقسم الرابع ؛ الخاص بشعراء مصر .

---

(١) العربني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص٢٤٠ ؛ نظير حسان سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، د.ط ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص٢٠ . سيشار إليه تاليا : سعداوي ، المؤرخون المعاصرون .

جـ - الفتح القسي في الفتح القدسي[1] :

يمثل كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي ، سجلا عاما لما قام به صلاح الدين من جهاد وحروب ضد الصليبيين منذ سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وحتى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، أي من السنة التي فتح فيها بيت المقدس إلى السنة التي توفي فيها .

ترجع أهمية هذا إلى أن مؤلفه ، كان شاهد عيان للكثير مما كتب عنه ، وهذا ما عبر عنه حين قال :" **وما شهدت إلا بما شاهدته وشهدته ، وما استمطرت إلا عهاد العهد الذي عهدته ، وما عنيت إلا بإيراد ما عاينته ، ولا بنيت إلا على أسس وما تبنيته فبنيته ، وما توخيت إلا الصدق ، وما انتهيت إلا بالحق ، ولا ذكرت كلمة تسقط ، ولا اعتمدت إلا ما يرضى الله** ".[2]

أفاد الكتاب الدراسة في الفصل الثالث منها ، في توضيح الجهود التي قام بها صلاح الدين الأيوبي ، ضد الصليبيين ، وفي ما تضمنه من رسائل ، وأشعار ، ذات علاقة بموضوع الدراسة .

---

(١) أشار العماد إلى أنه سمى كتابه هذا الفتح القدسي ، وذكر أنه عرضه على القاضي الفاضل فقال له: "**سمه الفتح القسي ، وقد فتح الله عليك بفصاحة قس وبلاغته [يشير هنا إلى قس بن ساعدة]**" . أنظر : محمد بن محمد العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تح : محمد محمود صبح ، د.ط ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص٥٧-٥٨ . سيشار إليه تاليا : العماد الأصفهاني ، الفتح القسي .

(٢) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٥٨ .

٤ – الكامل في التاريخ ، و التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، لعز الدين بن الأثير[1] (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) :

ولد ابن الأثير في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، وانتقل مع أسرته إلى الموصل سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، وعاش فيها ، وعاصر الحقبتين الزنكية ، والأيوبية ، وكان حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم ، كانت وفاته في الموصل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م .

استعانت الدراسة باثنين من مصنفاته في التاريخ ، وهما :

أ – الكامل في التاريخ :

تتبع ابن الأثير في كتابه هذا أحوال ديار الإسلام جميعها ، ويعتبر ابن الأثير أحد أبرز المؤرخين المعاصرين للفترة قيد الدراسة ، وشاهد عيان للكثير من أحداثها .

يعتبر كتاب ابن الأثير من المصادر الأساسية ، التي أفادت الدراسة في جميع فصولها ، فقد قدم مادة غزيرة فيما يخص الخلافتين ؛ العباسية ، والفاطمية ، وموقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين ، وفي رسم صورة واضحة لموقف مجموعة من العلماء والأدباء ، الذين عاصروا حقبة الدراسة ، وكانوا مشاركين في أحداثها .

---

(١) هو أبو الحسن بن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، الجزري . أنظر عنه : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٨٩-٢٩١ ؛ العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص٢٠٣ .

وقام بكتابة سيرته المعروفة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، فقد وفرت مادتـــه معلومات دقيقة أثرَتْ الفصل الثالث من الدراسة ؛ عن صلاح الدين الأيوبي ، وخططـه تجاه الصليبيين ، وبخاصة أن العلاقة بين الرجلين تطورت إلى حد كبير ، بحيــــث أن صلاح الدين ، كان يتشاور معه أحيانا في خططه ، وتأتي أهمية هذه المادة أن صاحبها تحرى الصدق فيما رواه ، وقد ذكر هو ذلك عن نفسه ، فقال : "**ومن هذا التـــاريخ مــا سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبرا يقارب العيان**"(١) .

إضافة إلى ذلك ، أفاد الدراسة في رسم صورة عن موقف العلماء والأدبـــاء من الصليبيين في الحقبة التي تحدث عنها .

٦ – رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفـــاضل ، لابـــن الديبـــاجي(٢) (ت٦٣٥هـ/١٢٣٨) ؛ تحقيق محمد نغش :

يتضمن العمل الذي قدمه ابن الديباجي ، مجموعة الرسائل ؛ التي صـــدرت عن القاضي الفاضل(٣) ،الذي ولد في عسقـــلان ، سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م ، وعمل فـــي ديوان الجيش في عهد الوزراء الفاطميين ، ابتدأت علاقته بصلاح الدين الأيوبي في

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٧ .

(٢) هو موفق الدين أبو علي بن أحمد ابن الديباجي . أنظر عنه : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٢ ، ص٣٥٥.

(٣) هو أبو علي عبدالرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبو المجد علي القاضي السعيد ، أبي محمد المعـــروف بالقاضي الفاضل . أنظر عنه : العماد الأصفهـــاني ، خريدة القصر ، قسم شعـــــراء مصـــر ، جـــ١ ، ص٣٥-٤٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٥٨ .

وصوله إلى مصر ، قبل قيام دولة بني أيوب ، وولاه صلاح الدين الأيوبي – كان لا يزال وزيرا – ديوان الإنشاء ، ثم ارتبط به بعد قيام الدولة الأيوبية ، باعتباره الرجل الثاني في دولته ، عاصر أحداثها ، واطلع على خصوصياتها ، بل وكان من أكبر المساهمين فيها ، وقد عبر صلاح الدين عن تقديره له حيث قال :" **ما فتحت البلاد بالعساكر ، إنما فتحتها بكلام الفاضل**"[١] .

كما أن القاضي الفاضل كان رجلا مخضرما ، فقد عاصر الدولة الفاطمية ، والأتابكية الزنكية ، ثم الدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي ، في عهد أبنائه وأحفاده من بعده حتى وفاته في مصر سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م .

لقد ساعدت المادة التي قدمها على فهم روح العصر الأيوبي ، والتحديات التي واجهته ، والحلول التي وضعها صلاح الدين الأيوبي ، لمواجهة الخطر الصليبي ، من خلال الرسائل التي كان يكتبها على لسان صلاح الدين الأيوبي ، في الفصل الثالث من هذه الدراسة .

---

(١) شمس الدين سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، د.ط ، مطبعة الجمعية التاريخية ، أنقرة ١٩٦٨م ، جـ٨ ، ق١ ، ص٢٠٤ . سيشار إليه تاليا : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان .

٧ – مـرآة الزمـان فـي تـاريخ الأعيـان ، لسـبط ابـن الجـوزي[١] (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) .

ولد سبط ابن الجوزي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م في بغداد ، وتوفي في دمشـق سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، أي أنه عاصر أحداث العقد الأخـير مـن القـرن السـادس الهجري/ الثاني عشر الميـلادي ، وأحـداث النصـف الأول مـن القـرن السـابع الهجري/الثالث عشر الميلادي .

اعتمدت الدراسة على الجزء الثامن من كتابه بقسميه ؛ الأول ، والثـاني ، فيما أورده حـول الحـوادث التـي عاصـرها وشـارك فيـها ، فـي السـنوات ٦١٦هـ/١٢١٩م ، وسنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، من خلال مجالس الوعـظ التـي كـان يعقدها في دمشق حيث كان له دور في التعبئة العامة ضد الصليبيين ، وأفاد الدراسـة أيضا فيما قدمه من مادة غنية عن موقف الأيوبيين من الصليبيين ، وموقـف العلمـاء والأدباء منهم من خلال تراجم .

---

(١) هو شمس الدين يوسف سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي ، أنظر عنه : عبد الرحمن بن إسماعيل ، أبي شـامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، صححـه محمـد زاهد بن الحسن الكوثري ، راجعه عزت العطار الحسيني ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤م ، ص١٦٥. سيشار اليه تاليا : أبو شامة ، الذيل على الروضتين .

٨ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحيـــة ، وتراجـم رجـال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، لأبي شـامة المقدســي[١] (ت٦٦٥هـ/١١٦٦م) :

ولد أبو شامة في دمشق سـنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م ، وتوفـي فيـها سـنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ؛ أي أنه عاصر الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبـي ، وقـد أفادت الدراسة من كتابين له ، هما :

أ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية :

تناول أبو شامة في هذا الكتاب الفتـرة التي استغرقت حكم كل مـن نـور الديـن محمود ، وصلاح الدين الأيوبي . يبدأ الكتاب بأحداث سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م ، وينتـهي بوفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، وقد سجل فيه جهاد وأعمال كل من عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين محمود ، ثم إنجازات صلاح الدين الأيـوبي ضـد الصليبيين . ومع أن المؤرخ لم يكن معاصرا للحـقبة قيد الدراسة ، فقد قدم مادة وافيـة اعتمد في إيرادها على مؤرخين معاصرين لها ومنهم ، ابـن أبي طيء[٢] ، الذي لـم تصل إلينا كتبه ، إضافة إلى أنه اعتـمد على العمـاد الأصفهاني ، وابن شداد .

---

(١) هو شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الأصل ، الدمشقي ،المعروف بأبي شامة . أنظر عنه : محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٢٦٢م) ، فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، د.ط ، دار صادر ، بيروت د.ت ، جـ٤ ، ص١٠٠ . سيشار إليه تاليا : الكتبي ، فوات الوفيات .

(٢) هو يحيى بـن حميـدة بن ظافر بن علي بن عبدالله الغساني الحلبي ، المعروف بابن أبي طيء ، نشأ في حلب ، وقرأ القرآن ، والحديث ، ودرس علوم البلاغة والأدب والتصوف ، وصنف في الفقه ، والقراءات ، والتـاريخ ومن ذلك كتابه كنز الـموحدين في سيرة صلاح الدين ، إلا أنه مفقود . أنظـر : الزركلي ، الأعلام ، جـ٨ ، ص١٤٤ .

تضمنت هذه المادة ، معلومات مفصلة ، عن موقف جمهور الناس ، والعلماء من الصليبيين ، إلى جانب اهتمام مماثل بذكر موقف الحكام المسلمين منهم ، ومن هنا فقد ساعد الدراسة في توضيح موقف العلماء والأدباء من الصليبيين ، وبخاصة بعد تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٧٨م ، فقد أورد أقوال المؤرخين في الفتح ، وما ورد حوله من رسائل لكبار كتاب العصر ، وما أنشأه الخطباء من خطب ، وما أثاره هذا الفتح في نفوس الشعراء من شعر ، بل أنه انفرد بذكر مواقف للعلماء والأدباء من الصليبيين ، لم تذكرها المصادر الأخرى .

ب – <u>تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين</u> :

وضع أبو شامة كتاب التراجم ، تذييلا على كتاب الروضتين ، سجل فيه الأحداث التي عاصرها ، ونقل فيها عن غيره مثل سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، فهو كتاب تراجم لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، أثرى الدراسة في الفصل الرابع فيما قدمه من تراجم لمجموعة من العلماء ، والأدباء ، الذين عاصروا الدولة الأيوبية ، وفي رسم صورة عن موقفهم من الصليبيين .

٩ – مفرج الكروب في أخبار بني أيوب[1] ، لابن واصل الحموي[2] (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) :

ولد ابن واصل في حماة سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ، ونشأ واشتغل بالعلم وتوفي فيها سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م ، عاصر الحقبة التالية لوفاة صلاح الدين الأيوبي (٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م) ، وشهد أحداث الحملتين الصليبيتين السادسة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، والسابعة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) على مصر ، وسقوط الدولة الأيوبية.

يعتبر كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب أهم مصدر تتضمن أجزاؤه الثلاثة الأولى ؛ تاريخ ملوك بني أيوب منذ ظهورهم على مسرح الأحداث وحتى نهاية دولتهم ، والمادة التي كتبها عن الحقبة التي لم يكن معاصرا لها أو مؤرخا لأحداثها (٥٦٩-٦١٥هـ/١١٧٣-١٢١٨م) ؛ والتي تغطي عصر صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٣-١١٩٣م) ، وعهد كل من الملك الأفضل ، والعزيز عثمان ، والملك العادل (٥٨٩-٦١٥هـ/١١٩٣-١٢١٨م) ، فقد اعتمد فيها على من سبقوه ممن أرخ للدولة الأيوبية ، مثل العماد الأصفهاني ، وابن الأثير ، وابن شداد .

---

(١) يقول ابن واصل في مقدمة كتابه " وبعد ، فهذا كتاب أوردت فيه أخبار ملوك بني أيوب ، وجملة من محاسنهم ومناقبهم ، وإذ كانوا أعظم من تقدمهم من الملوك شانا ، وأجلهم سلطانا ، فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أيدي الكافرين " . أنظر : جمال الدين بن واصل الحموي ، (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح : جمال الدين الشيال ، ط١ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٧م ، جـ١ ، ص١ . سيشار إليه تاليا : ابن واصل ، مفرج الكروب .

(٢) هو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصر بن سالم بن واصل الحموي . أنظر عنه : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٣ ، ص٨٥-٨٦ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ٦ ، ص١١٣ .

أما المادة التي كتبها عن عصر الملك الكامل (٥٨٩-٦١٥هـ/١١٧٠-١٢١٨م) ، وحتى سقوط الدولة الأيوبية ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، والتي غطاه في الجزئين ؛ الرابع ، والخامس ، فتعتبر ذات أهمية بالغة ؛ لأنه كان شاهد عيان لها ، ومعاصرا لأحداثها ، إضافة إلى أنه كان على صلة بأمراء بني أيوب في مصر ، وبلاد الشام ، وبعديد من العلماء ، والأدباء ، إضافة إلى أنه كان يحضر مجالس الوعظ التي يعقدها العلماء ، فهو شاهد عيان للأحداث ، بل ومشاركا فيها كذلك ، كما أنه في الحالات التي لم يعاصرها - وبقدر تعلق الأمر بهذين الجزئين - اعتمد على سبط ابن الجوزي ، وأبي شامة .

وتكمن أهمية الكتاب في أنه في التاريخ ، والأدب ، فهو ينهج نهج أبي شامة في التركيز على الجانب الشعبي ، أفاد الدراسة فيما صدر عن العلماء ، والأدباء من مواقف تجاه أحداث عصرهم ، وفي توضيح موقف صلاح الدين الأيوبي ، والأيوبيين من الصليبيين في الفصلين الثالث والرابع .

---

١٠ – شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، لأحمد بن إبراهيم الحنبلي[(١)] (ت٨٧٦هـ/١٢٧١م) :

ولد الحنبلي سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م في القاهرة ، ونشأ وتوفي فيها سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م ، لم يكن معاصرا للحقبة قيد الدراسة ، ولكن تبدو أهميته في موضوعه وهو الحديث عن بني أيوب وأعمالهم ، إضافة إلى اعتماده على مصادر كانت معاصرة للأحداث التي تحدث عنها ، ومنها : البرق الشامي ، والفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني ، والنوادر السلطانية لابن شداد ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، وكتاب الروضتين لأبي شامة ، ومفرج الكروب لا بن واصل الحموي .

الكتاب عبارة عن تراجم ، قسم فيها ملوك بني أيوب إلى طبقات ، وترجم لهم طبقة بعد طبقة بعد أن ذكر أصل البيت الأيوبي ، يعنى بالتاريخ والأدب معا ، روى فيه الكثير من الخطب والأشعار والرسائل ، ورواياته التي أوردها مفصلة ، أفادت الدراسة في الفصلين الثالث والرابع في رسم صورة عن موقف الأيوبيين من الصليبيين ، وموقف مجموعة من العلماء ، والأدباء منهم .

لم تقتصر الدراسة على اعتماد المصادر التاريخية ، بل رجعت إلى مجموعة من دواوين الشعر ممن عاصر أصحابها حقبة الدراسة وعبروا فيها عن موقفهم تجاه الصليبيين ، ومع أن الشعر لا يعتبر مصدرا أوليا في الكتابة التاريخية ، وقد يتضمن

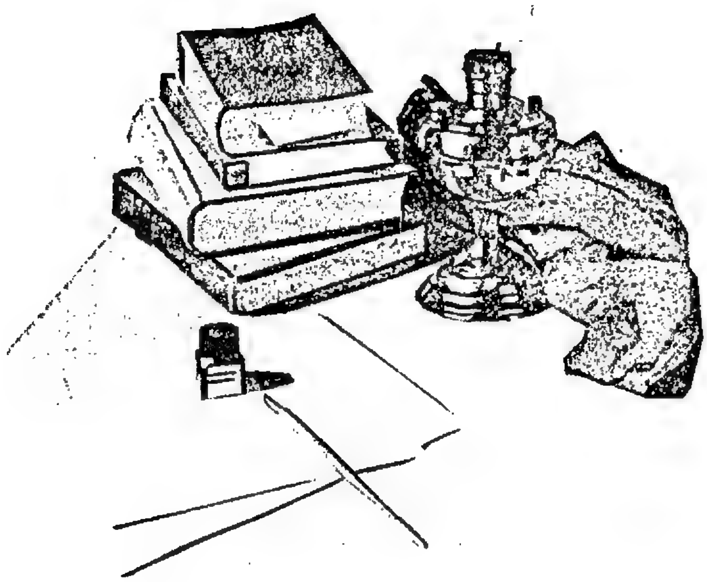
---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن أبي الفتح بن هاشم ، إسماعيل بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد الكناني العسقلاني . القاهري ، الحنبلي ، القادري . أنظر عنه : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) ، حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة ، د.ط ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، د.م ، ١٩٦٧م ، جـ١ ، ص٤٨٤ . سيشار إليه تاليا : السيوطي ، حسن المحاضرة ؛ أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩/١٦٧٨م) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، د.ط ، مطبعة مصر ، مصر ١٩٢٦م ، جـ٧ ، ص٣٢١-٣٢٢ . سيشار إليه تاليا : ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب .

مغالاة أو تجسيما فيما يقدمه ، فإنه ذو أهمية كبيرة في دراسة تتوخى معرفة موقف هذه الشريحة من الأدباء تجاه الصليبيين ، أما أبرز هذه الدواوين فهي : ديوان أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ/١١٨٨م) ، وديوان العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، وديوان ابن الساعاتي (ت٦٠٤هـ/١٢٠٨م) ، وديوان ابن سناء الملك (ت٦٠٨هـ/١٢١١م) ، ديوان فتيان الشاغوري (ت٦١٥هـ/١٢١٨م) .

ولم تقتصر مصادر الدراسة على ما ذكر أعلاه بل شمل مجموعة من المصادر غطتها في بعض جوانبها ، ومجموعة من المراجع العربية ، والأجنبية ، فنظرا لأهمية عصر الحروب الصليبية ، بشكل عام ، والعصر الأيوبي ، بشكل خاص ، فقد عمد المؤرخون للكتابة في هذا الميدان ، فمنهم من اهتم بالجانب السياسي والعسكري ، ومنهم من اهتم بالجانب الثقافي ، ولكنهم لم يتناولوا موقف العلماء ، والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي في دراسة خاصة ، وهناك قائمة من المصادر والمراجع والبحوث العربية والأجنبية ؛ يمكن الاطلاع عليها ، وعلى مدى إفادتها للدراسة في ثناياها ، وفي قائمة المصادر والمراجع .

الفصل الثاني



موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام الدولة الأيوبية

(٤٩٠-٥٦٩هـ / ١٠٩٦-١١٧٣م)

المبحث الأول : موقف الخلافة العباسية من الصليبيين

(٤٩٠ – ٥٦٩هـ / ١٠٩٦ – ١١٧٣م) .

المبحث الثاني : موقف الخلافة الفاطمية من الصليبيين

(٤٩٠ – ٥٦٧هـ / ١٠٩٦ – ١١٧١م) .

المبحث الثالث :موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام

الأتابكية الزنكية

(٤٩٠ – ٥٢١هـ / ١٠٩٦ – ١١٢٧م) .

المبحث الرابع : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عهد

الأتابكية الزنكية

(٥٢١ – ٥٦٩هـ / ١١٢٧ – ١١٧٣م)

الفصل الثاني

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام الدولة الأيوبية

(٤٩٠-٥٦٩هـ/١٠٩٦-١١٧٣م)

تمهيد:

إن دراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي - وهو موضوع هذه الدراسة - يقتضي التمهيد له أولا بمعرفة موقفهم ابتداء بقيام الحملة الصليبية الأولى[١] بغزو بلاد الشام سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، وانتهاء بسنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ؛ تاريخ قيام الحكم الأيوبي ، ثم بمعرفة رد فعل الدولتين ؛ العباسية ، والفاطمية على ذلك الغزو ، ومدى تأثيره على موقف العلماء والأدباء ، فهاتان الدولتان تزامنتا مع الغزو الصليبي ، وكانتا تتقاسمان النفوذ السياسي في بلاد الشام ، والجزيرة الفراتية ، التي تقصّدها هذا الغزو ، وتمكن من أن يقيم له فيها كيانات سياسية متعددة .

---

(١) أرسلت هذه الحملة بناءا على توجيه من البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٤م تحت شعار تخليص بيت المقدس ، وقد كان ذلك بداية لحركة كبيرة هي التي عرفت بالحروب الصليبية التي عرفها سعيد عاشور بأنها : " حركة كبيرة نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين وبخاصة الشرق الأدنى بقصد امتلاكه " . أنظر : سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ١٩٧٨ ، جـ١ ، ص٢٥ . سيشار إليه تاليا : عاشور ، الحركة الصليبية .

المبحث الأول

موقف الخلافة العباسية من الصليبيين

(٤٩٠-٥٦٩هـ/١٠٩٦-١١٧٣م)

يرتبط موقف الدولة العباسية من الصليبيين بين سنتي (٤٩٠-٥٦٩هـ/١٠٩٦-١١٧٣م) ، بما شهدته خلال العقود الستة التي سبقت ذلك من تغيّر في التوازن السياسي الذي كان قائما بينها وبين الدولة البيزنطية من إزاحة ما كان من نفوذ للدولة العباسية في بعض أجزاء أرمينية الكبرى [(١)] ، بل أنها تمكنت بين سنتي (٤٣٧-٤٥٥هـ/١٠٤٥-١٠٦٣م) [(٢)] ، أن تهيمن على هذه البلاد وتحولها إلى ثيمات عسكرية[(٣)] ، مما يعني غيابا لقوة حاجزة بين الطرفين المشار إليهما ، وامتلاكا لمواقع حيوية تواجه الثغور والعواصم

---

(١) اسم لصقع عظيم يقع في الشمال من القوقاز . أنظر : شهاب الدين ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، معجم البلدان ، إعداد فريد الجندي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م ، جـ١، ص١٥٩ . سيشار إليه تاليا : ياقوت الحموي ، معجم البلدان .

(٢) بول أميل ، تاريخ أرمينية ، ترجمة شكري علاوي ، د.ط ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، د.ت، ص٢٨ .

(٣) مفردها ثيم (Theme) ، وتعني في الأصل قسما من الجند أو الفرقة من الجيش ، (وهي تقابل في المصادر العربية تعبير : جند أو بند) ، وقد أطلقت على المنطقة العسكرية في التنظيم الإداري العسكري البيزنطي الجديد . ظهرت هذه الثيمات نتيجة لإعادة تنظيم الفرق العسكرية البيزنطية المتمركزة في الشام وأرمينية ، عقب فتوح العرب المسلمين الكبرى ، وكان يتولى كل ثيم قائد عسكري يسمى ستراتيجوس (Strategus) ، يجمع بين القيادة العسكرية والإدارة المدنية في منطقته .
أنظر : وسام عبد العزيز فرج ، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية (٣٢٤-١٠٢٥م) ، د.ط ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، د.ت ، جـ١ ، ص١٩٩ .

العباسية وتهددها[١] ؛ وهو ما دفع الدولة العباسية – ضمن أسباب أخرى[٢] – إلى الاستعانة بقوة سياسية فتية ، كانت قد أقامت دولة لها في بلاد ما وراء النهر[٣] ، وإيران ، منذ سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ؛ وهي السلطنة السلجوقية [٤] ، حيث اعترف الخليفة العباسي القائم بأمر الله [٥] (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) بشرعيتها [٦] ، ورحب بها في بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ،

---

(١) أنظر خارطة الحدود بين الدولة العباسية وبلاد الروم في الصفحة التالية من هذه الدراسة .

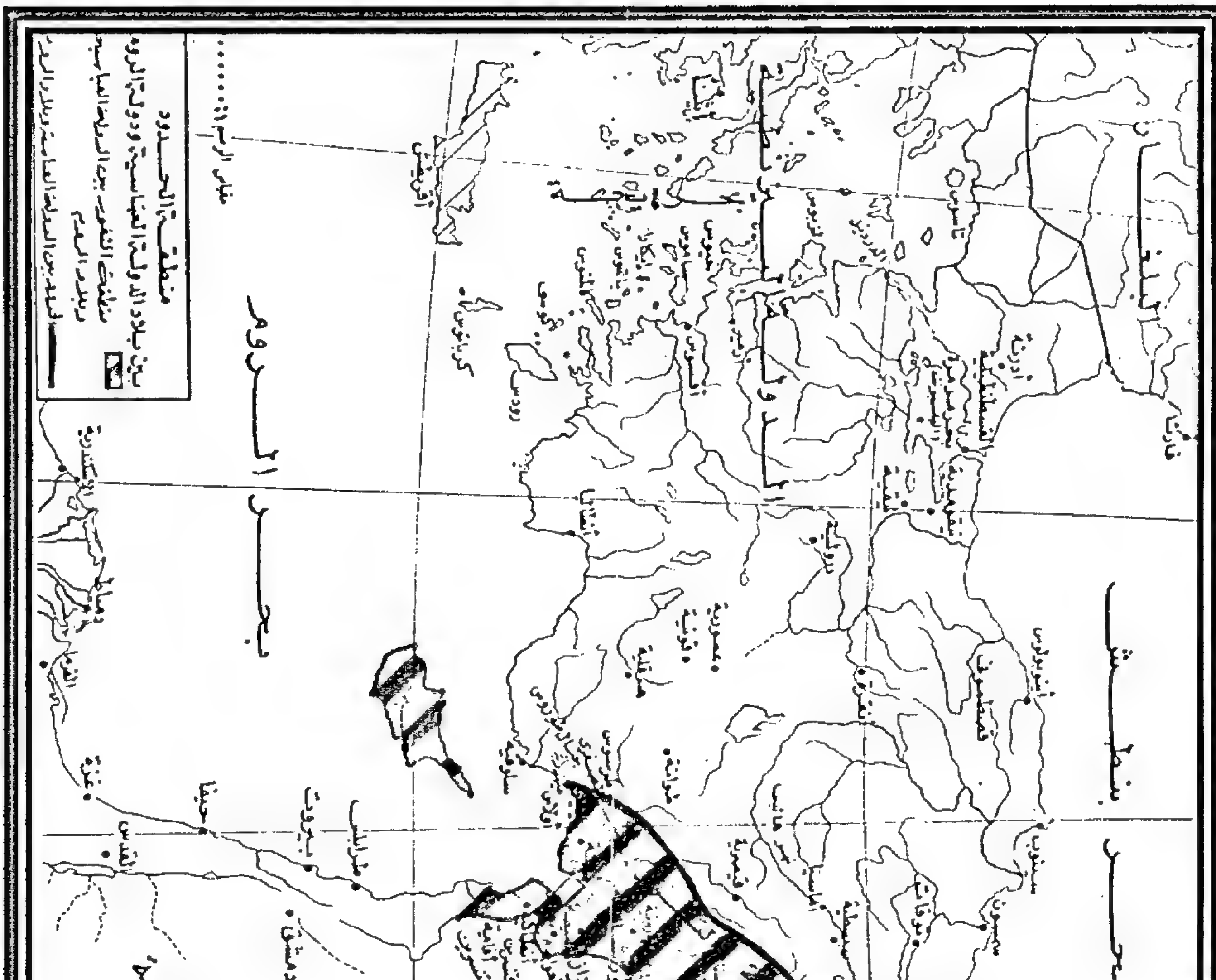
(٢) حول هذه الأسباب أنظر : خليل ابراهيم السامرائي وأخرون ، تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م) ، د.ط مديرية دائرة الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨٨م ، ص٢١٣-٢١٧. سيشار إليه تاليا : السامرائي وأخرون ، تاريخ الدولة العربية .

(٣) يقصد به نهر جيحون الذي ينبع من بلاد الترك ويصب في بحيرة خوارزم بخراسان . أنظر : صفي الدين البغدادي (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م) ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تح : علي محمد البجاوي ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٢م ،جـ٣ ، ص١٢٢٣ . سيشار إليه تاليا : البغدادي ، مراصد الاطلاع .

(٤) تأسست في إيران سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) ، وكان طغرلبك سلطانا عليها ، . أنظر : علي بن أبي الكرم ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، الكامل في التاريخ ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٢م ، جـ٩ ، ص٤٨١ . سيشار إليه تاليا : ابن الأثير ، الكامل . وللمزيد أنظر : أحمد الشنتناوي وأخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، مراجعة محمد علام ، دار الفكر ، " مادة السلاجقة " ، جـ١٢ ، ص٢٤-٣٩ . سيشار إليها تاليا : الشنتناوي و أخرون ، دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) هو أبو جعفر عبدالله بن القادر بالله ، بويع بالخلافة في ٢١ ذي الحجة سنة (٤٢٢هـ/١٠٣٠م) ، وتوفي في ١٣ شعبان سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) . أنظر : الحافظ شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، العبر في خبر من غبر ، تح : محمد السعيد بسيوني زغلول ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م ، جـ٢ ، ص٣٥٢ . سيشار إليه تاليا : الذهبي ، العبر .

(٦) كان اعتراف الخليفة العباسي ضروريا لإعطاء السلطنة وحكمها صفة شرعية . أنظر : السامرائي وأخرون ، تاريخ الدولة العربية ، ص٢٠٩ .



نقلاً عن : حسين مؤنس ، <u>أطلس تاريخ الإسلام</u> ، ص ١٥٠

وأناط بها مسؤولية الدفاع عن الدولة أمام أعدائها ضمن صلاحيات عديدة أخرى [١] .

والواقع أن سلاطين السلاجقة الثلاثة الأوائل طغرلبك [٢] (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م) ، ثم ألب أرسلان [٣] (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م) ، ثم ملكشاه [٤] (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) ، - وهم الذين يعرفون بالسلاطين العظام - نجحوا - وبخاصة السلطان الثاني بينهم - ، في التغلغل في آسيا الصغرى وإزاحة ما كان البيزنطيون يعتبرونه خط دفاعهم الأول في أرمينية الكبرى ، حيث تمت السيطرة على مدينتي (آني) سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م [٥] ، و(قرس) سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م [٦] ؛ وهما العاصمتان القديمتان لأرمينية ، واللتان تمثلان المركز الأساس لقوة الدولة البيزنطية في الأقاليم الشرقية من آسيا الصغرى [٧] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص٦٠٩ ؛ كمال الدين بن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) بغية الطلب في تاريخ حلب ، تح : سهيل زكار ، د.ط ،د.ن ، دمشق ١٩٨٨م ، جـ٣ ، ص١٣٤٨ . سيشار إليه تاليا : ابن العديم ، بغية الطلب .

(٢) هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، تولى السلطنة سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٦٣ .

(٣) هو أبو شجاع محمد بن جغري ألب أرسلان ، وهو ابن أخي السلطان طغرلبك ، وقد تولى السلطنة سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٦٩.

(٤) هو أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان الملقب بجلال الدولة ، وبالسلطان العادل . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٨٤ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٠ -٤١ ؛ ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة: السيد الباز العريني ، د.ط ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٩٧م ، جـ١ ، ص٩٥ . سيشار إليه تاليا : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية .

(٦) رنسيمان ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٩٥ .

(٧) المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٠٠ .

مع أن الدولة البيزنطية اتخذت إجراءات عسكرية واسعة ، دفعت بجيش كبير قاده الإمبراطور رومانوس ديوجينوس (Romanues Diogenes) ، (٤٦٠-٤٦٤هـ/١٠٦٧-١٠٧١م) ، بهدف استعادة مكانة بيزنطة في أرمينية ، ودفع المسلمين نحو حدودهم ، فإنها منيت بخسائر كبيرة في معركة ملازكرد [١] (Manzikert) التي وقعت سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) [٢] ، ونجم عن ذلك مزيد من الهيمنة العباسية السلجوقية على أرمينية الكبرى ، بل والاندفاع نحو مواقع بيزنطية جديدة ، والاستيلاء عليها [٣] ، وهو ما أدى في السنوات اللاحقة إلى تأسيس سلطنة سلجوقية ، ضمن الأراضي البيزنطية المستولى عليها ، والتي عرفت بسلطنة سلاجقة الروم [٤] (٤٧٠-٧٠٧هـ/١٠٧٧-١٣٠٠) ، مما

---

(١) يتردد الاسم في المصادر العربية بصيغتي (ملازكرد) و (منازكرت) ، وقد اعتمدت الدراسة الصيغة الأولى ؛ وهي بلدة مشهورة في بلاد أرمينية بين خلاط وبلاد الروم ، وسماها البعض بالزهرة لذا فقد عرفت معركة ملازكرد باسم معركة الزهرة أيضا . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢٠٢ ؛ الفتح بن علي البنداري (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ، تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار كتاب : نصرة الفترة وعصرة الفطرة ، لمحمد بن محمد العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، تح : لجنة إحياء التراث العربي ، د.ط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠م ، ص٤٠-٤١ . سيشار إليه تاليا : البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق ؛ البغدادي ، مراصد الاطلاع ، جـ٣ ، ١٣١٤ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٩ .

(٣) من المواقع البيزنطية التي سيطر السلاجقة عليها جبال الأمانوس ، وقيسارية ، كما هزموا القوات البيزنطية في ملطية وسيواس ، وسيطروا على عمورية ، وقونية ، حتى بحر ايجة . أنظر : رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ١، ص١٠٠ .

(٤) تأسست هذه السلطنة في آسيا الصغرى على يد سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م . أنظر : الشنتناوي وآخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، جـ١٢ ، ص٢٥ ؛ وللمزيد حول ذلك أنظر : السامرائي وآخرون ، تاريخ الدولة العربية ، ص٢٢٤ .

شكل تحديا أكبر من ذي قبل للبيزنطيين ، فقد تغلغلت السلطنة الجديدة في عمق بلادهم ، وأفقدهم ذلك القدرة على المواجهة ، مما دفعها إلى أن تستنجد بالبابوية ، وبملوك أوروبا لإنقاذها مما كانت تواجهه ، ولاستعادة ما فقدته من ممتلكات[١] .

وفي حين لقيت هذه الدعوة استجابة واسعة تبنتها البابوية ، ونجم عنها إرسال أولى الحملات الصليبية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م ، كانت السلطنة السلجوقية – وهي المؤسسة التي كانت مهمتها الدفاع عن دولة الخلافة العباسية – كما أشير إليه آنفاً – قد افتقدت تماسكها ، وغرقت في أعقاب وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، في صراعات[٢] بين زعماء البيت السلجوقي ، بعضهم مع بعض ، ومع الخلافة العباسية أيضا ، حتى أنها لم تتخذ أي إجراء عند وصول الحملة الصليبية الأولى واصطدامها مع سلطنة سلاجقة الروم أو بعد ذلك ، بل وحتى بعد احتلالها للرّها[٣] وتأسيس إمارة صليبية فيها سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م،

---

(١) للمزيد حول ذلك أنظر :

William B. Stevenson Ditilt. "Peril of the Eastern Empire", in Cambrige Medival History, Cambrige, university press, 1957, Vol V, P. 270

Subsequently cited as: stevenson, "peril of the Eastern Empir".

(٢) شهدت الفترة بين وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وقدوم الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م – وهي لا تتجاوز ست سنوات – انقسام السلطنة السلجوقية إلى خمسة أقسام هي : سلاجقة فارس ؛ وكان العراق تابعا لها ، وسلطنة أصفهان ؛ وكان على رأسها السلطان بركياروق ، ومملكة خراسان ؛ وهي تحت حكم فخر الملوك رضوان بن تتش ، ومملكة دمشق ؛ وعليها شمس الملوك دقاق بن تتش ، ثم سلاجقة الروم التي أسسها سليمان بن قتلمش. أنظر : علي بن أبي الكرم بن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تح : عبد القادر أحمد طليمات ، د.ط ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص٤ . سيشار إليه تاليا : ابن الأثير ، التاريخ الباهر .

(٣) مدينة في الجزيرة الفراتية بين الموصل وبلاد الشام . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٠٦ .

ثم في أنطاكية (١) ، وفي السنة ذاتها (٢) ، ثم في بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م(٣) ، مما يعطي انطباعا ، أن كلا من الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية ، لم تكونا معنيتين بما كان يجري على حدود بلدان الخلافة من متغيرات ؛ ومنها الحدود الغربية ، وأدلة ذلك :

أولاً : أن الخليفة العباسي المستظهر بالله(٤) (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م) ، لم يتخذ أي إجراء تجاه الغزو الصليبي حتى ما بعد احتلال القدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م كما أن الإجراء الذي اتخذه في أعقاب ذلك ، جاء استجابة لضغط وفدٍ قدم من دمشق سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م لمقابلته برئاسة قاضيها زين الدين أبو سعد الهروي (٥) (ت٥١٩هـ/١١٢٥م) ، الذي أطلعه على ما حل بالمسلمين

---

(١) مدينة في بلاد الشام حولها سور عظيم ، من الثغور الإسلامية ، يقع على بحر الروم . أنظر : البغدادي ، مراصد الاطلاع ، جـ١ ص١٢٤ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٢ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٧٧-١٨٢.

(٣) حمزة بن أسد بن القلانسي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) ، ذيل تاريخ دمشق ، تح : أمدروز ، د.ط ،د.ن ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص١٣٨ . سيشار إليه تاليا : ابن القلانسي ، ذيل ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣ .

(٤) هو أحمد بن أبي عبدالله بن المقتدي بالله ، بويع له بالخلافة سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ، وتوفي في سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) . أنظر : الذهبي ، العبر ، جـ٢ ، ص٣٩٩ .

(٥) هو محمد بن نصر بن منصور الهروي ، البشكاني ، نسبة إلى بشكان ، من قرى هراة ، ولد سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) ، وولي القضاء في بغداد سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م ، اتصل بخدمة السلاطين السلاجقة ، قتله الباطنية بجامع همذان سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٦٣٠ ؛ شمس الدين سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، د.ط ، مطبعة الجمعية التركية ، أنقرة ١٩٦٨م ، جـ٨، ق١ ، ص١١٥ . سيشار إليه تاليا : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ؛ محيي الدين عبد القادر الحنفي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ، الجواهر المضيّة في الطبقات الحنفية ، تح : عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، هجر للطباعة ، د.م ، د.ت ، جـ٢ ، ص١٣٧ . سيشار إليه تاليا : الحنفي ، الجواهر المضيّة .

عند احتلال الصليبيين لبيت المقدس ، وقد اقتصر إجراؤه هذا على توجيه الوفد إلى أصفهان لمقابلة السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه [1] (٤٨٨-٤٩٨هـ/١٠٩٥-١١٠٤م) ، وأسنده في مهمته هذه ، فأضاف إليه عددا من علماء بغداد[2] ليشاركوا في توضيح خطورة الموقف ، وما يجب اتخاذه من إجراءات ، باعتبار أن الدفاع عن الدولة هو من مهامه ، إلا أن رجال الوفد الذين غادروا باتجاه أصفهان ، أدركوا عند وصولهم إلى مدينة حلوان [3] أن عليهم أن يعودوا "... ، **من غير بلوغ أرب ولا قضاء حاجة** " [4] كما نص عليه ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، الذي أومأ إلى أن السبب وراء ذلك هو اضطراب الأوضاع في أصفهان ، إثر مقتل الوزير مجد الملك البلاساني [5] ، وذلك سبب لا يعكس إلا المدى الذي كانت عليه السلطنة السلجوقية من ضعف .

ثانيا : اقتصرت السلطنة السلجوقية على إعطاء أوامرها إلى ولاة الموصل وبلاد الشام حتى يقوموا ، هم بمهمة الدفاع عن البلاد ضد الغزو الصليبي ، دون أن يرافقها أي إسناد منها للقوى المشار إليها على المستوى العسكري ، أو على مستوى إعلان النفير العام ، كما هو معتاد في مثل هذه الظروف [6] .

---

(١) هو أبو المظفر بن ملكشاه ، تولى السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ، توفي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٧ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ١٠ ، ص٢٨٤ .

(٤) المصدر نفسه ، جـ١٠ ، ص٢٨٤ .

(٥) حول مقتل مجد الملك البلاساني أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٨٩ .

(٦) للمزيد حول ذلك أنظر : عماد الدين خليل ، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ، عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م) ، ط١ ، مكتبة المعارف ، الرياض ١٩٨١ ، ص٦٩-١٦٧ . سيشار إليه تاليا : خليل ، المقاومة الإسلامية .

والواقع أن ما قامت به القوى المحلية من تحركات عسكرية لمواجهة الصليبيين بين سنتي (٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣م) - وهو ما ستتناوله الدراسة تاليا - لم يكن انعكاسا لأوامر السلاطين السلاجقة ، بقدر ما كان تعبيرا عن المخاوف التي ساورتهم نتيجة الضغط الكبير على بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، التي كانت تشعر بأنها مهددة بامتداد الغزو الصليبي إليها ، كما أنه جاء استجابة لحالة الضغط الشعبي الذي ساد بلاد الشام والجزيرة الفراتية آنذاك ، وفي ضوء ذلك يمكن أن نفرق بين مرحلتين في مواجهة القوى السياسية المحلية في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام للغزو الصليبي في الفترة ما بين (٤٩١-٥٦٩هـ/١٠٩٧-١١٧٣م) ، وهما :

أولا : تصدي الأمراء المحليين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية الصليبيين (٤٩١-٥٢١هـ/١٠٩٧-١٠٢٧م) :

جاء أول رد فعل للأمراء المحليين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية على الحملة الصليبية الأولى من الأمير السلجوقي ياغي سيان حاكم مدينة أنطاكية ، التي حاصرها الصليبيون سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، لقد استطاع حاكم هذه المدينة أن يقاوم الحصار قرابة عشرة أشهر ، وفي حين أنه أبدى قدرة عالية في الدفاع عن مدينته[١] ، فإنه لم يفلح في الحصول على إسناد من السلطنة السلجوقية ، التي يرتبط بها الأمراء المحليون الذين استجار بهم ، ولكنهم كانوا متباطئين في نجدته ، ولم يستطيعوا أن يقدموا له أي عون فعلي ، باستثناء أمير الموصل قوام الدولة أبو سعيد كربوغا (٤٨٩-٤٩٥هـ/١٠٩٥-١١٠١م) الذي أعد حملة لإسناده ، وجاء معه دقاق بن تتش صاحب سنجار ، وجناح الدولة الحسين صاحب حمص ، وتوجهوا إلى

---

[١] قام ياغي سيان بإخراج بعض النصارى من الأرمن والسريان والإغريق من الرجال من أهل مدينة أنطاكية خارج أسوارها، خوفا من أن يقوموا بمساعدة الصليبيين ، وكانت الذريعة التي تذرع بها في ذلك حاجته لحفر خندق حول أنطاكية فلما أرادوا الرجوع إليها منعهم من دخولها . أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص١٩١ .

أنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، ولكن هذا التحرك لم يحقق شيئا [1] ، لأنـــه وصــل مشارف أنطاكية بعد أن كانت قد سقطت في أيدي الصليبيـــن ، لتصبــح الإمــارة الصليبية الثانية بعد إمارة الرها التي كان قد نجح الصليبيون في تأسيسها قبل ذلك .

لقد ترك هذا التغير في الخارطة السياسية ببلاد الشام والجزيرة الفراتيـة أثرا بالغا على الأتابكيات والإمارات الإسلامية فيهما ، فقد أصبحت مناطقهم مــهددة من الشمــال ، ومــن الغــرب ، وهــو ما جعــل الأمــــراء المحــليين فيــهما يقومــون بــتوجيــه حمــلات عسكريـــة ضد الصليبيين في هذا المـــوقع أو ذاك وهؤلاء الأمــراء هم : شمــــس الــدولة جكرمــش[2] (٤٩٥-٥٠٠هـــ/١١٠١-١١٠٦م) ومــودود بــن الــتونتكــين[3] (٥٠٢-٥٠٧هـ/١١٠٨-١١١٣م) ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٦ .

(٢) قام شمس الدولة جكرمش حاكم الموصل سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م ، بأمــر من الســلطان الســلجوقي محمد بن ملكشاه بحملة ، تحالف فيها مع رضوان بن تتش ؛ أمير حلب ، وإيلغازي بن أرتق ؛ أمـــير ماردين ، وألبي تمرتاش ؛ صاحب سنجار ، وأصبهاني صباو ؛ أحد كبار أمراء فارس ، ولكــن هــذا التحالف لم يحقق أهدافه ، ثم قاد جكرمش تحــذركه الأخر باتجاه الرها ، إلا أنه عاد دون أن يحقـــق شيئا . أنظر : ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٤٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤١٥ .

(٣) تحالــف مودود بن التونتكين ؛ حاكم الموصل ، مع إيلغازي بن أرتق ؛ صــاحب مــاردين وســكمان القطبي ؛ أمير أرمينية ، لمهاجمة الرها سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م على رأس حملة ، لم تحقق شيئا ، ثــم أعقبها بحملة ثانية ، بأمر من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه وذلك في سنة ٥٠٤هـــ/١١١٠م ، حيث شكل حلفا مع كل من : سكمان القطبي ؛ أمير أرمينية ، وبرســق الكــردي ؛ حــاكم همــذان ، وأحمديل الكردي ؛ صاحب مراغة ، وأبي الهيجاء ؛ صاحب أربل ، فاستولوا على عدد من المواقـــع الصليبية في إقليم شبختان ؛ شرقي الفرات ، كما قام مودود في في سنة ٥٠٥هـ/١١١١م بحملة علــى الرها ، وقد استجاب سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م ، لاستنجاد ظهير الدين طغتكين ؛ صاحب دمشــق بــه ، فواجها الصليبيين في معركة الاقحوانة وانتصرا فيها . أنظر : ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٦٢-١٧٧ ؛ غريغوريوس أبي الفرج بن العبري (ت٦٨٥هـ/١٢٨٨م) ، تاريخ مختصر الــدول ، تصحيــح الأب أنطــوان صالحاني اليسوعي ، د.ط ، الرائد اللبناني ، بيروت ١٩٨٣ ، ص١٩٩ . سيشار إليه تاليـا : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول .

وأقسنقر البرسقي [1] (٥٠٨-٥٢٠هـ/١١١٤-١١٢٦م) ، وإيلغازي (٥٠٠-٥١٦هـ/١١٠٦-١١٢٢م) ؛ صاحب ماردين ، وظهير الدين طغتكين (٤٩٧-٥٢٢هـ/١١٠٣-١١٢٨م) ؛ أتابك حلب [2] .

مع أن هذه التحركات نجحت في الإبقاء على المقاومة حية ضد الصليبيين ، إلا أنها لم تحقق نتائج حاسمة ضدهم[3] . وتبدو أهمية هذه التحركات في أنها قامت في ظل غياب دور فاعل للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية .

ثانيا : التصدي الزنكي للصليبيين (٥٢١-٥٦٩هـ/١١٢٧-١١٧٣م) :

على الرغم من الحملات العسكرية التي شنها الأمراء المحليون في بلاد الشام والجزيرة الفراتية على الصليبيين ، مما أشير إليه آنفا ، فقد ظل الوضع في هذه البلاد قلقا ومضطربا . إن مرور ثلاثة عقود على الغزو الصليبي(٤٩١-٥٢١هـ/١٠٩٧-١١٢٧م) – وهي التي استغرقتها المرحلة الأولى- واستمرار

---

(1) سار آقسنقر البرسقي ؛ حاكم الموصل إلى الرها سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م ، لمواجهة الصليبيين ، ولكن حملته هذه لم تسفر عن أية نتائج ، كما تحالف سنة ٥١٠هـ/١١١٦م ، مع ايلغازي بن أرتق ؛ صاحب ماردين ، وظهير الدين طغتكين ؛ أتابك حلب ، في شن حملة ضد الصليبيين حققت انتصارا عليهم ، واستمرت حملاته عليهم في السنوات ٥١٨هـ/١١٢٤م ، ٥١٩هـ/١١٢٥م ، ٥٢٠هـ/١١٢٦م ، ومع أن هذه الحملات تصدت للصليبيين بنجاح ، إلا أنها مع ذلك لم تحقق انتصارا حاسما ، انتهت إلى عقد هدنة معهم . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٠١-٦٤٠ ؛ كمال الدين بن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تح سامي الدهان ، د.ط ، د.ن ، بيروت ١٩٦٨ ، جـ٢ ، ص٢٣١-٢٣٩ . سيشار إليه تاليا : ابن العديم ، زبدة الحلب .

(2) قام ايلغازي بن أرتق ؛ صاحب ماردين ، بحشد جيوشه ، واجتمع إليه ظهير الدين طغتكين ؛ أتابك حلب ، لحماية حلب من الخطر الصليبي ، وتحركت الجيوش المجتمعة في حملة نحو تل باشر ، والرها ثم عبرت الفرات باتجاه قنسرين ، لإنقاذ حلب من تهديد الصليبيين ، وجرت بينهم وبين الصليبيين معركة سميت بمعركة البلاط سنة ٥١٣هـ/١١١٩م ، هزم فيها الصليبيون واستمر ، ايلغازي بن أرتق في محاولاته ضدهم ، فاجتاح كل المنطقة بين تل باشر كيسوم ، ثم اتجه إلى سميساط وتل باشر للاستيلاء على عزاز . أنظر : ابن القلانسي ، ذيل ، ص٢١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٦٨ .

(3) حول ذلك انظر : خليل ، المقاومة الإسلامية ، ص٦٩-١٦٨ .

احتلاله لأجزاء واسعة من بلاد الشام ، وما عكسته هذه الحقبة من موقف سلبي عباسياً وسلجوقياً ، أثار جمهور الناس في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، وجعلهم يتطلعون إلى شخصية سياسية قادرة على مواجهة هذا الغزو ، وأخذ رد الفعل الشعبي هذا يتنامى ، ودليل ذلك ما حدث سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ، بعد مقتل أحد الشخصيات البارزة التي تصدت للغزو الصليبي ، وهو حاكم الموصل ، آقسنقر البرسقي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م ، الذي قتله الباطنية [١] ، والذي ترك مقتله فراغا كبيرا وجعل الحاجة ماسة إلى البحث عن شخصية جديدة قادرة على مواجهة الغزو الصليبي ، وهو ما دفع الوفد الذي ذهب من الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م [٢] ، مكلفا بأخذ موافقة السلطان محمود بن ملكشاه[٣] (٥١١-٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣٠م) ، بتثبيت ابن لآقسنقر البرسقي ، محل أبيه ، إلى أن يخرج عن مهمته الرسمية هذه ، وينقل إلى السلطنة السلجوقية خطورة الموقف في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، ويقترح تعيين شخصية كفؤة غير التي ذهب من أجل تثبيتها- أي ابن البرسقي - تكون قادرة على المواجهة ودفع الصليبيين واسترداد البلاد منهم [٤] .

---

(١) تشير المصادر إلى أن هذه الطائفة تنسب إلى مؤسسها الحسن بن الصباح ، وإلى إنها عرفت بالباطنية لأنها كانت تبطن خلاف ما تظهر ، وكما أنها عرفت بالإسماعيلية نظرا لمناداتها بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق . أنظر : إسماعيل بن علي بن أبي الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) ، المختصر في أخبار البشر ، ط١ ، علق عليه محمود ديوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٧م ، جـ٢ ، ص٣٠ . سيشار إليه تاليا : أبو الفداء ، المختصر .

(٢) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص٣١ .

(٣) هو محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ، تولى السلطنة بعد وفاة والده سنة ٥١١هـ/١١١٧م ، وتوفي في همذان لمرض ألم به سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م ، انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١ ، ص٦٦٩ .

(٤) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص٣١ .

قام الوفد بنقل هذه الصورة أولا إلى وزير السلطان السلجوقي وهو أنوشروان بن خالد ، ونوه له بترشيح رجل وجدوا فيه القدرة والكفاءة على مواجهة الصليبيين ، وهو عماد الدين زنكي ، الذي اقتنع السلطان محمود بن ملكشاه بتوليته الموصل ، وذلك في سنة ٥٢١ هـ/١١٢٧م[١] ، وقد سلم إليه ولديه ؛ ألب أرسلان ، وفروخ شاه ، وجعله أتابكا لهما ، فعرف بالأتابك[٢] .

لقد جاء تعيين عماد الدين زنكي سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م أتابكا على الموصل في محله ، فقد كان على وعي بما كان وراء الصليبيين من مخاطر[٣] ، وجاء تعيينه منسجما مع ردود الفعل الشعبية التي طالبت بضرورة التحرك الجاد لمواجهة الغزو الصليبي ، - كما أشير إليها آنفا - والواقع أن الأتابكية الزنكية استطاعت خلال عهد عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م) ، ثم في عهد ابنه نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) ، تقليص النفوذ الصليبي ، وتحقيق مجموعة من الأهداف ، هي :

أولا : خلق جبهة إسلامية موحدة في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، تمكنت من أن تطوق الكيانات الصليبية ، وقد كان هذا يعني زوالا للقيادات السياسية والعسكرية المحلية التي مارست نشاطاتها في المرحلة الأولى المشار

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تح : محمد ومصطفى عبد القادر عطا ، مراجعة نعيم زرزور ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢م ، جـ١٧ ، ص١٤٤ . سيشار إليه تاليا : ابن الجوزي ، المنتظم ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ص٣١ .

(٢) كلمة تركية مكونة من "أتا" وهو الأب و"بك" وهو الأمير وكان الأتابك يكلف من السلطان بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد . أنظر : أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، د.ط ، المطبعة الأمريكية ، دار الكتب المصرية ، د.ت ، جـ٤ ، ص٨ . سيشار اليه تاليا : القلقشندي ، صبح الأعشى.

(٣) حول ذلك أنظر : عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، د.ط ، مطبعة الزهراء الحديثة ، الموصل ١٩٨٥ ، ص٣٧-٣٩ . سيشار إليه تاليا : خليل ، عماد الدين زنكي .

إليها ، وولادة قيادة سياسية عسكرية موحدة [١] .

ثانيا : إسقاط أولى الإمارات الصليبية في الجزيرة الفراتية ، وهي إمارة الرُّها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م [٢] ، وضم معظم أراضيها إلى الأتابكية الزنكية ، مما أضاف إليها مواقع حيوية جديدة مكنتها من مراقبة التحركات الصليبية في أنطاكية ، ومملكة بيت المقدس[٣] .

ثالثا : إفشال خطط وحملات مملكة بيت المقدس للسيطرة على مصر ، لاتخاذها قاعدة للهجوم على بلاد الشام ، والأطراف الإسلامية الأخرى في الفترة ما بين (٥٥٩-٥٦٤هـ/١١٦٣-١١٦٨م) [٤] ، بل إنهم نجحوا في مد نفوذهم إلى مصر ثم ضمها سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م إليهم ، أي بعد إسقاط الخلافة الفاطمية فيها ، وقد كان هذا يعني اتساع رقعة الأتابكية الزنكية في دولة موحدة تمتد من ضفاف دجلة في الجزيرة الفراتية حتى ما بعد نهر النيل في مصر[٥] .

---

(١) حول ذلك أنظر : شاكر أبو بدر ، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ، د.ط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم الدراسات العليا ، الجامعة اللبنانية ، د.ت . سيشار إليه تاليا : أبو بدر ، الحروب الصليبية .

(٢) ابن القلانسي ، ذيل ، ص٢٧٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ط١ ، ص٩٥ ؛ عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، د.ط ، مطبعة الزهراء الحديثة ، الموصل ١٩٨٥م ، ص١٣٥-١٦٦ . سيشار إليه تاليا : خليل ، عماد الدين زنكي .

(٣) أبو بدر ، الحروب الصليبية ، ص٩٢ .

(٤) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٣٨-١٤٤ ؛ ابن واصل مفرج الكروب جـ١ ، ص١٦٢-١٨٠ .

(٥) بن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٧ .

يتضح مما ورد آنفا أن رد الفعل العباسي والسلجوقي تجاه الغزو الصليبي ، لم يكن سلبيا فحسب ، بل كان غائبا – إلا في حدود ضيقة – وإن القوى المحلية في كل من الموصل ، وحلب ، ودمشق ، والتي تحملت عبء مواجهة الغزو قرابة ثلاثين عاما (٤٩١-٥٢١هـ/١٠٩٧-١١٢٧م) ، لم تتمكن من الوصول إلى نتائج حاسمة ، بفعل تشتت هذه القوى ، وعدم توفر قيادة سياسية توحدها ، كما وضح أن الأتابكية الزنكية التي قامت سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ، والتي نهجت نهجا جديدا تمكنت معه من توحيد القوى المشار إليها سياسيا وعسكريا ، فاستطاعت أن تحقق تقدما كبيرا ، ليس في مواجهة الغزو الصليبي فحسب ، بل بتقليص وجوده ، وإحكام الطوق عليه برا وبحرا .

ذلك كان موقف القوى السياسية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، وكل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، فكيف كان موقف الخلافة الفاطمية في مصر ؟

المبحث الثاني

موقف الخلافة الفاطمية من الصليبيين

(٤٩٠ – ٥٦٧هـ/١٠٩٦ – ١١٧١م)

أنشغل الفاطميون خلال العقود الخمسة التي سبقت الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م – أي خلال عهد المستنصر بالله[1] (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) – بمشاكلهم الداخلية ، المتمثلة بالأزمة الاقتصادية الكبرى ، التي يشار إليها " بالشدة المستنصرية العظمى "[2] ، والتي استمرت سبع سنوات ، ونجمت عن انخفاض مستوى النيل ، وارتفاع الأسعار ، وتفشي البطالة ، وانتشار الوباء[3] ، وقد رافق هذه الكوارث اضطراب سياسي ، تمثل بتسلط قادة الجيش على شؤون الحكم[4] ، مما اضطر الخليفة الفاطمي إلى الاستنجاد بوالي عكا ؛ بدر الجمالي ؛ أمير الجيوش ، الأرمني الأصل ، الذي استجاب لذلك ودخل مصر سنة ٤٦٠هـ / ١٠٧٣م[5] ، وأجرى بعض الإصلاحات ، التي كانت موضع تقدير

تميم معد الملقب المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم . ولد سنة ٤٢٠هـ /

في سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٢٩ .

بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، د.ط ،

١٩٩٢م ، جـ ٥ ، ص ١٥ – ١٦ ، سيشار إليه تاليا : ابن تغري بردي ،

، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف

، د.م ، د.ت ، ص ٣٨١ . سيشار إليه تالياً :

الخليفة المستنصر ، فكافأه بأن عينه وزيراً ، إلى جانب قيامه بإمارة الجيش ، وذلك بعد وصوله مصر بسنتين (٤٦٨هـ / ١٠٧٥م) ، وقد تضمن هذا منحه صلاحيات واسعة جعلته مفوضاً بتسيير شؤون البلاد حتى وفاته سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م[١].

وإذا كانت السياسة التي سلكها الوزير المشار إليه ، قد انعكست إيجابياً على أوضاع مصر الداخلية ، فإنها نجحت سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م في توسيع النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، حيث تمت السيطرة على مدن : صور ، وعكا ، وعسقلان ، ويافا ، وغزة ، على حساب العباسيين ، والسلاجقة[٢].

وفي حين كانت الدولة الفاطمية تخطط لتأكيد نفوذها هذا ، وتسعى لإزاحة بقايا النفوذ العباسي ، والسلجوقي في بلاد الشام ، وبخاصة في أنطاكية ؛ ذات الموقع الحيوي ، إذا بهذه المدينة تقع تحت حصار الحملة الصليبية الأولى التي وصلتها في شعبان من سنة ٤٩١هـ / تشرين أول ١٠٩٧م[٣].

نظر الفاطميون – كما يبدو – إلى هذه الحملة على أنها مجرد تحرك عسكري ضد الوجود العباسي ، والسلجوقي في بلاد الشام ، مما دفعها إلى التفكير بطريقة تؤمّن لها الحفاظ على ما يمكن من مصالح لها ، أو مصالح تأمل تحقيقها ، في بلاد الشام ، لذا فقد بادرت إلى إرسال وفد إلى أنطاكية لمقابلة قادة الحملة الصليبية[٤]، ولعرض مشروع اتفاق يدعو إلى القضاء على النفوذ العباسي ، والسلجوقي في بلاد الشام ، ثم اقتسام البلاد بينها وبين الصليبيين[٥] ، بحيث يكون القسم

---

[١] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص٢٢ – ٢٣ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٧٦ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢٨ .

[٣] ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٣٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٤ .

[٤] المؤلف المجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، د.ط ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص٦٣ ، سيشار إليه تاليا : المؤلف المجهول ، أعمال الفرنجة .

[٥] ريموندا جيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية ، تقديم جوزيف نسيم يوسف ، ط١ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٩م ، ص١٨٧ ، سيشار إليه تاليا : ريموندا جيل ، تاريخ الفرنجة .

الشمالي منها (سوريا) بيد الصليبيين ، ويكون القسم الجنوبي منها(فلسطين) بيد الفاطميين[1] .

استقبل الصليبيون الوفد الفاطمي بحفاوة بالغة ، وردوا على ذلك بإرسال سفارة إلى مصر[2] ، وأعقب ذلك قيام الفاطميين بتوجيه حملة نحو القدس ، تمكنت من انتزاع بيت المقدس من حاكميها الأرتقيّين ؛ سكمان بن أرتق ، وأخيه إيلغازي بن أرتق ثم السيطرة على صور سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م[3] ، مما يوحي بأن ثمة اتفاقا ربما كان قد حصل بين الطرفين ، وإن كانت المصادر لا تشير إلى ذلك ، غير أن الفاطميين فوجئوا بقيام الصليبيين بمهاجمة بيت المقدس ، واحتلالها

---

(١) W.B. Stevenson, The Crusaders in the East, Beruit 1958,P.26. Subsequently cited as: Stevenson, The Curusaders in the East; K.m.setton, Ahistory of the Crusaders, Philadelphia, Bennsylvenia university press, 1955, vol ,I, P.316, subsequently Cited as: setton, Ahistory of the Crusaders.

(٢) ذكر ابن الأثير رواية نسبها إلى مجهول بأن للفاطميين مراسلات مسبقة مع الصليبيين ، وأنهم هم من دعاهم إلى بلاد الشام حيث قال : " وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى ، تمنعهم ودخول أقسيس إلى مصر ، وحصرها ، وخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله اعلم " . ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٣ .

ويلاحظ أن ابن الأثير عرض هذه الرواية بصيغة تفيد بأنه غير متأكد من صحتها ، فقد بدأ حديثه عنها بـ " قيل " وأنهاه بقوله : " والله أعلم " .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ، كان سكمان الأرتقي يتولى القدس مع أخيه ايلغازي بعد وفاة والدهما أرتق سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ، وحتى سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م ، عندما سقطت في أيدي الفاطميين . أنظر : أدوارد فون زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة وإخراج محمد حسن ورفاقه ، د.ط ، مطبعة فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٥١م ، ص ٣٤٤ – ٣٤٧ . سيشار إليه تاليا : زامباور ، معجم الأنساب .

وإخــراج الحاكم الفاطمي ؛ افتخار الدولة ، منها[1] ، بعد أشهر من عـــودة البعثــة الفاطمية ، ومن استقبالهم لبعثة صليبية جديدة في القاهرة ، وذلك فـــي ٢١ شــعبان ٤٩٢هـــ / ١٣ تموز ١٠٩٨م[2] .

وقد ردّ الفاطميون على ذلك بإرسال سفارة إلى الصليبيين ، تنكر عليــهم فعل ذلك وتتهددهم ، وإن كانت المصادر لم تفصح عـــن مضمـــون ذلـــك التـــهديد وأبعاده .[3]

إن استنكار الفاطميين لقيام الصليبيين بالسيطرة على القدس ، وإزاحـــة الحاكم الفاطمي ، افتخار الدولة منها ، يُرَجِّحُ ما سبقت الإشارة إليه ، مـــن أن ثمـــة اتفاقا كان قد تم بين الطرفين ، و إن احتلال القدس كان مناقضا له . لم تـــؤد هـــذه السفارة إلى أية نتائج ، لذا فقد قام الوزير الفاطمي الأفضل بن بـــدر الجمـــالي[4] ، بجمع جيش توجه به إلى عسقلان ، والتقى مع الصليبيين في معركة ، حلـــت فيـــها الهزيمة به ، وبجيشه ، وذلك في رمضان ٤٩٢هـــ/١٢/آب ١٠٩٨م[5].

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٣٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٤٨ .

(٢) فوشيه الشارتري ، تاريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة زياد العسلي ، د.ط ، دار الشروق ، عمان ١٩٩٠م ، ص١٢٥ ، سيشار إليه تاليا : الشارتري ، تاريخ الحملة ؛ وليم الصوري ، الحروب الصليبيـــة (١٠٩٤ – ١١٨٤م) ، ترجمة وتقديم حسن حبشي ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.م ، ١٩٩٢م ، جــــ١ ، ص٤٢ ، سيشار إليه تاليا : الصوري ، الحروب الصليبية . (ترجمة حبشي) .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٣٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ،ص٢٨٦ .

(٤) هـــو أبو القاسم شاهنشاه الملك الأفضل بن بدر الجمالي ؛ أمير الجيوش ، ولد في عكا ســـنة ٤٥٨هــــ / ١٠٦٦م ، فقد تولى الوزارة سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ، بعد وفاة أبيه واستر فيها حتى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جــ١١ ، ص٥٨٩ ؛ ابن خلكان ، وفيـــات الأعيـــان ، جـــ٦ ، ص٢٣٨ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جــ٢ ، ص٤٥ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جــ١ ، ص٢٨٦ .

أمام هذا الانتصار الصليبي الذي قضى على هيبة الدولة الفاطمية في بـــلاد الشـــام ، أخذت مدن فلسطين تسقط واحدة تلو أخرى في يـــد الصليبييـــن[١] ، حيـــث تعرضت أرسوف لهجومهم سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م ، وحين استعانت بالأفضل بن بـــدر الجمالي قام بإرسال قوة صغيرة مكونة من ثلاثمائة جندي ، لم تلبث أن وقعت في يد الصليبيين ، فاضطرت أرسوف إلى إعلان تبعيتها لهم[٢]، وبعـــد أن تـــأكد لحكـــام عسقلان ، وقيسارية ، وعكا ، الفاطميين عجز دولتهم عن حمايتهم ، أعلنوا هم كذلك تبعيتـــهم الصليبييـــن ، وتـــعهدوا بدفـــع جزيـــة كبـــيرة لـــهم ، وذلـــك ســـنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م[٣] .

أمام الضغط الصليبي هذا ، قام الأفضل بن بدر الجمالي بتوجيه سلســـلة من الحملات العسكرية[٤] سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م ، ثم سنة ٤٩٦هـــ/١١٠٢م ، ثـــم سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م ، إلا أنها جميعا كانت حملات محدودة ، وكان توجهها أقـــرب ما يكـــون إلى الدفـــاع عن المدن الفاطميـــة في بلاد الشام والتـــي بـــدأت ، علـــى الرغم مـــن ذلـــك تسقـــط بأيـــدي الصليبيين ، فقد ســـقطـــت طرابلس ، وبيروت

---

(١) René Grousset , Histoire des Croisades , Paris, 1943, T.I, P.175. Subsequently Cited as: Grousset, Histoire des Croisades.

(٢) ابـــن القلانسي ، ذيل ، ص١٣٩؛ ، سعيد عاشور ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوســـطى ، د.ط ، د.م ، ١٩٧٧ ، ص١٧٧ ، سيشار إليه تاليا : عاشور ، بحوث ودراسات .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٥ .

(٤) حول هذه الحملات العسكرية انظر : عاشور بحوث ودراسات ، ص١٧٥ – ١٧٧ ، فايد حمـــاد عاشـــور ، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١ ، ص١٧٧ – ٢٢٦ . سيشار إليه تاليا : عاشور ، جهاد المسلمين .

سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م[١] ، وسقطت صيدا في السنة التالية[٢] ، أما صور فقد سقطت سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م[٣] .

ويبدو أن هذا الضغط الصليبي على مناطق النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، والذي استمر أكثر من أربعة عقود (٤٩١ – ٥٣٣هـ/ ١٠٩٧ – ١١٣٩م) ، دون أن تستطيع الدولة الفاطمية إيقافه ، هو ما دفع الوزير الفاطمي رضوان بن ولخشي (٥٣١ – ٥٣٣هـ/١١٣٧ – ١١٣٩م) ، إلى التفكير بإقامة تعاون فاطمي زنكي ، وتوحيد جهود الدولتين الإسلاميتين العباسية والفاطمية –على الرغم مما بينهما من عداء – ، لمواجهة هذا الخطر المشترك ، وقد طلب من الأمير أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) – وهو شخصية تحظى باحترام الطرفين – أن يرتب لقاء بينه وبين عماد الدين زنكي ، للتباحث في هذا الشأن .[٤]

وإذا كان اللقاء الذي تقرر عقده سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م ، في بعلبك لم يتحقق[٥] ، فإن محاولة أخرى بذلت في ذات الاتجاه بعد التاريخ المشار إليه بثلاث

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ١٠ ، ص٤٧٥ .

(٣) محمد بن علي بن ميسر (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م) ، أخبار مصر ، حققه وكتب مقدمته وحواشيه أيمن فؤاد سيد ، د.ط ، المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ١٩٨١م ، جـ١ ، ص١١١ . سيشار إليه تاليا : ابن ميسر ، أخبار مصر .

(٤) أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) ، الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، د.ط، مطبعة برنستون ، الولايات المتحدة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٨١م ، ص٣٠ – ٣٢ . سيشار إليه تاليا : ابن منقذ ، الاعتبار .

(٥) المصدر نفسه ، ص٥٤ .

عشرة سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م[١] ، عندما وضع الوزير الفاطمي ابن السلار (٥٤٤ – ٥٤٨هـ/١١٤٩ – ١١٥١م) ، مشروعا لاستعادة المدن الفاطمية الساحلية التي كان الصليبيون قد استولوا عليها ، يتضمن تعاونا فاطمياً زنكياً في إطار الخطوات التالية التي كلف بها الأمير المشار إليه آنفا وهو أسامة بن منقذ بنقلها إلى نور الدين محمود :

أولا : يقوم أسطول فاطمي بالتوجه نحو المواقع الصليبية الساحلية ومهاجمتها[٢]

ثانيا : يقوم نور الدين في ذات الوقت ، بمهاجمة غزة[٣]

ثالثا : وضع مبلغ من المال قدره ستة آلاف دينار مصرية ، أمانة لدى أسامة ابن منقذ للتصرف به لأغراض تنفيذ المشروع ، إذا ما وافق نور الدين على التنفيذ[٤] .

رابعا : في حالة عدم الوصول إلى اتفاق مع نور الدين ، يتولى ابن منقذ التصرف بالمال المشار إليه ، للحصول على مجموعة من المقاتلين لمساندة تحركات ابن السلار ضد الصليبيين[٥] .

استجاب نور الدين لهذا الطلب في الحدود التي كانت متوفرة لديه ، فقد كان مشغولا آنذاك في تنفيذ خطة لضم إمارة دمشق التي كانت تشكل عائقا أمام تحركاته ضد الصليبيين ، لذا فقد طلب من الأمير أسامة بن منقذ أن يستفيد من المبلغ المشار إليه ، ويهيئ قوة تكون تحت تصرفه لمساندة ابن السلار في

---

(١) ابن ميسر ، أخبار مصر ، جـ٢ ، ص٨٢ .

(٢) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص٤١ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٠٧ .

(٣) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص٤٢ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٠٧ .

(٤)ابن منقذ ، الاعتبار ، ص٤٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص٤٢ .

مــهمته ، كما أنه زوده بثلاثين فارسا من أصحابه ، وقد نفذ الأمير أسامة بن منقــذ ما كان مطلوبا منه ، وأنفق المبلغ الذي كان متوفرا لديه بالحصول علـــى ثمانمائــة وستين فارسا[١] .

لم تؤد خطوات ابن السلار هذه إلى أية نتائج إيجابية ، فقد فشلت حملتــه التي وجهها سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م لتحرير السواحل واسترداد المدن الفاطميـــة [٢] ، بل وأعقب فشله هذا ، استيلاء الصليبيين سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، على آخر معقــل فاطمي ؛ وهو مدينة عسقلان ،[٣] ؛ ذات الأهمية الحيوية لكلا الطرفين ، ممـــا أدى في السنوات التالية إلى تجدد محاولات إقامة تعاون فاطمي زنكي ، تبناهـــا الوزيــر الفاطمي طلائع بن رزيك[٤] (٥٤٨-٥٥٦هـ/١١٥٣-١١٦١م) الـــذي راسـل سـنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م الأمير أسامة بن منقذ وطلب منه الاتصال بالزنكيين ، بهدف توحيد

---

[١] تقي الدين أحمد المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تـح : مـحمد حلمي محمد ، د.ط ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٩٣م ، جـ٣ ، ص٢٠٢ . سيشـــار إليه تاليا : المقريزي ، اتعاظ الحنفا ؛ محمد مؤنس عوض ، في الصراع الإسلامي الصليبي ، السياســة الخارجية للدولة النورية (٥٤١ – ٥٦٩هـ/١١٤٦ – ١١٧٣م) ، ط١ ، عيـن للدراســات والبحـوث الانسانية والاجتماعية الهرم ١٩٩٨م ، ص٨٢ – ٨٣ . سيشار إليه تاليــا : عـوض ، فـي الصــراع الإسلامي الصليبي .

[٢] ابن القلانسي ، ذيل ، ص٣٢١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٨٨ .

[٣] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص١٩١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، جـ٣ ، ص٢٠٨ .

[٤] هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزير مصر ، كان واليا بمنية بني خصيب مـــن أعمال صعيد مصر ، تولى الوزارة في أيام الفائز ، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة ، وكانت ولايته سـنة ٥٤٨هـــ/١١٥٣م ، وتوفــي سـنة ٥٥٦هــــ/١١٦٠م ، انظــر : جمــــال الديـــن الأزدي (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) ، بدائع البدائة ، تح : محمد أبو الفضـــل ابراهيـم ، د.ط ، القـــاهرة ١٩٧٠م ، ص١٨٥ . سيشار إليه تاليا : الأزدي ، بدائع البدائة ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٤٩٨ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ١٦ ، ص٥٠٣ .

الجهود معهم ضد الصليبيين [١]، وقد جاء هذا الاتصال على شكل قصـــائد شـعرية أوضح فيها ابن رزيك ما يقوم هو به من جهد في التصدي للصليبيــن ، ويطلــب أن يقوم تعاون بينه وبين الزنكيين ضدهم[٢] ، إضافة إلى أنه زود أسامة بن منقذ بهديـة لتقديمها إلى نور الدين محمود ، شملت أسلحة ، وغيرها ، بلغت قيمتها ثلاثون ألــف دينار ، إضافة إلى سبعين ألف دينار عينا "**عونا له على قتال الفرنج**"[٣] .

لم تشر المصادر إلى الرد الزنكي على نداءات طلائع بن رزيك ، فـهل كان ذلك رفضا زنكيا ؟

يرى الباز العريني أن كلا من عماد الدين زنكي ، وابنـــه نـور الديــن محمود ، لم يستجيبا لطروحات الوزراء الفاطميين ، بصدد التعاون المشترك ضـــد الخطر الصليبي ، بسبب رغبتهما بالانفراد في أداء تلك المهمة[٤] .

إن هذا الأمر لا يمكن قبوله لأسباب ، وهي :

أولا : إن الوضع العسكري للزنكيين لم يكن يسمح لهم بفتح جبهة جديــدة تخترق الصفوف الصليبية باتجاه السواحل ، نظرا لما يحتمله عمـــل كـهذا ، مـن مخاطر ، قد تعرضت الحدود الزنكية مع الصليبيين إلى الخطر[٥] .

---

(١) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص١٥٦ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣، ص٢٣٤ ؛ أيمن فؤاد ســيد ، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ، ط١ ، الدار المصرية البنانية ، القــاهرة ١٩٩٢ ، ص١٥٠ – ١٦٥ . سيشار إليه تاليا : سيد ، الدولة الفاطمية .

(٢) ابن ميسر ، أخبار مصر ، ص١٥٧ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٤ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٤ .

(٤) السيد الباز العريني ، الشرق الأوسط والحروب الصليبيـــة ، د.ط، د.ن، القــاهرة ١٩٦٣م ص٦٥٨ – ٦٥٩ . سيشار إليه تاليا : العريني ، الشرق الأوسط .

(٥) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٠ .

ثانيا : إن مبادرات التعاون لم تقتصر على الفاطميين فحسب ، بل قام الزنكيون كذلك بالاتصال بالفاطميين لهذا الغرض في سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م[١] ، ثم سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م[٢] ، ثم سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م[٣] ، من أجل إقامة تعاون عسكري بين الطرفين ، وهي خطوات لقيت ترحيبا من الجانب الفاطمي ، بل وترجمت على شكل مساعدات مالية ، أرسلت إلى الزنكيين لإسنادهم في عملهم العسكري[٤] .

ثالثا : إن الأوضاع التي استجدت في الدولة الفاطمية بين سنتي (٥٥٥-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٦٢م) ، كانت عاملا في إعاقة التوسع في مجالات التعاون بين الزنكيين والفاطميين ، تعاونا يتجاوز المساعدات المالية ، وإرسال الأسلحة ، إلى تنفيذ مشاريع التعاون العسكري المشترك الواسعة ، والتي طرحها الطرفان ، إذ يلاحظ أن الصليبيين استغلوا اضطراب الأوضاع في مصر ، بعد وفاة الخليفة الفاطمي الفائز (٥٤٩-٥٥٥هـ/١١٥٤-١١٦٠م)[٥] سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ، وخططوا لحملة على مصر ، استطاع الوزير طلائع بن رزيك أن يثنيهم

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٣، ص٢٣٣ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل ، ص٣٥٣ .

(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٠ ؛ عوض ، في الصراع الإسلامي الصليبي ، ص٨٤ .

(٥) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٣٠ .

عنها ، بتعهده بدفع جزية سنوية لهم مقدارها ١٦٠أف دينار[١] ، ثم أعقب ذلك سـنة ٥٥٦هـ/١١٦١م ، مقتل الوزير المشار إليه ، ثم قيام صراع بين المتنافسين علـى منصب الوزارة بعده ، استمر قرابة سـنتين (٥٥٦-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٦٢م) ، وهو ما استغله الصليبيون استغلالا كبيرا ، كما سيشار إلى ذلك تاليا .

وكما أن الأسباب المشار إليها كانت عاملا في عدم تنفيذ مشاريع التعـاون الزنكي الفاطمي ، فإن ما آلـت إليـه الأوضـاع فـي مصـر بيـن سـنتي (٥٥٥-٥٥٨هـ/١١٦٠-١١٦٢م) ، جعل الأتابكية الزنكية تراقـب الموقـف عـن كثـب ، وبخاصـة ما يتعلق بصراع المتنافسين على الوزارة فـي مصـر ؛ وهمـا الوزيـر ضـرغام ، والوزير شاور ، وقيـامـهما بالاتصـال لـطـلب الـعـون مـن الصليبيين[٢] تـحقيقـا لأهـدافهـما[٣] ، وهـو مـا فـعـله الـوزير ضرغـام

---

[١] وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) ، ترجمة : سهيـل زكـار ، ط١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، د.م ، ١٩٩٠ ، جـ٢ ، ص٨٨٤ . سيشار إليه تاليا : الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة : زكار) .

[٢] نجم الدين عمارة اليمني (ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م) ، النكت العصرية في أخبار الوزارة المصريـة ، صححـه هرتويغ درنبرغ ، ط٢ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩١م، ص٤٨ . سيشار إليه تاليا : عمـارة اليمنـي ، النكت العصرية .

[٣] عمارة اليمني ، النكت العصرية ، ص٦٧ – ٧٨ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص ٢٦١ – ٢٧٢ .

سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م[1] ، وما فعله الوزير شاور سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م[2] ، وهو ما نجم عنه حصول الصليبيين ، إثر حملتهم على مصر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م على امتيازات جعلتهم بمثابة حماة لمصر ، بموجب اتفاقية[3] ، تم التوقيع عليها من قبل الخليفة الفاطمي العاضد[4] (٥٥٦ - ٥٦٧هـ/١١٦٠ - ١١٧١م) ، ومن قبل عموري الأول[5] (Amarlic I) (٥٥٨-٥٧٠هـ/١١٦٢-١١٧٤م) ملك بيت المقدس في مصر[6] .

إن ما حصل عليه الصليبيون من نفوذ متميز في مصر سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، جعلهم يتطلعون لتثبيت هذا النفوذ وتوسيعه ، لذا فقد وجهوا

---

(1) بعد الصراع بين شاور وضرغام على الوزارة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م ، استنجد شاور بنور الدين زنكي في دمشق ، الأمر الذي دفع بضرغام إلى الاستنجاد بالصليبيين ، وانتهى الأمر بمقتله سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣ ، وإعادة شاور للوزارة . انظر : عمارة اليمني ، النكت العصرية ، ص٦٧ - ٦٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١،ص١٠٣ .

(2) طلب شاور سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، من الصليبيين القدوم إلى مصر لمعاونته ضد قوات نور الدين بعد أن خان شاور العهد الذي قطعه لهم عندما استدعاهم إلى مصر سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م لمساعدته في صراعه مع ضرغام وكان قد بذل لهم ثلث إيرادات مصر . انظر : ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٢٠ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص٢٩٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٣٧ - ١٣٨ .

(3) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ،ص٣٢٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ١ ، ص١٥٠ .

(4) هو أبو محمد عبدالله الملقب بالعاضد بن يوسف ، آخر خلفاء وملوك مصر من العبيديين ولي الخلافة بعد وفاة عمه الفائز سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م . انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٠٩ .

(5) ملك بيت المقدس في الفترة ما بين (٥٥٨ - ٥٧٠هـ/١١٦٢ - ١١٧٤م)، بعد وفاة أخيه بلدوين الثالث سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م ، قام بحملات للاستيلاء على مصر ، وتوفي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م . انظر رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص٦٤٤ .

(6) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٢٠.

حملة كبيرة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م نحو مصر[١] ، مما دفع الدولة الفاطمية إلى العودة إلى فكرة التعاون مع الزنكيين في مواجهة طموحات الصليبيين هذه ، فقامت بإرسال وفد إلى بلاد الشام مستغيثة بنور الدين محمود الذي استجاب لها وأرسل حملة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه[٢] ، اضطر معها الملك عموري الأول إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس [٣] ، وقد ترتب على انسحاب الملك عموري خارج مصر خسارة الصليبيين لجميع الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في مصر ، استنادا إلى اتفاقيتهم المشار إليها آنفا ، إضافة إلى أن فكرة التعاون الزنكي الفاطمي التي كانت قد طرحت بين سنتي (٥٣٣-٥٥٦هـ/١١٣٩-١١٦١م) ، أخذت طريقها إلى حيز التنفيذ لأول مرة ، وكان من أهم نتائجها تعيين القائد الزنكي أسد الدين شركوه وزيرا للخليفة الفاطمي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م [٤] ، وقيام الأخير بإعطاء أوامره بتصفية وزيره شاور ، الذي كان من أبرز الشخصيات تعويلا على الصليبيين [٥] .

إن هذا هو ما جعل الملك عموري الأول يوجه سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م حملة صليبية جديدة على مصر بالتعاون مع البيزنطيين ، لمواجهة الموقف الخطر المتمثل في الوجود العسكري والسياسي للزنكيين فيها ، ولكن هذه المحاولة انتهت

---

(١) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ١٥٦ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص ٢٩١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ٢٦١ ؛ محمد بن تقي الدين بن قاضي شهبة (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، تح : محمود زايد ، ط١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١م ، ص ١٦٩ . سيشار إليه تاليا : ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية .

(٣) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤١ .

(٤) عمارة اليمني ، النكت العصرية ، ص ٨١ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٠ .

(٥) عمارة اليمني ، النكت العصرية ، ص ٨١ ؛ ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٠ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص١٦٩ .

بالفشل[1]، بفضل استمرار التعاون بين الدولة الفاطمية ، والأتابكية الزنكية التي كان يمثلها في مصر آنذاك القائد صلاح الدين الأيوبي ، والذي كان الخليفة العاضد قد عينه وزيرا إثر وفاة عمه شيركوه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[2] .

ومع أن هذا التعاون نجح في إنقاذ مصر الفاطمية من التغلغل الصليبي ، فقد كان من أبرز نتائجه أيضا ، سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م [3] ، والتمهيد لقيام دولة جديدة هي الدولة الأيوبية ، التي كان عليها أن تواجه ردود فعل الصليبيين على هذه المتغيرات التي جاءت في غير صالحهم .

ذلك هو موقف الخلافة الفاطمية من الصليبيين ، ابتدأ غير مدرك لأبعاد الغزو الصليبي ، وأظهر رغبة في التعاون معه ضد أعدائه التقليديين من العباسيين ، والسلاجقة ، ثم تحول إلى مواجهتهم عسكريا ، مما يبدو أن الفاطميين لم يكونوا مهيأين له ، لذا فقد خسروا كل ما كان لهم من مدن في بلاد الشام ، واقتصر وجودهم السياسي على مصر ، ومع أن الدولة الفاطمية حاولت أن تتجاوز خلافاتها مع العباسيين والسلاجقة ، فتطرح مشاريعا للتعاون معهم ضد الصليبيين ، إلا أن مشكلاتها الداخلية وصراعاتها السياسية ، حالت دون ذلك ، وآل أمرها إلى الزوال لتترك مسؤولية الصراع مع الصليبيين إلى قوة

---

[1] ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٨٠ .

[2] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٥٦ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص٣٦٨ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣٠٨ ؛ ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٠ .

[3] ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ؛ الكامل ، جـ١١ ، ص ٣٦٨ ؛ الفتح بن علي البنداري (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ، سنا البرق الشامي (٥٦٢هـ/١١٦٦م – ٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، تح : فتحية النبراوي ، د.ط ، مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٧٩م ، ص٥٨ . سيشار إليه تاليا : البنداري ، سنا البرق الشامي .

جديدة ، هي الدولة الأيوبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي .

هذه صورة عن موقف كلتا الدولتين العباسية والفاطمية اللتين تعرضتا للغزو الصليبي في بلاد الشام ، والجزيرة الفراتية ، في الحقبة التي سبقت قيام الدولة الأيوبية (٤٩٠-٥٦٩هـ/١٠٩٦-١١٧٣م) ، فكيف كان موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في الحقبة المشار إليها ؟

هذا ما ستتناوله الدراسة في المبحث التالي :

المبحث الثالث

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام الأتابكية الزنكية

(٤٩٠-٥٢١هـ/١٠٩٦-١١٢٧م)

لم تكن الكيانات السياسية ، عباسية ، وسلجوقية ، وفاطمية ، هي وحدها التي اتسمت بالتشتت والضعف في أسلوب مواجهتها للخطر الصليبي ، – كما سبقت الإشارة إليه في المبحثين السابقين – ، بل أن المجتمعات التي عاشت في ظلها ، وقعت تحت وطأت ما نجم عن ذلك ، من فقدان للأمن والاستقرار ، مما دعا رجال الفكر من العلماء والأدباء ، وبخاصة في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، – وهي البلاد التي تمثل الدائرة التي وقع فيها الغزو من جهة ، والتي أصبحت مهددة بطموحاته التوسعية – ، إلى القيام بتوعية جمهور الناس إلى مخاطر وأبعاد الغزو الصليبي . وقد تزامن تحركهم هذا مع البدايات الأولى لوصول الصليبيين إلى الجزيرة الفراتية ، وبلاد الشام ، واحتلالهم للرها سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م ، ثم محاصرتهم لأنطاكية في السنة نفسها ، وتميز بقدر كبير من الوعي السياسي بالأبعاد القريبة والبعيدة للغزو ، كما تضمن نقدا عنيفا للحكام المسلمين ، بسبب تقصيرهم في الدفاع عن البلاد ، وترك فريضة الجهاد ، ودعا إلى إعلان النفير العام بين المسلمين، واعتبر جهاد الصليبيين فرض عين، لا فرض كفاية، وأدله ذلك ، هي :

أولا : قيام رد فعل مباشر متزامن مع وقوع أنطاكيا تحت الحصار الفرنجي الصليبي سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م .

تزامن أول رد فعل تجاه الغزو المشار إليه مع حصار

الصليبيين لأنطاكية في شعبان ٤٩١هـ/تشرين الأول ١٠٩٧م)[١] ، فقد خاطب الفقيه الدمشقي ؛ جمال الإسلام أبو الحسن السلمي[٢] (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) ، في خطبته ليوم الجمعة ، والتي ألقاها في الجامع الأموي بدمشق[٣] ، جمهور المسلمين بالطروحات التالية :

أ – إن الحملة الصليبية التي وصلت إلى مشارف أنطاكية ليست إلا جزءا من عمل عسكري واسع ، بدأته أوروبا ، والبابوية ، قبل هذا التاريخ بتصفية الوجود الإسلامي في كل من إسبانيا ، وصقلية ، وأنها وهي تتوجه إلى بلاد الشام إنما تستغل ضعفها وخلافات حكامها ، حيث قال السلمي :

"... فوثبت طائفة على جزيرة صقلية على حين تباين وتناقض ، وتملكوا بذلك بلدا بعد بلد في الأندلس . ولما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها ، وتقرض أكابرها ، مع اختلالها ، واضطرابها ، أمضوا عزائمهم على الخروج إليها".[٤]

---

[١] ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٣٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٤ .

[٢] هو جمال الإسلام أبو الحسن علي بن مسلم بن الحسن السلمي ، الدمشقي ، الشافعي ، مدرس الغزالية ، ومفتي الشام في عصره ، صنف في الفقه والتفسير ، وتصدر للإشتغال بالرواية ، ولد سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م ، وتوفي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م . أنظر : اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ٣ ، ص٢٠٠ .

[٣] ذهب جمال محمد سالم خليفة في أطروحته الموسومة بـ (موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي دراسة الموقف الشعبي (٤٩٢-٦٥٥هـ/١٠٩٨-١٢٦١م) ، ص٧١ . إلى أن رد فعل السلمي هذا جاء بعد احتلال الصليبيين للقدس ، والذي يبدو للدراسة ، واستنادا إلى ما ورد في متن الخطبة التي ألقاها السلمي ، أنها تزامنت مع حصار الصليبيين لأنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م فقد جاء فيه :" **وهذا الفصل من قولي ، وكذلك هاهنا ، كتبته من لفظ أحد الأئمة ؛ أصحاب الشافعي بدمشق ، عند نزول الفرنج – أهلكهم الله – على أنطاكية ...**" .

[٤] Emmannal Sivan, "Le Geneses De Contre Croisode un Traide Damasquim du Dubut XII siecle".Journal Asiatique, T, CCLIV, p.207. Subsequently cited as: Sivan, "Le Geneses De Contre Croisode".

ب – إن الهدف الأساس للغزو الصليبي هو السيطرة على القدس فقد جاء في الخطبة المشار إليها أن :"...، القدس مهائر أمانيهم فيها ".[١]

جـ – إن أسباب الضعف في بلاد الشام أنها عبارة عن :

"...، ممالك متفرقة ، وقلوب غير متفقة ، وآراء متباينة ، مقترنة بذحـول كامنة ، فقويت بذلك أطماعهم [أي : أطماع الفرنج] وامتدت إلى ما يرونه أنواعـهم ، ولم يزالوا دائبين في جهاد المسلمين ، والمسلمون عنهم متثاقلون ومتظافرين [؟] علـى حربهم ، وهم في لقائهم متواكلون ، حتى تملكوا في البلاد ما لم تنته إلى غاية آمالهم ، وبلغوا أضعاف ، ما أرادوا من إهلاك أهلها وإذلالهم ، وهم الآن متمادون في الاجتهاد ، ومجدون في طلب الازدياد ... ، حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم وأن جميـع أهلها أسرى في أيديهم "[٢] .

د – إن مواجهة هذا الخطر تتطلب " ...، اجتماع الكلمة وانتظـام شـمل الأمة[٣] " .

هـ – إن الجهاد فرض عين ، لا فرض كفاية أمام هذا الغزو حيث قـال السلمي :

"...، فشمروا – رحمكم الله – عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجـهاد متعين الذب عن دينكم ، وإخوانكم بالمآزرة والإنجاد ، واغتنموا غزوة ، قد هيأهـا الله تعالى لكم ، من غير كبير تعب ولا نصب ، ... ، وذلك أن الجهاد إنما يكون في فروض الكفاية ، إذا كانت الطائفة التي بإزاء العدو فيها غناء ويمكنها مجاهدته بأنفسها ، ورفع شره بانفرادها عن غيرها ، فأما إذا كانت الطائفة فيها ضعف ، ولا تقدر علـى كفايـة العدو ، ودفع شره فإن الفرض يتعين على أهل البلاد القريبة منها ؛ كالشام مثلا".[٤]

---

(١) Sivan, "Le Goneses Contre Croisade", T, CCLIV, p.207.

(٢) Ibid, T, CCLIV, p.207

(٣) Ibid, T, CCLIV. p.207

(٤) Ibid. T. CCLIV, p.208

و – الاستغراب من أي حاكم لا يتصدى لهذا الغزو ، وهو ما عبرت عنه الخطبة بالقول :

"...، كل العجب من سلطان يتهنأ بعيش ، أو يخلد إلى استقرار ، مع إظلال هذه النازلة ، التي مغبتها استيلاء هؤلاء الكفار ، والإخراج من البلاد بالقهر ، والاقتسار ، أو الإقامة معهم ، والتكبل ، والتعذيب في الليل والنهار ، "[1] . ومخاطبتهم ومن حولهم من أعوان وجند ، بمضمون قوله تعالى : " **انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، يا أيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** "[2] .

ز – إشادة بالبطولة التي أبداها المحاصرون في أنطاكية ودعوة إلى مساندتهم حفظا للمدينة ، ولمدن السواحل التي يهدف الصليبيون احتلالها ، حيث ورد في الخطبة :

"...، وينبغي لكافة الناس ، من الأجناد ، والرعايا ، والفلاحين ، وسائر الناس أجمعين ، معاضدتهم ، وموازرتهم بكل ما يقدرون عليه ، وتصل أيديهم وقدرتهم إليه ، وأن يتحملوا في قصد هذه الفرقة ، كل عبء ومشقة ، ويجتزئ المقل منهم بيسير النفقة ...، وذلك لأنه قد انضم إلى وجوب مجاهدة هذا العدو ، دواعي كثيرة ...، منها الدفع عن بلاد الساحل ، وإعانة أهاليها المحصورين المجاهدين[3] ، **لأنهم الآن شاغلون للعدو عن هذه البلاد ، وما يليها ، ومصر ونواحيها ".**[4]

ثانيا : قيام عدد من الشخصيات العلمية برئاسة الوفود لمقابلة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في محاولة للضغط عليهما لاتخاذ ما يجب لحماية أراضي المسلمين في بلاد الشام ، أما هذه الوفود فهي :

---

(1) Sivan, "Le Geneses Contre Croisade", T, CCLIV, p.p.208-209.

(2) Ibid, T, CCLIV.p209.

(٣) المقصود بذلك ، أهل أنطاكية المحاصرون .

(4) Sivan, "Le Geneses Contre Croisade", T, CCLIV, p.214.

١ – وفد مدينة دمشق برئاسة القاضي زين الدين الهروي (ت٥١٩هـ/١١٢٥م) :

يبدو أن دعوات الفقيه جمال الإسلام أبو الحسن السّلمي ، التي أطلقها – كما أشير آنفا – إبان حصار الصليبيين لأنطاكية ، وما طرحه من أفكار ، وما أعلنه من أن القدس هي الهدف الأساس للتحرك الصليبي ، وقيامهم فعلا باحتلالها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م ، وما رافقه من مجازر ، وغياب أي موقف إيجابي من الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية ، لاتخاذ الإجراءات اللازمة للوقوف في وجه الغزو الصليبي كما سبقت الإشارة إليه ، ترك أثره بين جمهور الناس في دمشق ، ودفعهم إلى تشكيل وفد برئاسة قاضي المدينة زين الدين الهروي (ت٥١٩هـ/١١٢٥م) ، للتوجه إلى بغداد ، ومقابلة الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م) .[١]

ومع وصول رجال الوفد إلى بغداد في شهر رمضان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م بدأوا تحركاتهم الأولى ، بإثارة جمهور الناس فيها ، واتجهوا إلى المسجد الجامع ، وحضروا صلاة الجمعة " **فاستغاثوا ، وبكوا ، وذكروا ما داهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال ، وسبي الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، حتى أنهم لشدة ما كانوا عليه ، اضطروا إلى الإفطار**[٢]" ، وقد تسنى للوفد مقابلة الخليفة في ديوانه ، حيث تحدث رئيس الوفد أمامه بكلام " **أبكى الحاضرين**"[٣] ، وتحرى أن ينقل إليه مشاعر أهل الشام ، وتطلعاتهم وهم يواجهون الخطر الصليبي ، فألقى أمامه قصيدة لمحمد بن أحمد الأبيوردي[٤] ت٥٠٧هـ/١١١٣م) ، لخصت تلك

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، فضائل القدس ، حققه وقدم له جبرائيل سليمان جبور ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م ، ص١٨٦.سيشار إليه تاليا : ابن الجوزي ، فضائل القدس ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣ .

(٣) ابن الجوزي ، فضائل القدس ، ص١٨٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣ .

(٤) هو محمد بن أحمد القرشي ، الأموي ، الأبيوردي ينسب إلى أبيورد ، كان عارفا باللغة والنحو والنسب والأخبار ، تولى خزانة دار الكتب النظامية في بغداد ، توفي في أصبهان سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء العراق ، جـ١ ، ص١٠٦ ؛ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ٧ ، ص٢٣٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٤٤ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٢ ، ص٩١.

المشاعر والتطلعات في ثلاثة أمور هي :

أ – وصف الحالة السيئة التي كان عليها أهل الشام ، ممن وقع تحت الحكم الصليبي ، أو ممن كانوا تحت تهديداتهم ، وهو ما عبرت عنه الأبيات التالية : (١)

وإخوانُكمْ بالشـام يُضْحي مَقيلهُم ظهورَ المذاكي أو بُطونَ القشاعم
تَسُومُـهُم الـرّومُ الهـوانَ وأنتـم تجُرّون ذَيْل الخَفْض فِعْلَ المُسالم
وكم من دماءٍ قد أبيحـت ومن دُمىً تُوارى حياءً حُسْنَها بالمعَاصم
بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحْمَرَّةُ الظُّبى وسُمْرُ العَوالـي داميـاتُ اللّهَاذِم

ب – استغراب غياب رد الفعل اللازم أمام الخطر الصليبـي وهـو مـا عبرت عنه الأبيات التالية:(٢)

أتهويمةً في ظلِّ أمْنٍ وغبطةٍ ، وعيشٍ كَنُوَّار الخميلةِ ناعم
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونَها على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائم

جـ– التطلع إلى غارة عربية تعيد الأمور إلى ما يجب أن تكون عليـه ، وتلقن الصليبيين درسا قاسيا وهو ما عبرت عنه الأبيات التالية : (٣)

دعوناكمُ والحربُ تَرْنُو مُلِحَّةٍ إلينا بألحَاظِ النسور القشاعم
تُرَاقِبُ فينا غارةً عربيّة ، تُطِيلُ عليهَا الرُّومُ عَضَّ الأباهم

---

(١) محمد بن أحمد الأبيوردي (ت٥٠٧هـ/١١١٣م) ، ديوان الأبيوردي ، تح : عمر الأسـعد ، د.ط ، مطبعـة زيد بن ثابت ، دمشق ١٩٧٥م ، جـ٢ ، ص١٥٦ . سيشار إليه تاليا : الأبيوردي ، ديوانه ، ابن الأثـير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٤.

(٢) الأبيوردي ، ديوانه ، جـ٢ ، ص١٥٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٥ .

(٣) الأبيوردي ، ديوانه ، جـ٢ ، ص١٥٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٥ .

ويبدو أن الوفد استطاع التأثير على الخليفة العباسي ، وحمله على :[١]

أ – تشكيل وفد من علماء بغداد برئاسة أبي محمد الدامغاني ، وأبي بكر الشاشي ، وأبي القاسم الزنجاني ، وأبي الوفاء عقيل ، وأبي سعد الحلواني ، وأبي الحسين بن سماك ، لكي ينضم إلى الوفد القادم من دمشق .

ب – الإيعاز إلى الوفد المشترك بالتوجه إلى مقر السلطان السلجوقي بركياروق في أصفهان ، لتوضيح واقع الحال في بلاد الشام ، ودعوته لاتخاذ ما يجب عليه تجاه الوضع فيها .

وإذا كان وفد بلاد الشام قد نجح في دفع الخليفة العباسي إلى التحرك ، وأفاد مما كان له من سلطة روحية ، فإنه فشل في مواصلة سيره إلى مقر السلطان السلجوقي في أصفهان ، واضطر للعودة إلى بلاد الشام دون أن يحقق الأهداف التي ذهب من أجلها ، مما عمق حالة اليأس والشعور بخيبة الأمل ، وهو ما يمكن أن نجده في مضامين قصيدة لشاعر مجهول رثى فيها القدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م فقال :[٢]

أَحَلَّ الكفرُ بالإسلام ضيماً ... يطولُ عليه للدين النحيبُ

فحقٌ ضائعٌ ، وحمىً ، مُباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ، ودمٌ صبيبُ

وكم من مسلم أمسى سليبا ... ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سَليبُ

دمُ الخنزيرِ فيهِ لهمْ خلوقٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيهِ طيبُ

أمورٌ لو تأمّلهُن طِفلٌ ... لطفّلَ في عوارضه المشيبُ

أتُسبَى المُسلمات بكل ثغرٍ ... وعيشُ المُسلمين إذا يَطيبُ

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٤ .

[٢] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص١٥١ .

ومع أن حالة اليأس هذه عند هذا الشاعر كانت سائدة في هذه الحقبة ، إلا أنها أفرزت كذلك تشبثا بدعوة "ذوي البصائر" إلى أن يتحركـــوا ، ويســـتجيبوا لمـــا يأمرهم به الله ، من نصرة لإخوانهم في محنتهم ، وهو مـــا عـــبر عنـــه الشـــاعر المجهول نفسه بقوله : [١]

فقل لذوي البصائر حيثُ كانوا   أجيبُوا الله ويْحَكُمُ أجيبُوا

كما ظل القاضي الدمشقي ، الذي سبقت الإشارة إليـــه – وهـــو جمـــال الإسلام أبو الحسن السُلمي يواصل دعوته لتوعية الناس ، ومطالبة الحكام بالاستجابة للجهاد طوال عقد من الزمن قبل وفاته سنة ٥٠٠هـــ/١١٠٦م ، ومن ذلك ما جاء في إحدى خطبه التي ألقاها في الجامع الأموي في دمشق سنة ٤٩٨هـــ/١١٠٤م[٢] مـــن "أن النصر واقع ، إذا ما اتبع طريق الجهاد" مستشهدا بالحديث الشريف "من اســـترعى رعية ، فلم يحطها بالنصيحة ، حرم الله عليه الجنة ".[٣]

لقد كانت خطب السُلمي ، التي استمر في إلقائها في مساجد دمشق طـوال عشر سنوات ، بما تضمنته من إدراك ، ووعي بأهداف الغزو الصليبي ، وبجـــذوره التاريخية ، ذات أثر بالغ ، في إذكاء روح الجهاد والمقاومة في هذه المرحلة ، حتـــى أنها جمعت في كتاب بعنوان : "الجهاد" ، وقد ضمنه السُلمي أفكاره التي دعا إليـــها منذ بداية تحركه سنة ٤٩١هـــ/١٠٩٧م .[٤]

---

(١) ابن تغزي بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص١٥١ .

(٢) B.M.Holt, The Age of the Crusades, (the near east from country to 1517). london.1986.p.27

Subsequently cited as: Holt, The Age the Crusades.

(٣) Sivan," Geneses De Contre.I'", CCLIV, p.213

(٤) قام رمضان حسين الشاويش بتحقيق ودراسة هذا الكتاب ونال به درجـــة الماجســـتير مـــن جامعـــة الفـــاتح بالجماهيرية العربية الليبية سنة ١٩٩٢ .

٢ – استنجاد القاضي فخر الملك بن عمار ، صاحب طرابلس ، بالخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م :

لقد كان القاضي فخر الملك بن عمار ، صاحب طرابلس ، واحدا من الأمراء المحليين الذين حاولوا الصمود أمام محاولات الصليبيين السيطرة على مدينته ، ذات المكانة الحيوية على ساحل البحر المتوسط ، ولكنه حين وجد نفسه عاجزا عن الاستمرار لفترة طويلة أمام حصار فرضه عليه الصليبيون سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م[١] . قام بمراسلة السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٤٩٢-٥١١هـ/١٠٩٨-١١١٧م) مستنجدا به لإنقاذ مدينته من أيدي الصليبيين ، إلا أنه لم يوفق في اتخاذ إجراءات حاسمة ، فقد اكتفى السلطان محمد بن ملكشاه بالكتابة إلى أمير الحلة ؛ سيف بن صدقة ، وإلى أمير الموصل ؛ شمس الدولة جكرمش ، بأن يساناده ، وهو ما لم يحصل لسبب أو لآخر[٢] ، وعندها قام ابن عمار بتعيين نائب له في طرابلس وهو ابن عمه ؛ أبو المناقب محمد بن عبدالله بن عمار[٣] ، ثم توجه إلى بغداد مستنجدا بالخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٣-١١١٨م) ، والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه[٤] ، ويبدو أنه لم يحقق شيئا ، حيث أن المصادر لا تشير إلا إلى أنه استقبل فيها بحفاوة كبيرة .

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٥٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٥٣ .

(٤) ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٦٥ .

٣ – وفد مدينة حلب برئاسة القاضي أبي غانم هبة الله بن أبي جرادة سنة ٥٠٤هـ/١١١١م إلى بغداد :

مع أن الأمراء المحليين في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، قاموا بتحركات عسكرية لمواجهة الصليبيين بين حين وآخر[١] ، فإن مهادنة أحدهم ؛ وهو الأمير السلجوقي رضوان بن تتش[٢] ؛ حاكم مدينة حلب للصليبيين سنة ٥٠٤هـ/١١١١م[٣] دفع بجمهور الناس فيها ، إلى تشكيل وفد برئاسة رجل من الأشراف الهاشميين من أهلها ، وهو القاضي أبو غانم هبة الله بن أبي جرادة ، ومعه مجموعة من "الصوفية والتجار والفقهاء" ، لمقابلة الخلفة العباسي المستظهر بالله[٤].

لم تكن مهمة رجال الوفد شرح قضية مهادنة حاكم حلب المشار إليها فحسب ، بل ركزوا على توضيح خطورة ما انتهى إليه الموقف في بلاد الشام ، وسلكوا لتحقيق ذلك أكثر من اتجاه :

أ – عملوا على استقطاب فقهاء بغداد وغيرهم إلى جانبهم "**واجتمع [فعلا] معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم**"[٥]

---

(١) أنظر ص٤١–٤٣ في المبحث الأول من هذا الفصل .

(٢) كان رضوان بن تتش ؛ صاحب حلب قد صالح الصليبيين على اثنين وثلاثين الف دينار وغيرها من الخيول والثياب . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٨٢ .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل ، ص٨٧ .

(٤) ابن القلانسي ، ذيل ، ص٨٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٨٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٥٨ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٨٢ – ٤٨٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

ب – قصدوا " **جامع السلطان واستغاثوا ، ومنعوا [الناس] من الصلاة ، وكسروا المنبر**" ، احتجاجا على صمت السلطنة السلجوقية تجاه الغزو الصليبي "**فوعدهم السلطان [محمد بن ملكشاه] بإنفاذ العساكر للجهاد** "[1].

جـ – قصدوا في الأسبوع الثاني لوجودهم في بغداد ، جامع القصر في دار الخلافة لكنهم فشلوا في مقابلة الخليفة العباسي ، لأن حاجب الباب منعهم من الدخول "**فغلبوه على ذلك ، ودخلوا الجامع ، وكسروا شباك المقصورة**" فما كان من الخليفة العباسي ، إلا أن أرسل إلى السلطان السلجوقي يطلب إليه الاهتمام بما يطالب به الوفد[2] .

ثالثا : إسناد الأمراء المحليين للمقاومة العسكرية ضد الصليبيين :

إن فشل الوفود المشار إليها آنفا في حمل الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية بين سنتي (٤٩٢-٥١٣هـ/١٠٩٨-١١١٩م) ، على توجيه حملة عسكرية كبرى تتناسب وحجم الخطر الذي تعرضت له بلاد الشام ، فإنها نجحت في جعل هاتين القوتين ، توفران الظروف المناسبة لظهور مقاومة عسكرية ، قادها الأمراء المحليون ، وقد وجدت هذه المقاومة إسنادا من جمهور الناس والعلماء ضد الصليبيين ، ومن ذلك ما قام به أحد قضاة حلب وهو رأس الشيعة فيها أبو الفضل بن الخشاب (ت٥٧٠هـ/١١٧٤م)[3] ، في حالتين ، هما :

أ – عند قيام روجر دي سالرنو (Roger De Salerno) (٥٠٦-٥١٣هـ/١١١٢-١١١٩م) ؛ أمير أنطاكية سنة ٥١٣هـ/١١١٩م ، بمحاصرة

---

[1] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٨٣ .

[2] ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٥٨ .

[3] ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٥٨ ؛ عماد الدين خليل ، الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية (٥٦٥-٨١٢هـ/١١٧٢-١٤٠٩م) ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٢٣٩ . سيشار إليه تاليا : خليل ، الإمارات الأرتقية .

حلب التي كان يحكمها آنذاك ايلغازي بن أرتق ، قاد أبو الفضل بن الخشاب المقاومة ضدهم ، فقام بتحريض المقاتلين على مواجهة الصليبيين ، وقد شوهد واقفا على حجر كبير ، وبيده رمح ، وهو يلقي في الناس خطبة يستنهض " **بها هممهم** " ويدعوهم إلى مواصلة الجهاد .[1]

ب – عند قيام الصليبيين بحصار حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ، استنجد أهلها – وعلى رأسهم القاضي أبو الفضل بن الخشاب ؛ والذي كان ينوب عن حاكمها تمرتاش بن ايلغازي – بأمير الموصل آقسنقر البرسقي ، فلما وصلت قواته وقف القاضي أبو الفضل بن الخشاب ، مشاركا له في التخطيط لمواجهة العدو[2] ، فاقترح خطة لمقاومة الصليبيين في حلب ، وتحريض الأمير آقسنقر البرسقي على مواصلة تقدمه نحوها ، حيث قال : "**يا مولانا لو ساق العسكر خلفهم ، أخذناهم ، فإنهم منهزمون ، والعساكر محيطة بهم**" إضافة إلى أنه سلم قلعة حلب لآقسنقر البرسقي لكي تكون قواته في مأمن في حالة تراجعه أمام الصليبيين .[3]

رابعا : بروز وعي بضرورة اختيار قيادة كفوءة ، تتولى التصدي الصليبيين :

كان أمير الموصل السلجوقي ؛ آقسنقر البرسقي ، أكثر الأمراء نشاطا في مواجهة الصليبيين ، فلما قتل سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م ، اتخذت الإجراءات

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص١٨٩ .

(٢) كان حاكم مدينة حلب آنذاك هو تمرتاش بن ايلغازي ، مشغولا بوفاة أخيه سليمان صحاب ميافارقين .أنظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٢١٨-٢٣٠ ؛ خليل ، الإمارات الأرتقية ، ص٢٧١ .

لتعيين ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاما محله[1] ، وأرسل وفد لمقابلة السلطان السلجوقي محمود بن ملكشاه (٥١١-٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣٠م) ، لإقرار ذلك – كما سبقت الإشارة إليه في المبحث الأول – وقد تشكل الوفد من الفقيه بهاء الدين الشهرزوري[2] (ت٥٣٢هـ/١١٣٨م) ، وصلاح الدين الياغيسياني[3] ، غير أن عضوي الوفد تصرفا خلافا للعرف السائد ، وآثرا تجاهل مهمتهما هذه ، وقررا أن ينقلا صورة عن الواقع السياسي السيئ الذي آلت إليه بلاد الشام والجزيرة الفراتية بعد مقتل حاكم الموصل ، حيث عملا على كسب وزير السلطان أولا ، وهو أنوشروان بن خالد ، الذي قالا له :

" قد علمت أنت والسلطان ، أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج عليها ، وتمكنوا منها ، وقويت شوكتهم ، فقد كان البرسقي يكف بعض عاديتهم ، فمذ قتل ، ازداد طمعهم ".[4]

وبعد ذلك طلب عضوا الوفد تعيين شخصية قوية كفوءة ، غير التي ذهبا من أجل تعيينها – أي ابن البرسقي – تكون قادرة على المواجهة ، ودفع الصليبيين ، واسترداد البلاد ، منهم حيث قالا : **"وهذا ولده طفل ، ولا بد للبلاد من شهم ، شجاع ، يذب عنها ، ويحمي حوزتها ".**[5]

---

[1] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٦٩ ؛ التاريخ الباهر ، ص٣١ .

[2] هو أبو الحسن علي بن القاسم بهاء الدين الشهرزوري توفي سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م ، عينه عماد الدين زنكي قاضيا لقضاة جميع بلاده ، وزاده إقطاعا وأملاكا وكان لا يصدر إلا عن رأيه . أنظر : أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ، نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب ، تح: سعيد عاشور ، د.ط ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ١٩٨٥م ، جـ٢٧ ، ص١٢٣ . سيشار إليه تاليا : النويري ، نهاية الأرب .

[3] هو صلاح الدين بن محمد بن أيوب بن الياغيسياني ، أحد قادة عماد الدين زنكي ، وصاحب حماة ، ثم من بعده من أمراء نور الدين ، ومقدمي جيوشه . أنظر : ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص٨٥ .

[4] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ٥٦٩ ؛ التاريخ الباهر ، ص٣١ .

[5] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٦٩ ؛ خليل ، عماد الدين زنكي ، ص٤٤ .

ونتيجة لذلك اتفق عضوا الوفد على ترشيح رجل كفء قادر ، يتصـــف بالصفات التي تحدثنا عنها لوزير السلطان ، فقد كانا يحملان أكثر من مقترح في هذا المجال ، بل إن مرشحا معينا كانا على قناعة بأهميته ، وبقدرته على الدفـــاع عــن البلاد ، وهو عماد الدين زنكي ، فلما تم لقاؤهما مع السلطان ، استشارهم فـــي مــن يصلح لحكم الموصل ، فرشحا له جماعة من الأمراء ، بينهم عماد الديــن زنكـــي ، فولاه البلاد في رمضان سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م[١] .

يتضح مما ورد آنفا أن الغزو الصليبي لبلاد الشام قوبـــل بـــردود فعـــل شعبية واسعة سادت البلدان المتاخمة ، والقريبة من المناطق التي احتلها الصليبيـــون فـــي بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، تركزت في مدن دمشق ، وحلب ، والموصـــل ، و إن رد الفعل هذا تنامى بشكل خاص بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس وهو مـــا يعارض ما ذهب إليه إيمانيول سيفان (Emanual sivan) في دراسة له بعنوان **"The Beginning of Fada'l al-Quds Literature"** فـــي المجلـــة العبريـــة المعنيـــة بالدراسات الشرقية **"Iserael Oriental studies"** والتي ساوى فيها بيـــن سـيطرة الفاطميين على المدينة سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، ثم سنة ٤٩١هـــــ/١٠٩٧م ، وبيـــن سيطرة الصليبيين عليها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م ، وخلص إلى نتيجة تتناقض كليا مع الأدلة التاريخية التي سبقت الإشارة إليها ، حيث قال :

"إن الأوساط السنية في الإسلام ، لم تبد حماســـا لتحريـــر المدينـــة مـــن الفاطميين عندما سقطت في أيديهم سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، ولم يكن هناك ثمة صـــدى لإعادة احتلال الفاطميين لـــها سنـــة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، ثم احتلال الصليبيين

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٦٩ ؛ خليل ، عماد الدين زنكي ، ص٤٤ .

لها سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م"[١] .

إن ما خلصت إليه دراسة إيمانيول سيفان لا يتفق مع ما توصلت إليه هذه الدراسة – وكما دلل عليه آنفا – ذلك أن صدى سقوط بيت المقدس كان قائما حتى قبل سقوطها ، فذلك هو ما نبه إليه الفقيه جمال الإسلام أبو الحسن السُّلمي – كما أشير إليه آنفا – عند محاصرة الصليبيين لأنطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ؛ أي قبل سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين ، فقد وضح صراحة أن الهدف الأساس من الغزو الصليبي هو احتلال بيت المقدس .

ولقد اتضح من خلال هذا المبحث أن للعلماء والأدباء دورا كبيرا في قيادة هذا التحرك الشعبي وتوعيته ، وفي تحويله إلى قوة مؤثرة استطاعت أن تجر الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية ، إلى اتخاذ مواقف تباينت بين مجرد التعاطف – وهو ما فعلته بين سنتي ٤٩٠هـ/١٠٩٦م وحتى سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م – ، وبين إعطاء الأوامر للقوى المحلية التابعة لها في بلاد الشام والجزيرة الفراتية للقيام بمهمة الجهاد ومقاومة الصليبيين ، غير أن من أبرز ما حققته هذه الشريحة من المجتمع هو أنها استطاعت سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م أن تضع أمام السلطنة السلجوقية صورة حقيقية للمخاطر الصليبية وطموحاتها ، وأن تحملها – بطريق

---

(١) Emanual sivan, "The Beginning of Fada'l al-Quds Literature". Iscracl Oriental studies, Jan,1971,p207.

من الغرابة بمكان أن إيمانيول سيفان لم يدرك أن وقوع مدينة بيت المقدس بيد الفاطميين لا يخرجها عن كونها جزءً من دار الإسلام كما هو الحال مع احتلالها من قبل الفرنج الصليبين، وهو ما عالجه بشكل واضح د.محمود ابراهيم في كتابه "فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة " دراسة تحليلية ونصوص مختارة ومحققة " وقد رد فيه على طروحات ايمانيول سيفان ، كما أن ما تجدر الإشارة إليه أن الاحتلال الصليبي لبيت المقدس وغيرها من بلاد الشام والجزيرة الفراتية كان عاملا – في مرحلة من المراحل – من عوامل التقارب والتنسيق بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، رغم ما كان عليه من عداء وتناقض في المصالح .

غير مباشر – على تعيين الشخص الذي رشحته هي لقيادة حركة الجـــهاد ضد الصليبيين ، وهو عماد الدين زنكي ، مؤسس الأتابكية الزنكية ، مما يفــــترض معه أن يكون موقف العلماء والأدباء في عهده مختلفا عما كان قبله ، فهل كان الأمر كذلك ؟

المبحث الرابع

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عهد الأتابكية الزنكية

(٥٢١-٥٦٩هـ/١١٢٧-١١٧٣م)

إن ردود الفعل التي صدرت عن العلماء والأدباء في الحقبة بين سنتي (٥٢١-٥٦٧هـ/١١٢٧-١١٧٣م) ؛ أي بعد قيام الأتابكية الزنكية ، تميزت بتحولها من حالة النقد والتذكير والمطالبة المشار إليها في المباحث السابقة ، إلى الإسناد والالتفاف حول القيادة الجديدة المتمثلة بعماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م) ، الذي حقق مجموعة من الانتصارات على الصليبيين ، وقضى على أول إمارة صليبية في المشرق العربي الإسلامي ، وهي إمارة الرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، فكان لذلك أثره في رفع معنويات المسلمين وتصميمهم على القتال . لقد كان عماد الدين زنكي أول من وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين في إطارها السليم ، وقد سار على منواله نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) الذي استطاع إخضاع أتابكية دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، وحماية مصر من الغزو الصليبي عليها بين سنتي (٥٥٩-٥٦٤هـ/١١٦٤-١١٦٨م) ، ويحقق الانتصارات .

يمكن حصر ردود الفعل التي صدرت عن العلماء والأدباء في عهد الأتابكية الزنكية بعدد من المضامين هي :

أولا : تقييم الدور الجهادي للزنكيين في مواجهة الصليبيين ، ويتضح هذا في قول ابن قسيم الحموي[1] (ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) ، في مدح عماد الدين زنكي:

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ تَذِلُّ الصِّعَابُ وتَسْتَقِيمُ

---

[1] هو شرف الدين أبو المجد مسلم بن الخضر بن قسيم الحموي ، ولد في حماة سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ، وتوفي فيها سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٣٣ .

أَلم تَرَ أنَّ كَلبَ الرُّومِ لمَّا   تَبَيَّنَ أنَّكَ المَلِكُ الرَّحِيمُ
فجاءَ يطبِّقُ الفلـواتِ خيلاً   كأنَّ الجَحْفَلَ اللَّيلُ البَهِيمُ
وقدْ نَزَلَ الزَّمَانَ على رضَاهُ   فكانَ لِخَطْبِهِ الخَطْبُ الجَسِيمُ(1)

وفي قول ابن القيسراني(2)(ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) يمدحه بعد تحرير الرُّهـا سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م (3)

هو السَّيْفُ لا يُغْنِيكَ إلا جِلادُهُ   وهَل طوَّقَ الأمْلاكَ إلا نِجَادُهُ
سَمَتْ قُبَّةُ الإسلامُ فخراً بطُولِهِ   ولم يَكُ يَسْمُو للدِّين لولا عِمَادُهُ
وذادَ قَسِيمُ الدَّولةِ ابْنُ قسِيمُها   عن اللهَ مالا يُستَطَاعُ زِيَادُهُ

وفي قول ابن منير الطرابلسي(4) (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) يمدحه :

صِفَاتُ مَجْدِكَ لفظٌ جلَّ مَعْنَاهُ   فَلا اسْتُرَدَّ الذي أعطاكهُ اللهُ(5)

---

(1) عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تح : ابراهيم الزيبق ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٧ ، جـ١ ، ص١٢٤ . سيشار إليه تاليا : أبو شامة ، كتاب الروضتين .

(2) هو محمد بن محمد بن صغير بن داغر بن خالد شرف الدين المخزومي ، ولد في قيسارية سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م ، وتوفي في دمشق سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٦ .

(3) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص١٤١ .

(4) هو الرفاء عين النهار أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي ، ولد سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م ، وتوفي سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣ . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٧٦ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٥٦ .

(5) أحمد بن منير الطرابلسي (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) ، ديوان ابن منير الطرابلسي ، جمعه وقدم له عبد السلام تدمري ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٦ ، ص١٩١ . سيشار إليه تاليا : ابن منير الطرابلسي ، ديوانه ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص١٤٢ .

وفي قول ابن القيسراني يمدح نور الدين محمود سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م :[١]

هذي العزائم لا ما تدعي القضب   وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وفي قول ابن منير الطرابلسي :[٢]

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته   وعلا الهدى وتبلجت قسماته

ثانيا : التأكيد على أن القدس هي المحور الأساس الذي اعتبر كل فتح آخر سبقه مقدمة له ، ويتضح هذا المعنى في قول ابن منير الطرابلسي يخاطب عماد الدين بعد فتحه للرها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م :[٣]

وغدا يلقي على القدس لها   كلكل يدرسها درس الدرين

وفي قول ابن القيسراني :[٤]

وإن يك فتح الرها لجة   فساحلها القدس والساحل

وفي قول الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك (ت٥٥٦هـ/١١٦١م) ، في قصيدة كتب بها إلى أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) ، يحث نور الدين محمود فيها على تحرير بيت المقدس ، وذلك سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م :[٥]

سر إلى القدس واحتسب في اللـــه فبالسير منك يشفى الغليل

---

[١] الحافظ بن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ، البداية والنهاية ، تح : أحمد ملحم وآخرون ، ط٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م ، جـ١٢ ، ص٢٨ . سيشار إليه تاليا : ابن كثير ، البداية والنهاية

[٢] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص١٦٥ .

[٣] ابن منير الطرابلسي ، ديوانه ، ص٢٠٠ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص١٤٢ .

[٤] أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص١٤٩ .

[٥] طلائع بن رزيك (ت٥٥٦هـ/١١٦١م) ، ديوان طلائع بن رزيك ، جمعه وبوبه وقدم له محمد هادي الأميني ، ط١ ، منشورات المكتبة الأهلية ، د.م ، ص٨٦ . سيشار إليه تاليا : ابن رزيك ، ديوانه .

وفي قول الحافظ ابن عساكر[1] (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) : [2]

وإن ْ بَذلتَ لفتح القُدْس مُحْتَسِبًا   للأجْر قَدْ جُوزيتَ أجْرًا غيرَ مُحْتَسَبِ

وفي قول العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) عند فتح نور الدين لقلعة منبج سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م :[3]

أبْشِرْ فَبَيْتُ المَقدِسِ يَتْلو مَنْبِجًا   ولِمَنْبِجٌ لِسِوَاهُ كالأنمُوذَج

ثالثا : التأكيد على أن توحد القوى الإسلامية في بلاد الشام ، والتفافها حول القيادة الزنكية هو ما يوصل إلى إنهاء الوجود الصليبي .

لقد كان ثمة قناعة لدى العلماء والأدباء ، أن توحد البلاد حول قيادة واحدة ، هو ما يضعف الصليبيين ، ويمهد لإنهاء احتلالهم لها ، إن هذا هو ما عبر عنه ابن القيسراني ، وهو يخاطب نور الدين محمود ، بعد أن عقد صلحا مع حكام دمشق سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م :[4]

إذا ما دِمَشْقُ مَلَكْتكَ عِنَانُها   تَيَقّنَ مَنْ في إيْليّا أنّهُ الذّبَحُ

---

(1) هو أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله أبي الحسن الدمشقي ، ولقب بثقة الدين ، كان محدث الشام في عصره ، ومن أعيان فقهاء الشافعية ، توفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م . انظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٧٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٠٩ .

(2) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص٤٠٥ .

(3) محمد بن محمد العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، ديوان عماد الدين الأصفهاني ، تح : ناظم رشيد ، ط١ ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ١٩٨٣م ، ص١٠٢ . سيشار إليه تاليا : العماد الأصفهاني ، ديوانه.

(4) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص٣٧٢ .

رابعا : الحث على الجهاد والكتابة فيه :

كانت الدعوة للجهاد والكتابة فيه من الوسائل التي ساهم بها العلماء ، ومن الذين صنفوا في هذا المجال ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م) في كتابه " فضل الجهاد " وكتابه " الأربعون حديثا في الجهاد ".[١] وكذلك الفقيه مجد الدين بن جهبل[٢] (ت ٥٩٦هـ/١١٩٩م) في كتابه " فضل الجهاد "[٣] .

خامسا : التذكير بالمكانة الكبرى التي تتميز بها مدينة القدس ومدن بلاد الشام :

لقد كان إبراز مكانة مدن بلاد الشام – وبخاصة القدس – أحد أهم المضامين التي حاول العلماء أن يركزوا عليها تذكيرا بمكانتها ، ودعوة إلى تحريرها ، وقد برز في هذه الحقبة ابن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) ، فقد ألف كتاب " فضائل بيت المقدس " و " فضائل المدن الإسلامية " و " فضائل عسقلان " ويلاحظ أن ابن عساكر ألف هذه الكتب بعد سقوطها المدن الإسلامية في بلاد الشام بأيدي الصليبيين .[٤]

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج١٣ ، ص٧٨ .

(٢) هو مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر بن جهبل الحلبي ، فقيه الشافعي ، ولد في حلب سنة ٥٣٢هـ/١١٨٧م ، وكان أول من ألقى درسا بالصخرة المشرفة بعد تحرير صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وقد توفي في القدس سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٧٢ ؛ جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) ، طبقات الشافعية ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص٣٧٢ . سيشار إليه تاليا : الاسنوي ، طبقات الشافعية .

(٣) الأسنوي ، طبقات الشافعية ، جـ١ ، ص٣٧٢ .

(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق١ ، ص٢٤٧ ؛ عبد القادر النعيمي (ت ٩٧٨هـ/١٥٢٠م) ، الدارس في تاريخ المدارس ، أعد فهارسه شمس الدين ، د.ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م ، جـ١ ، ص١٠٣ . سيشار إليه تاليا : النعيمي ، الدارس ؛ أحمد عبد الكريم حلواني ، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية ، د.ط ، دار الفداء ، دمشق ، د.ت ، ص٧٥ . سيشار إليه تاليا : حلواني ، ابن عساكر .

سادسا : المشاركة الفعلية في المعارك :

أشارت المصادر إلى مشاركات فعلية للعلماء والأدباء في المعارك التي خاضها المسلمون في مواجهتهم الصليبيين ، ومن بين ذلك الدور الذي أداه الفقيه المؤذن موسى الأرمني[١] ، أثناء حصار عماد الدين زنكي للرّها ، حيث قام بارتداء ملابس أرمينية وتمكن من الدخول إليها ، ويبدو أنه كان مرسلا لمعرفة وضع المدينة وحالها وهو ما تحدث هو عنه فقال :

" ... ، **فنزلت إلى السوق ، واشتريت لباس الأرمن وتزييت في زيهم ، ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله ، فجئت إلى الجامع فدخلته ، ورأيت المنارة ، فقلت في نفسي : اصعد إلى المنارة ، وأؤذن وحتى يجري ما جرى ، فصعدت وناديت الله أكبر ، الله أكبر ، وأذنت ، والكفار على الأسوار ، فوقع الصياح في البلد ، أن المسلمين قد هجموا البلد من الجهة الأخرى ، فترك الكفار القتال ، ونزلوا عن السور ، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة** "[٢] .

ومن ذلك مشاركة الفقيه المغربي أبو الحجاج الفندلاوي[٣] إلى جانب نور الدين عند حصار الصليبيين لدمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م ، الذي أجاب من حاول أن يقنعه بعدم الخروج للجهاد والاكتفاء بالبقاء في المدينة ، وتحريض الناس على القتال : قد بعت واشتري مني ،..."[٤] ، وأراد بذلك قوله تعالى : " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة "[٥] . ويذكر ابن منقذ أن الشيخ

---

[١] هو فقيه ، ومدرس ، ومؤذن في الموصل ، أصله من سكانها ، ويكنى بالأرمني ، لأن شكله يشبه الأرمن . انظر : ابن العديم ، بغية الطلب جـ٨ ، ص٣٨٥١ .

[٢] ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٨ ، ص٣٨٥١ .

[٣] هو يوسف بن دوناس بن عيسى أبو الحجاج المغربي ، فقيه مالكي ، قدم دمشق ، وسكن بانياس . انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ،جـ٨ ، ق١ ، ص٢٠٠ .

[٤] حمزة بن أسد بن القلانسي (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) ، تاريخ دمشق ، تح : سهيل زكار ، د.ط ، دار حسان للطباعة والنشر دمشق ١٩٨٣م ، ص٤٦٤ – سيشار إليه تاليا : ابن القلانسي ، تاريخ .

[٥] سورة التوبة ، الآية (١١)

الزاهد عبد الرحمن الحلحولي – وهو مغربي كذلــك – قــد شــارك فــي مقاومــة الصليبيين في دمشق[١]، كما شارك أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـــ/١١٨٨م) إلــى جانب نور الديــن فــي العديــد مــن المعــارك ومنــها حصــار حــارم ســنة (٥٥٧هـ/١١٦٢م)[٢].

وقد كان للفقيه أبي طاهر بن عوف الزهري[٣] (ت ٥٨١هــ/١١٨٥م) ، دور مهم في بث روح الجهاد في الإسكندرية عند محاصرة القوات الزنكية بقيادة صــلاح الدين الأيوبي[٤] فيها من قبل الصليبيين ، وحليفهم الوزير الفــاطمي شــاور ســنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، فقد قام بتشجيع الناس علــى إمــداد المحــاصرين بــالأموال ، والرجال والعتاد ، والميرة ، واستمر ذلك حتى انتهى الحصار عن المدينة[٥].

---

(١) ابن منقذ ، الاعتبار ، ص٩٥ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ١ ، ص١٨٦ ؛ علي أحمد ، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري ، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري ، ط١ ، د.ن ، دمشق ١٩٨٩م ، ص٣٠٤ . سيشار إليه تاليا : أحمد ، الأندلسيون والمغاربة .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٢٨٥ ؛ التاريخ الباهر ، ص١١٦ .

(٣) هو صدر الإسلام أبو الطاهر إسماعيل بن بكر المعروف بابن عوف الزهري ، الاسكندراني ، فقيه لمالكي ، تفقه على أبي بكر الطرطوشي . وسمع منه توفي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . انظر اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ٣، ص٣١٧ .

(٤) كان صلاح الدين الأيوبي ، قد حوصر من قبل عموري الأول ؛ ملك بيت المقدس ، والقوات الفاطمية بقيادة الوزير الفاطمي ؛ شاور ، لمدة سبعة وخمسين يوما ، وكان ذلك سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، وانتهى الأمر إلى عقد صلح بين الطرفين تبادلا بموجبه الأسرى واتفقا على مغادرة الأراضي المصرية إلى بلاد الشام .
أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٥١ .

(٥) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٧٩ .

وقد كان الفقيهان ، عزالدين بن عبدالهادي[1] (ت ٥٧٠هـ/١١٧٤م) ، وضياء الدين عيسى الهكاري[2] (ت ٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، ممن شارك في الحملة التي أرسلها الزنكيون إلى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م[3] ، لإزاحة النفوذ الصليبي الذي كان قد تغلغل فيها آنذاك .

سابعا : الدعوة إلى تعاون زنكي فاطمي لمواجهة الصليبيين :

إن ما أشير إليه من قيام دعوة إلى التعاون بين الزنكيين والفاطميين صدرت عن حكامهم[4] ، وجدت صداها عند عدد من الأدباء ، وكان من أبرز المتحمسين لها الأديب الشاعر أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) ، والذي عبرت مراسلاته الشعرية مع الوزير الفاطمي ؛ الشاعر طلائع بن رزيك عن الدعوة إلى التعاون المشترك بين الفاطميين والزنكيين من الصليبيين [5] . ابتدأت هذه المراسلات الشعرية بقصيدة وصلت من طلائع بن رزيك إلى أسامة بن منقذ سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ، تضمنت دعوة لتخليص بيت المقدس من الغزو الصليبي

---

[1] هو شرف الإسلام عز الدين عبد الهادي ، واعظ ، وفقيه ، حنبلي ، بنى له نور الدين مدرسة في مصر ، توفي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م . انظر : عبد الرحمن بن رجب (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) ، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، د.ط ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت، جـ١ ، ص٣٧٠ . سيشار إليه تاليا : ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة .

[2] هو أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ، نسبة إلى قبيلة من الأكراد ، وهو أحد أمراء الدولة الصلاحية ، توفي في الخروبة ، قرب عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م ، ودفن في القدس . انظر : العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٣ ، ص٩١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٤٥ .

[3] العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٥ ، ص٢١٩ ، ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، جـ١ ، ص٣٧٠ .

[4] أنظر المبحث الثاني من هذا الفصل .

[5] أنظر هذه الرسائل في : ابن رزيك ، ديوانه ، ص٨٤-١٧٣ ؛ أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) ، ديوان أسامة بن منقذ ، تح : أحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، د.ط ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص١٦٦-٣٤٤ . سيشار إليه تاليا : ابن منقذ ، ديوانه .

المقدس من الغزو الصليبي والذي عبرت عنها الأبيات التالية : (١)

بلغوا قولنا إلى الملك العادل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تماطل الدين في الكفار فاحذر أن يغضب الممطول
سر إلى القدس واحتسب ذاك في الله فبالسير منك يشفى الغليل

وفي قصيدة أخرى دعا فيها إلى توحيد الجهود للوقوف في وجه الصليبيين سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م ، وهو ما عبرت عنها الأبيات التالية(٢) :

فانهض الآن مسرعا فبأمثالك مازال يدرك المطلوب
ألق عنا رسالة عند نور الدين ما في إلقائها ما يريب
قل له ، دام ملكه ، وعليه من لباس الإقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للدين شباب ، وللحروب شبيب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب

ودعا أسامة بن منقذ في إحدى رسائله الجوابية التي وجهها إلى طلائع ابن رزيك ، إلى توحيد الجهود ، والتعاون بين الطرفين في قوله : (٣)

يا أشرف الوزراء أخلاقا و أكرمهم فعالا
فاسلم لنا حتى نرى لك في بني الدنيا مثالا
واشدد يديك بود نور الدين وألق به الرجالا
فهو المحامي عن بلاد الشام جمعا أن تذالا
ومبيد أملاك الفرنج وجمعهم حالا فحالا
فبقيتما للمسلمين حمى وللدنيا جمالا

---

(١) ابن رزيك ، ديوانه ، ص٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٠٣ .

(٣) ابن منقذ ، ديوانه ، ص٢١٧ .

ووجدت دعوة التوحد هذه صداهـا عنـد الشـاعر المـهذب بـن الزبـير[١] (ت ٥٦١هـ/١١٦٥م) ، الذي أثنى على وحدة الجهود بين الطرفين ، فمدح نور الدين محمود ، ودعا ابن رزيك ، للتعاون معه في قوله :[٢]

وأعدْتَ رُسْلَ ابن القسيم إليْهِ في شَـعْبَان كيْ يتلاءم الشَّعْبان

والفالُ يَشْهَدُ في اسْمِهِ أن سَوْفَ يَغْـدُو الشَّامُ وهُوَ عليْكُمَـا قِسْمَان

وأرَاكَ مِنْ بَعْـدِ الشَّـهيدِ أباً لهُ وجَعَلْتَهُ مِنْ أقـرَبِ الإخْوَان

يتضح مما سبق أن موقف العلماء والأدباء من الصليبيين ، خلال العقـود الثمانية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية (٤٩٠-٥٦٩هـ/١٠٦٩-١١٧٣م) ، جـاء انعكاسا لرد فعل شعبي ، استطاع علماء وأدباء هذه الحقبـة أن يعكسـوه ، بـل أن يمارسوا من خلاله ضغطا كبيرا على الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية .

ترى كيف كان موقف العلماء والأدباء من الصليبيين فـي العصـر الأيوبي (٥٦٩-٦٤٨هـ/١١٧٤-١٢٥٠م) ؟

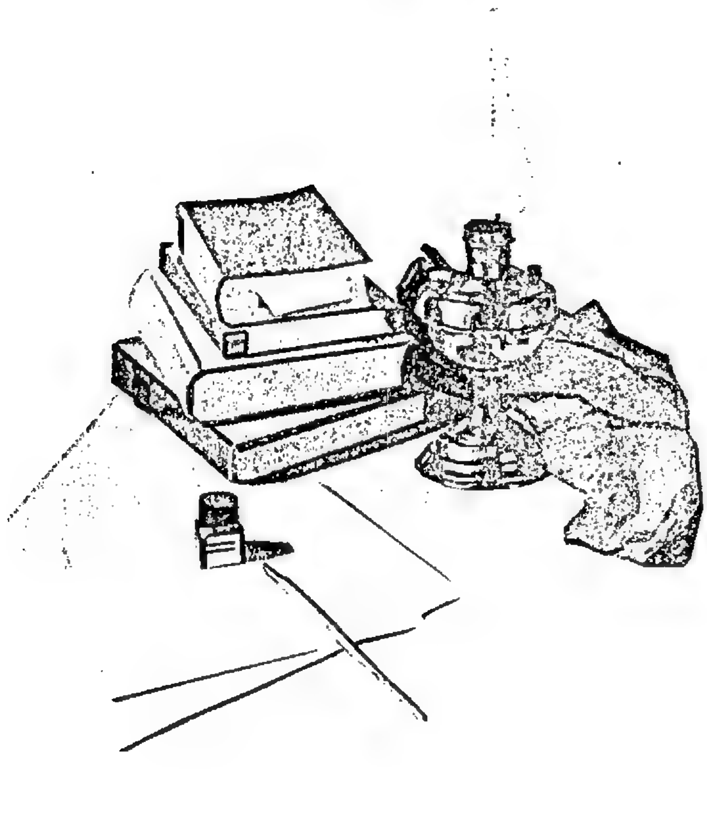
هذا ما ستتناوله الدراسة في الفصول القادمة .

---

(١) هـو أبو محمد الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير الملقب بالمهذب ، شاعر اختص بمدح طلائـع بـن رزيك ، توفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شـعراء مصـر ، جـ١ ، ص٢١٤ ؛ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ٩ ، ص٤٧ .

(٢) العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص٢٠٩ .

الفصل الثالث



موقف العلماء والأدباء من الصليبيين
في عصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٩-٥٨٩هـ / ١١٧٣-١١٩٣م)

المبحث الأول : موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين قبل معركة حطين (٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م) .

المبحث الثاني : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل معركة حطين (٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م) .

المبحث الثالث : موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين خلال الحقبة بين معركة حطين وحتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة

(٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م) .

المبحث الرابع : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين خلال الحقبة بين معركة حطين وحتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة

(٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م) .

المبحث الخامس : موقف صلاح الدين من الصليبيين بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة وحتى صلح الرملة

(٥٨٦-٥٨٨هـ/١١٩٠-١١٩٢م) .

المبحث السادس : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة وحتى صلح الرملة

(٥٨٦-٥٨٨هـ/١١٩٠-١١٩٢م) .

الفصل الثالث

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٩-٥٨٩هـ/١١٧٣-١١٩٣م)

المبحث الأول : موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين قبل معركة حطين (٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م)

لمعرفة موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين ، لا بد من الإشارة إلى حصول متغيرات جوهرية في سياسة الزنكيين في هذا المجال في أعقاب وفاة نور الدين محمود في ١١ شوال ٥٦٩هـ/نيسان ١١٧٣[(١)] ؛ أي قبل تسلم صلاح الدين مقاليد الحكم في معظم البلاد التي كانت تابعة للأتابكية الزنكية ، كما أن المتغيرات المشار إليها استمرت لأكثر من عقد من الزمن (٥٦٩-٥٨١هـ/١١٧٣-١١٨٥م) ، في البلاد التي ظلت تحت الحكم الزنكي في قاعدتين كبيرتين ، هما حلب والموصل ؛ أي في شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية .

كان أكبر أبناء نور محمود ، ووريثه في حكم الأتابكية الزنكية ، هو الصالح إسماعيل الذي لم يكن يتجاوز أحد عشر عاما عند وفاة أبيه[(٢)] ، مما فسح المجال إلى بروز دور الأمراء الزنكيين في دمشق ، الذين اختاروا أكبرهم مكانة لإدارة شؤون البلاد ، والوصاية على الأتابك الصغير ، وهو شمس الدين بن المقدم [(٣)] ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١ .

(٣) هو شمس الدين بن المقدم ، أحد أمراء نور الدين ، كان أميرا على سنجار ، وبعد وفاة نور الدين اختير وصيا على ابنه الصالح إسماعيل ، حضر جميع فتوحات صلاح الدين الأيوبي ، توفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . أنظر : البنداري ، سنا البرق الشامي ، جـ١ ، ص١٥٤ .

ويبدو أن أمير دمشق هذا ، كان حريصا على ما يجعله ، والأمراء الآخرين الملتفين حوله ، هم من يدير شؤون الأتابكية الزنكية ، لذا فقد رفضوا اقتراحا للقاضي كمال الدين الشهرزوري[(١)] (ت٥٧٢هـ/١١٧٦م) ، بضرورة التشاور مع صلاح الدين في الكيفية التي تدار بها الأتابكية الزنكية بعد وفاة نور الدين محمود[(٢)] ، كما أن حرص أمراء دمشق على التفرد بحكم الأتابكية الزنكية دفع أمراء حلب لمنافستهم في إدعاء الوصاية على الأتابك الصغير ، تزعمهم الأمير شمس الدين علي بن الداية ، وتمكنوا من أن يقنعوا أمراء دمشق بضرورة نقل الأتابك المشار إليه إلى مدينتهم ليكون تحت حمايتهم[(٣)] ، كما أن مدينة زنكية ثالثة -هي الموصل- بدأت تفرض سيطرتها على مدن لم تكن تابعة لها ، فقد سيطر أتابكها سيف الدين غازي على نصيبين ، والخابور ، وحران ، والرها ، وتمكنت قواته التي أرسلها إلى مدينتي الرقة ، وسروج من السيطرة عليهما كذلك ، مما اعتبر تجاوزا على حقوق الأتابك الصغير ، وسيطر على مدن ، وأراض ، خارج حدود ما كان مخولا به منذ

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن القاسم بن المظفر بن علي الموصلي ، فقيه شافعي ، ولاه نور الدين قضاء دمشق ، ونظر الأوقاف ، وكان يقوم بالكثير من السفارات بين الزنكيين ومركز الخلافة . أنظر : عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٧م ، جـ٣ ، ص١٣٠ . سيشار إليه تاليا : اليافعي ، مرآة الجنان .

(٢) كان كمال الدين الشهرزوري قد أوضح رأيه بما يلي :

"قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر ، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله ، وهو أقوى منا لأنه ، انفرد بملك مصر ". أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤١٥ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٧ .

زمن نور الدين[١] .

ويبدو أن حرص أمراء دمشق على إبعاد صلاح الدين الأيوبي عن المشاركة في الشؤون الشامية ، دفعهم إلى إرسال رسالة على لسان الأتابك الصالح إسماعيل يؤكدون فيها ، أنه المدخر لمواجهة الخطر الصليبي ، الذي هو – على حد تعبير الرسالة – همهم وشاغلهم الكبير[٢] ، غير أنهم – في أعقاب ذلك – تصرفوا تجاه الصليبيين تصرفا مناقضا لمضمونها ، فقد واجهوا حصار الملك عموري الأول (Amarlic I) لمدينة بانياس القريبة من دمشق ، في أواخر شوال ٥٦٩هـ/١١٧٣م[٣] ، بالتفاوض وتقديم تنازلات له ، وذلك بدفع المال وإطلاق مجموعة من الأسرى الصليبيين ، مقابل فك الحصار عن المدينة[٤] ، إضافة

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٧ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٧٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٥٠٤ .

(٢) جاء في كتاب الأمراء المشار إليه في المتن والموجه لصلاح الدين ما يلي :

" أطال الله بقاء سيدنا الناصر ، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ، ندب الشام ، بل الإسلام ، حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، وعدم الجهاد مفتى فضيلته ...، وما ها هنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر إلا أمر الفرنج – خذلهم الله – وما كان اعتماد مولانا الملك العادل ، وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل ، والصرف الكارث ، المذهل ، فقد ادخره للغايات ، والنوائب ، وأعده لنفسه ، ولولده ، ومكنه قوة لعضده ...، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر فيهم على البدار ، ويجري على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد هناك ..." . أنظر : البنداري ، سنا البرق الشامي ، جـ١ ، ص١٥٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٧ ؛ الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة زكار) جـ٢ ، ص٩٧٠ ؛ Stevenson, The Crusaders in the East, p.213.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٨ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص١٢٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٧ ؛ Stevenson, The Crusaders in the East. p.213.

إلى أنهم هددوا الصليبيين بالاستعانة بسيف الدين غـــازي ؛ صـــاحب الموصـــل ، وصلاح الدين الأيوبي ؛ صاحب مصر ، إذا ما رفضوا الصلح ، واســـتمروا فـــي محاصرة بانياس ، وقد جاء في نص الرسالة المشار إليها بهذا الخصوص :

" إن أنتم صالحتمونا ، وعدتم عن بانياس ، فنحن على ما كنا عليـــه ، وإن أبيـــتم ذلك ، أرسلنا إلى سيف الدين غازي ؛ صاحب الموصل ، وصلاح الدين ؛ صاحب مصر ونستنجدهم ، ونطلب بلادكم من جهاتها كلها ، فلا تقومون لنا ، وأنتم تعلمـون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف ، وإذا طالبناه إلى بلادكم لا يمتنع"[١] .

أمام هذا التناقض في موقف أمراء دمشق من الصليبيين ، بَيْـــنَ دعـــوةٍ لمواجهتهم ، ثم تصالح معهم ، بما يعنيه ذلك من تراجع عن القضيـــة التـــي تبنتـــها الأتابكية الزنكية ، منذ تأسيها سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ، وهي التصدي للصليبيـــين ، وتحرير بلاد الشام منهم ، أعلن صلاح الدين الأيوبي ، الذي كان هو أيضـــا أحـــد ركائز السياسة المشار إليها ، رفضه واستنكاره لهذا التوجه الجديـــد فـــي السياســـة الزنكية خلال رسالة أرسلها إلى الأمراء في دمشق يستنكر فيها ما فعلوه[٢] ، إضافـــة إلى أنه كتب إلى جماعة الأعيان في بلاد الشام من العلماء ، وجه فيها اللوم لـــــهم لسكـــوتهم عمـــا اقترفه شمـــس الـــدين بن الـــمقدم ، في الصلح مع الصليبيـــن [٣] ويفهم من مضمون أحد هـــذه الكـــتب ، الـــتي أورد أبو شـــامة نصـــا له ، وهو

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٢٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٧ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٨ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٢٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٧ .

موجه إلى القاضي شرف الدين بن أبي عصرون[1] (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، قاضي دمشق التركيز على ثلاثة أمور ، هي :

أولا : استنكار عدم قيام القاضي ابن أبي عصرون بقطع "...، **عادية من تَعَدّى ، وتَمَرّدْ**"[2] ؛ ويقصد بذلك قيام أمراء دمشق بتوقيع الصلح مع الصليبيين .

ثانيا : تذكيره بأن موقفه هذا لا يتناسب مع ما عرف عنه م أنه أول من " **قام في سبيل الله "وأنه" أول من أطلق لسانه ، الذي تُغْمَدُ له السيوف ، وتجرد** "[3] .

ثالثا : دعوته إلى بذل الجهد في اجتماع الكلمة على أساس من "**صلاح الرأي ، وصواب التدبير** " [4] .

ومع أن المصادر لم تتحدث عن تحرك لابن أبي عصرون وللشخصيات الأخرى ، التي خاطبها صلاح الدين الأيوبي في ضوء رسائله المشار إليها ، فإنه ثمة ما يشير إلى حصول متغيرات في أعقاب وصول الرسائل المشار إليها ، فقد وجه عدد من الأمراء في دمشق ، بينهم ابن المقدم نفسه، رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي يطلبون فيها منه ضرورة المجيء إلى دمشق لمعالجة الموقف في الأتابكية الزنكية، بعد التردي الذي وصلت إليه ، من تمزق وحدتها، وصراع أمرائها[5] .

---

(١) هو أبو سعد عبد الله بن أبي السرى محمد بن هبة الله بن أبي عصرون ، فقيه شافعي ، له منزلة كبيرة عند نور الدين ، الذي بنى له المدارس في حلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، كما تولى القضاء في سنجار ، ونصيبين ، وحران ، ولد في الموصل سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م ، وتوفي في دمشق سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣٢٨ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٢٩.

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٠٥ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٧٦ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، حـ٢ ، ص١١ .

لبى صلاح الدين الأيوبي الدعوة ، وقدم إلى دمشق على رأس جيش متواضع لا يتجاوز سبعمائة فارس ، واستقبل فيها بترحاب كبير ، وسلمت إليه مفاتيح دمشق ، مما يعني أن ثمة إجماعا بين أمرائها على مدى الحاجة إليه في الظروف التي كانت تمر بها الأتابكية الزنكية ، بل أن ابن المقدم نفسه كان هو من سلم مفاتيح المدينة إليه[1] .

موقف صلاح الدين الأيوبي من تحالف زنكيي الموصل وحلب مع الصليبيين :

مع أن مدنا أخرى رحبت بصلاح الدين وقواته كحمص ، وحماة[2] ، فإن الأمراء الزنكيين في كل من حلب ، والموصل ، وقفوا في وجهه عندما أراد أن يفرض سيادته على المدينتين ، وخطوا في هذا الاتجاه خطوة خطيرة بتحالفهم مع الصليبيين – كما سيشار إليه أدناه – مما جعل شمالي الشام والجزيرة الفراتية ساحة صراع سياسي ، وعسكري ، بين صلاح الدين الأيوبي من جهة ، وبين الأمراء الزنكيين في حلب ، والموصل ، وحلفائهم من الصليبيين وغيرهم من جهة أخرى .

أمام هذا التغير الزنكي في سياستهم ، تجاه الصليبيين ، دخلت حركة الجهاد في مأزق كبير ، وهو ما تصدى له صلاح الدين الأيوبي خلال أحد عشر عاما ، عمل فيها على إيقاف التحالف الزنكي الصليبي ، واسترجاع وحدة البلاد الزنكية بين دجلة في الجزيرة الفراتية ، وحتى مصر، واتخاذ الإجراءات التعبوية بما يهيئ البلاد للدخول

---

(١) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص١٧٦ ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٨٧ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٦ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص٣٥٠ .

في مواجهة حاسمة مع الصليبيين[١] .

مع توجه صلاح الدين الأيوبي بقواته إلى حلب ، وصلته رسالة من الأمراء الزنكيين ، كتبت على لسان الصالح إسماعيل ، تحمل تحذيرا ، له جاء فيها " **السيوف التي ملكتك مصر ، تَرُدُّكَ وعما تصديت له تصدك** "[٢] ، فلما وصلت قوات صلاح الدين الأيوبي إلى مشارف حلب كان الأمراء الزنكيون فيها قد خطوا خطوتهم الأولى بالاتفاق مع الإسماعيلية ، ممثلة بزعيمها راشد بن سنان[٣] ، لاغتيال صلاح الدين الأيوبي وإمدادهم بالمال ، فوثبوا على صلاح الدين الأيوبي عند نزوله على حلب ، ولكنه نجى من هذه المحاولة[٤] ، ثم خطا الأمراء خطوتهم الثانية بالإفادة من الصليبيين ، والتحالف معهم ضد صلاح الدين الأيوبي ، واتفقوا مع حاكم طرابلس الصليبي ريموند الثالث (Raymond III) على مهاجمة القوات الأيوبية في حمص[٥] ، وقد تم هذا فعلا ، بل أن الأمير الإفرنجي الصليبي المشار إليه ، حاول خلال ذلك ، اللجوء إلى التأثير على صلاح الدين الأيوبي نفسيا ، في إطار رسائل أرسلها إليه لمفاوضته على مسألة حلب ، فأرسل إليه يرغّبه في الصلح مبينا له بأن " **الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة** "[٦] ، ورد صلاح الدين الأيوبي على ذلك بقوله أنه :" **ليس ممن يرهب بتأليب الفرنج** "[٧] وقد دفع هذا ريموند لمهاجمة حمص

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٨٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٧ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢١ .

(٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٧١٧ ، عن الإسماعيلية أنظر أعلاه الهامش رقم (١) ص٤٤ .

(٤) أبو الفداء ، المختصر ، جـ٣ ، ص٥٧ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤١٩ .

(٦) المصدر نفسه ، جـ١١ ، ص٤١٩.

(٧) المصدر نفسه ، جـ١١ ، ص٤١٩.

مما اضطر صلاح الدين إلى أن يرفع الحصار عن مدينة حلب، ويعود إلى حمص للدفاع عنها ، فلما وصلها ، وجد ريموند الثالث قد انسحب بقواته ، ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي ، أراد أن يُشْعِرَ الصليبيين بمدى قوته ، فأرسل مجموعة من فرسانه للإغارة على أنطاكية " **فغنموا غنيمة ، حسنة وعادوا** " ، كما هاجم الصليبيين في بعلبك ، واستولى عليها في رمضان سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤(١) .

استغل الزنكيون في حلب رفع صلاح الدين الأيوبي حصاره عنهم ، وتحركوا نحو حمص ، فجمعوا قواتهم التي انضمت إليها القوات الزنكية القادمة من الموصل ، واتجهوا جميعا للتصدي لصلاح الدين الأيوبي وقواته ، فالتقى الطرفان في معركة عند منطقة تعرف بقرون حماة(٢) ، على مقربة من هذه المدينة في رمضان ٥٧٠هـ/١١٧٤م(٣) ، وانتهت بهزيمة الزنكيين ، وبملاحقة صلاح الدين الأيوبي لهم حتى مشارف حلب التي فرض عليها حصارا ثانيا ، مما اضطر حكام المدينة إلى التفاوض معه ، باسم السلطان الصغير ؛ الصالح إسماعيل بن نور الدين زنكي ، فوافق صلاح الدين الأيوبي على ما عرضوه ، وتم الصلح على أساس أن لهم ما بأيديهم ، ولصلاح الدين الأيوبي ما افتتحه من بلاد الشام(٤) ، غير أن الزنكيين في الموصل ، ما أن وصلتهم أنباء الصلح ، حتى رفضوا الاعتراف به ، واستطاعوا أن يقنعوا الزنكيين في حلب برفضه ، وبضرورة التوجه لقتال صلاح الدين ، فجمع الطرفان قواتهما ، وتوجها لضرب القوات الأيوبية ، التي التقوا معها في موقع يعرف بتل السلطان(٥) ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤١٩ .

(٢) هي منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وهي مكونة من قمتين متقابلتين . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٣٥ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٥٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣١ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٣ .

(٥) هي على مسافة من حلب في طريق المسافرين إلى دمشق . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٤٠٥ .

قرب مدينة حلب في شوال ٥٧١هـ/١١٧٦م ، انتهت لغير صالحهم ، فانسحبوا مهزومين إلى مواقعهم[١] ، بينما اتجه صلاح الدين الأيوبي لمحاصرة مدينة حلب حتى مطلع سنة ٥٧٢هـ/١١٧٥م[٢] ، ثم انتهى الأمر إلى التفاوض ، وعُقِدَ صلحٌ مع الزنكيين في المدينة المحاصرة ، اتفق فيه على أن تكون حلب وأعمالها للصالح إسماعيل بن نور الدين ، وأن تكون مصر وبلاد الشام وحماة وما يليها لصلاح الدين[٣] ، وعندها توجه صلاح الدين إلى دمشق ، وذلك في ١٦ صفر سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م .

مما سبق يتضح أن صلاح الدين الأيوبي واجه منذ وصوله إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وحتى عقد الاتفاقية المشار إليها مع زنكيي حلب في ١٦ صفر ٥٧٢هـ ١١٧٦م ، صعوبات ، مثلتها قوى يتداخل بعضها ببعض ، في الساحة التي يريد صلاح الدين الأيوبي توحيدها – أي بلاد الشام – ، وهي تتمثل بالزنكيين ، والصليبيين ، والإسماعيلية ، الذين التقت مصالحهم ، فتحالفوا ضده ، إضافة إلى احتمال وصول حملة صليبية مساندة لمملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الأخرى ، لذا فقد التزم صلاح الدين الأيوبي بمضمون الاتفاقية المشار إليها آنفا مع زنكيي حلب ، ولم يقم بأي نشاط عسكري ضدهم ، خلال السنوات الست التي تلت ذلك (٥٧٢-٥٧٨هـ/١١٧٦-١١٨٢م) ، ولم يخرج عن التزامه هذا ، إلا عندما علم أن الزنكيين اتصلوا بالصليبيين ، وشجعوهم على مهاجمة المدن التابعة له ، فقام بمحاصرة الموصل سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م[٤] ، وأرسل في الوقت ذاته مندوبا عنه إلى الخليفة العباسي يعلمه بالخطر الذي يشكله حاكم الموصل الزنكي على الجبهة الإسلامية نظرا لتعاونه مع الصليبيين ، حيث ورد في كتابه إلى الخليفة العباسي ما يلي : " **فإن القوم قد اجترأوا على الإسلام بإسلامه، واجترحوا كسب الذم في فض ذماره، ونقص ذمامه**

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٨ .

(٢) المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٤٩ .

(٣) المصدر نفسه، جـ٢ ، ص٤٩ .

(٤) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٣ ، ص٣٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٨٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١١٩ .

واستنصروا بالنصارى ، وبذلوا لهم البذول منقودة ، وموعودة ، وأخرجوا منها الفرنج إلى ثغور الشام جنودا محشودة ، وهم إلى الآن في حصنهم الذي لا حَظّ لهم فيه إلا عاجل الخسار"[1] .

ومع أن حملته هذه لم تتحقق أهدافها ، واضطر إلى فك الحصار ، فإن ثمة متغيرات جذرية حصلت لصالح صلاح الدين الأيوبي بخصوص موقف الزنكيين منه ، فقدت شهدت السنوات التالية (٥٧٨-٥٨١هـ/١١٨٢-١١٨٥م) ثلاثة أحداث مهمة ، وهي :

أولا : تمكن صلاح الدين الأيوبي من السيطرة على بعض المدن الزنكية المهمة الواقعة بين الموصل ، وحلب ، وهي : سنجار ، ونصيبين ، وحران ، مما عزز موقفه السياسي ، والعسكري [2] .

ثانيا : مع توجه صلاح الدين بقواته لمحاصرة حلب سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، فوجئ بعرض سخي من حاكمها عماد الدين زنكي بن مودود – وهو أخ لعز الدين مسعود صاحب الموصل – ، أن يسلم المدينة له ، مقابل تعويضه عنها بسنجار ، مؤثرا ألا يدخل في أي مواجه عسكرية ، فرحب صلاح الدين بذلك ، وتم توقيع الصلح على أساس العرض المشار إليه في ١٨ صفر ٥٧٩هـ/٢٢ حزيران ١١٨٣م ، وعوض صلاح الدين الأيوبي عماد الدين زنكي بسنجار ، وأضاف إليه بلدانا أخرى وهي : الخابور ، ونصيبين ، والرقة ، وسروج [3] .

---

(١)العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٣ ، ص٤٢ .

(٢) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٣ ، ص٤٢،٥٣،٥٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٢٤ ؛ محمد بن عمر الأيوبي شاهنشاه (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م) ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تح : حسن حبشي ، د.ط ، د.ت ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص١١٢ . سيشار إليه تاليا : ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق .

(٣) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٥ ، ص١١٩ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص١٧١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٤٢ .

ثالثا : على الرغم من أن صلاح الدين الأيوبي فشل في محاولة ثالثة لإخضاع الموصل سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، إلا أن الزنكيين فيها أدركوا أن صلاح الدين الأيوبي أصبح يمسك بقبضة قوية على بلاد الشام ومصر ، فآثروا أن يحذوا حذو الزنكيين في حلب ، فراسلوا صلاح الدين الأيوبي معلنين استعدادهم للصلح ، والاعتراف بسيادته عليهم ، فرحب بذلك ، وتم عقد الصلح معهم في ذي الحجة سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م(١) ، وبذلك عادت وحدة البلاد كما كانت عليه في عهد نور الدين محمود ، ممتدة من ضفاف دجلة في الجزيرة الفراتية ، وحتى ما بعد ضفاف النيل في مصر .

موقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين بعد سنة ٥٧٠-٥٧٢هـ/١١٧٤-١١٧٦م :

إن سياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه الزنكيين بعد سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م ، التي اعتمدت عدم التصادم معهم ، ثم التحول عن ذلك إلى المواجهة العسكرية بين سنتي ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، وحتى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، وما أعقبه من مبادرات زنكية لوضع حد لصراع الطرفين خلال عقد من الزمن -وهو ما أشير إليه آنفا- ، لا يمكن فهمه إلا في ضوء السياسة التي اتبعها صلاح الدين الأيوبي تجاه الصليبيين خلال الحقبة المشار إليها آنفا ، وذلك أن السبب الذي دعا صلاح الدين الأيوبي إلى الالتزام بمعاهدة ٥٧٢هـ/١١٨٢م مع الزنكيين ، هو ذاته الذي دعاه إلى التعامل مع الصليبيين ، ولكن بصيغة مختلفة ، وذلك بتكثيف هجماته عليهم ، بما يشعرهم بقوته ، وبما يمنع ويضعف على الأقل احتمالات تعاونهم وتحالفهم مع الزنكيين ، وبما يحقق وحدة البلاد ، ويستكمل الخطوات اللازمة لعمل كهذا ، ولعل هذا ما يبرر أن جميع الحالات التي اصطدم فيها صلاح الدين مع الصليبيين انتهت إلى عقد صلح لأمد معين .

بدأت خطة صلاح الدين هذه تجاه الصليبيين بعد توقيع معاهدة الصلح مع زنكيي حلب سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م ، حيث هاجم الصليبيين في جمادى

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥١١-٥١٤ .

الأولى من السنة نفسها ، في الجهات الجنوبية من بلاد الشام حتـــى وصـــل إلـــى عسقلان واستولى عليها ، ثم اتجه نحو الرملة ، فباغته الصليبيون عند موقع يدعـــى (تل الصافية) واضطروه إلى التراجع ، والعودة بقواته إلى مصر[(١)] ، وقـــد حـــاول الصليبيون الإفادة من نتائج المعركة المشار إليها ، فقامت القوات الصليبية فـــي شمال بلاد الشام ، فأغاروا على المناطق القريبة من حماة سنة ٥٧٣هـــ/١١٧٧م ، ثم سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م[(٢)] ، كما قاموا في جمادى الآخرة من هذه الســنة ، ببنـاء حصن على نهر الأردن[(٣)] ، وهو الذي عرف بحصن بيت الأحزان [(٤)] .

ومع أن خسارة صلاح الدين هذه تركت أثرا سيئا في نفسه ، إلا أنه أعـد قواته في السنة التالية ، بهدف إجبار الصليبيين على التراجع عما سيطروا عليه مـن المواقع ، فبـدأ بمراقبـــة تحركاتـــهم ، ثـم اصطـدم بـهم فـي المحـرم سـنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ، وهزمهم في موقعـــة مـــرج عيون[(٥)] ، ليتحرك مباشـــرة نحـو الحصن المشار إليه ، ويقوم بتدميره .

لم يشأ صلاح الدين الأيوبي تطوير حروبه هذه إلى ما هو أبعد ، بل آثـر أن يوقع معهم هدنة ، وهم في حالة ضعف ، ودفاع عن أنفسهم ، فقام بتوقيع معاهدة صلح مع مملكة بيت المقدس ســنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، أمـــدها سنتان[(٦)] ، ثم وقع

---

(١) العماد الأصفهاني البرق الشامي ، جـ٣ ، ص٣٦ ؛ Holt. The Age of the Crusades.p56.

(٢) ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق١ ، ص٣٤٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٢٤ .

(٣) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٣ ، ص١٤٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٤٤٥ ؛ الصـوري ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة زكار) ، جـ٢ ، ص١٠١٠ .

(٤) بلـد بين دمشق والساحل ، أقام فيه الصليبيون أحـد الحصـون الهامـة ، ثـم دمـره صـلاح الديـن سـنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٩٠٥ .

(٥) بليدة تقع في سواحل بلاد الشام . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٥ ، ص١٠١ .

(٦) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة زكار) ، جـ٢ ، ص١٠١٦ ؛ عاشور ، الحركة الصليبيـة ، جـ٢ ، ص٧٥٣ .

معاهدة مماثلة مع إمارة طرابلس في السنة التالية أمدها خمس سنوات[1] .

ويلاحظ هنا أن أهداف صلاح الدين الأيوبي وراء تحركاته هذه ، تحوت تحقيق أمرين :

أولا : إضعاف الصليبيين ، وإبقائهم في حالة دفاع عن أنفسهم .

ثانيا : ضمان حيادهم تجاه الصراع ، الذي كان قائما بينه وبين الزنكيين في حلب ، والموصل .

كما يلاحظ أن هذه الخطة تركت أثرها الكبير في إضعاف قدرة الزنكيين ، إذ لم يعد بإمكانهم التعويل على إقامة تحالف مع الصليبيين ، ضد صلاح الدين الأيوبي ، كما فعلوا بين سنتي (٥٧٠-٥٧٢هـ/١١٧٤-١١٧٦م) ، ولعل هذا كان أحد الأسباب وراء اعتراف الزنكيين في حلب ، ثم الموصل ، بسيادة صلاح الدين سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، ثم في الموصل سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م .

تلك هي صورة عن موقف صلاح الدين الأيوبي تجاه المستجدات ، التي أعقبت وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، والتي تمثلت بقيام تحالف زنكي – صليبي ضده ، مما أدخل حركة الجهاد ضد الصليبين ، في مأزق كبير ، حرفها عن مسارها الذي رسمه من قبل كل من : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وهو ما جعل صلاح الدين الأيوبي يخوض حربا ضد الزنكيين ، وضد الصليبيين في آن واحد ، طوال حقبة امتدت بين سنتي (٥٧٠-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م) ، فكيف كان موقف العلماء والأدباء من ذلك ؟

---

(١) الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية(زكار) ، جـ٢ ، ص١٠٢٢ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٧٥٣ .

المبحث الثاني

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل معركة حطين

(٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م)

نظر العلماء والأدباء إلى خطوات صلاح الدين الأيوبي ، خلال الحقبة بين سنتي (٥٦٩-٥٨٢هـ/١١٧٣-١١٨٦م) ، والتي تحرى فيها إفشال ما أشير إليه في المبحث السابق ، من تحالف بقايا الزنكيين في حلب ، والموصل مع الصليبيين ، واستعادة وحدة البلاد ، التي تمزقت بسبب ذلك ، نظرة قامت على مضامين جديدة ، تَعْتَبِرُ خطواته هذه ضرورة لتوفير الظروف الملائمة لتحرير بيت المقدس ، وطرد الصليبيين من بلاد الشام ، فقد شملت تلك المضامين ما يلي :

أولا : التحريض على فتح بيت المقدس ، والسواحل :

ورد لدى عديد من علماء وأدباء هذه الحقبة ، ما يدعو صلاح الدين الأيوبي إلى التفكير في بيت المقدس ، والأجزاء الأخرى التي يحتلها الصليبيون في بلاد الشام ، وكان هذا المعنى هو ما عبر عنه العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ، مع أول خطوة اتخذها صلاح الدين لاستعادة وحدة البلاد سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، بقدومه إلى دمشق ، حيث قال : (١)

أجيرانَ جَيْرون مالي مُجير سوى عطفكُم فاعدلِوا أو فَجورُوا
نهوضاً إلى القدس يَشفي الغليل بفتح الفتوح وما ذا عسيرُ
سل الله تَسهيل صعب الخُطوب فهو على كلِّ شيءٍ قديرُ

---

(١) العماد الأصفهاني ، ديوانه ، ص١٨٥ ؛ خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ؛ جـ١ ، ص١٩ .

وجاء المضمون ذاته عند تهنئته لصلاح الدين الأيوبي بفتح بعلبك سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م حيث قال : (١)

فتملَّ فتْحك واقصد الفتْحَ الذي بحصوله لفُتوحك الإتمام(٢)
دُمْ للعُلى حتى يدومَ نظامُها واسلمْ يعزُّ بنصرك الإسلامُ

وقد عبر الشاعر نفسه ، وهو يشهد سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م ، عن اغتباطه بانتصار صلاح الدين على القوات الزنكية القادمة من الموصل وحلب ، والمتحالفة مع الصليبيين ضده في معركة تل السلطان ، فقال : (٣)

فكأنني بالساحل الأقصى وقد ساحتْ ببحر دَمِ الفِرنجةِ سَاحُهُ
نجُوا البلادَ من البلاءِ بِعَدْلِكم فالظلمُ بادٍ في الجميع صَراحُهُ
واستفتِحوا ما كان من مستغلقٍ منها فربُّكم له فتّاحُهُ

وفي قوله محرضا صلاح الدين بعد عودته إلى مصر سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م على فتح بيت المقدس : (٤)

فسِرْ وافتح القُدْسَ واسْفِكْ به دماءً متى تُجْرِها ينظفِ
واهدِ إلى الاسْبتار البتار وهُدَّ السقوفَ على الأسقفِ
وخلّص من الكُفر تلك البلاد يُخلّصكَ رَبُّك في الموقفِ

---

(١) العماد الأصفهاني ، ديوانه ، ص٣٧٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٠ .

(٢) المقصود بذلك فتح بيت المقدس .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤١ .

(٤) العماد الأصفهاني ، ديوانه ، ص٣٠١ ؛ خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٥٦ .

وقد تردد هذا المضمون على لسان الحكيم أبي الفضل الجلياني الأندلسي[(١)] (ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م) ، المقيم في مصر في قصيدة بعث بها إلى صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، قال فيها : [(٢)]

فيا مَلِكا لم يبق للدِّين غَيرهُ   وَهَتْ عُمُدُ الإسلام فاشدد لها دَعْما
فشؤمُ فريق الشِّرك في الشام طائر   فقصَّ جناحيه بأقصى القوى قَصْمَا
خُصصت بتمكين فَعُمَّ العدا ردَىً   فأنهم ياجوج ، افرغ بهم رَدْمَا
إذا أصفرت من آل الأصفر ساحة المقدس   ضاهت فتح أم القُرَى قِدْمَا
فذا المسجد الأقصى وهمتك العُلى   وعَزْمَتك القُصوى ورَميتُك الصما
فما هو إلا أن تهمَّ وقد أتتْ   فتوحٌ كما فاض الخضَمُّ الذي طمًّا
وإن أتت لمْ تُردِ الفرنجَ بوقعةٍ   فمن ذا الذي يقوى لبُنيانها هدما
وما كل حينٍ تُمْكِنُ المرء فُرصةٌ   ولا كلُّ حالٍ أمكنتْ تقتضي غنْما
وليس كفتح القُدس مُنية قادرٍ   وما أنْ تلقَّاها سوى يوسف جَزما

---

(١) هو عبد المنعم عمر بن حسان الأديب الشاعر ، الجلياني نسبة إلى جليانه الأندلسية من أعمال وادي ياش ، سكن دمشق ، ثم استقر في مصر ، وعاصر صلاح الدين منذ قدومه إليها في ملة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، وهو شاعر متمكن خصص جانبا كبيرا من شعره عن بيت المقدس والتبشير بتحريرها من الصليبيين ، توفي في دمشق سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م . أنظر : موفق الدين بن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تح : نزار رضا ، د.ط ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥م ، ص٦٥٧ . سيشار إليه تاليا : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٤٠٥ .

وجاء هذا المضمون في قصيدة أخرى للجلياني ، قالها بين يدي صلاح الدين سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، صوره فيها ، وقد حقق أمنية المسلمين في طرد الصليبيين من بيت المقدس ، فقال : [1]

اللهُ أكبرُ أرْضُ القُدْسِ قد صَفِرَتْ   من آل الأصفرِ إذ حينٌ بهِ حَانوا
أسباطُ يوسفَ من مِصْرٍ أتَوْا ولهم   من غَيْرِ تيهٍ بهَا سَلوى وأمنَانُ
لهم فِلسْطِينَ إنْ يُخْرَج عُدَاتُهمُ   عنها وإلا عَدَتْ بِيْضٌ وخِرْصانٌ
حتى بَنَيْتَ رِتاجَ القُدسِ مُنْفَرِجاً   ويَصْعَدَ الصَّخْرَةَ الغَرَّا عثمانُ
واستقبل النَّاصرُ المِحْرَابَ يَعْبُدُ مَنْ   قد تَمَّ مِنْ وَعْدِهِ فتحٌ وإمكانُ
وجَازَ بعضُ بَنَيْهِ البَحْرَ تُجْفِلُ مِنْ   غَارَاتِهِ الرُّومُ والصقْلابُ واللاّنُ
ولابن أيوبَ في الإفرنج مَلْحَمَةٌ   دَلَّتْ عليْهَا أسَاطيرٌ وحُسْبَانُ
ومَنْ أحقُّ بِمُلْكِ الأرض من مَلِكٍ   كأنهُ مَلَكٌ في الخَلْقِ حنَّانُ

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٤٠٥ ؛ عبد الجليل حسن عبد المهدي ، ديوان المبشرات والقدسيات ، د.ط ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٩ ، ص١٣٤ . سيشار إليه تاليا : عبد المهدي ، ديوان المبشرات والقدسيات .

وترددت هذه الدعوة أيضا على لسان الفقيه الشاعر ابن الساعاتي[(١)] (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م ، وذلك في قوله :[(٢)]

وافاكَ يوسفُ يا بيت الخليل فلا تيأسْ فإنك فيه صادقُ الأمل

وما السواحلُ إلا كالفرات إذا وافى فإنْ لم تُحِطْ علماً به فسَل

فلا تُضعهُ فما الدين الحنيف على خَلق سواك من الدنيا بمُتَّكل

(١) هو ابن أبي الحسن علي بن محمد بن رستم بن هردوز المعروف بابن الساعاتي ، ويعرف بذلك لأن والده كان مشهورا في معرفة الساعات ، ولد في دمشق سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م ، ونشأ فيها ، ثم سكن مصر وتوفي في القاهرة سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م ودفن بسطح المقطم . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٩٥ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٢٢ ، ص٧-٢٩ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٩ ؛ أحمد بن إبراهيم الحنبلي (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تح : ناظم رشيد ، وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ١٩٧٨ ، ص١٠٣ . سيشار إليه تاليا : الحنبلي ، شفاء القلوب .

ثانيا : التبشير بفتح القدس :

لم تقتصر دعوة العلماء والأدباء على اعتبار توحيد بلاد الشام ، وتأمين وحدة البلاد ، تمهيدا لفتح بيت المقدس ، بل اعتبروا ذلك تبشيرا به ، وهذا واضح في قول القاضي محيي الدين بن الزكي[1] (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م) ، بعد تسلم صلاح الدين حلب من صاحبها عماد الدين زنكي الثاني في ١٨ صفر ٥٧٩هـ/١١٨٣م[2] :

وفتحُكُمْ حَلَباً بالسَّيفِ في صَفَرٍ   مُبَشِّرٌ بفتوحِ القُدْسِ في رَجَبِ

---

(١) هو محيي الدين أبي المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد بن قاسم القرشي المعروف بابن زكي الدين الدمشقي ، ولد سنة ٥٥٠هـ/١١٦٠م في دمشق ، وتولى القضاء فيها وكان قاضي القضاة في الشام ، شهد فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، توفي في مشق سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م ودفن بسفح قاسيون بتربته في الجبل . أنظر : المنذري ، التكملة ، جـ٢ ، ص٣٥٥ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٢٩ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٤ ، ص١٦٩ ؛ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) ، طبقات الشافعية الكبرى ، تح : عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي ، د.ط ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت ، جـ٦ ، ص١٥٧ . سيشار إليه تاليا : السبكي ، طبقات الشافعية ؛ الذهبي ، العبر ، جـ٤ ، ص٣٠٥ . أنظر : أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص١٧ .

(٢) العماد الأصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٥ ، ص١٠٩ .

ثالثا : التنبؤ بفتح بيت المقدس :

أخذ موضوع تحرير بيت المقدس من الصليبيين ، يتحول إلى هاجس يحلم فيه الناس بمنامهم ، ويتوقعه أناس ممن يدعون معرفة بالمستقبل من خلال ما يعرف بأحكام النجوم ، فقد روى أبو شامة في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م ، "حدثني شيخنا أبو الحسن محمد بن السخاوي[1] ، قال : **قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، قال : رأى إنسان كأنّ شخصا ، ذا جهامة ، واقفا على حائط بجامع ، يسمى النسر**" ، وهو يقول : [2]

مَلَكَ الصَّياصي والنَّواصي ناصرٌ   للدين بعد إياسه أن يُنصَرَا

وَسَيَفتحُ البَيْتَ المُقدَّس بَعدما   يُطوَى الطِّرَازُ لهُ ويُقتَلُ قيْصَرَا

وقد عقب أبو شامة على ذلك بقوله : " **وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين ، قال : وقرأت بخط بعض أصحابنا قال : وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م ، فذكر البيتين ، وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة ، وقبل مولد صلاح الدين بسنة ، والمغني بالطراز الأخضر ، بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم ، وغزة وعسقلان ، وعكا ، وصيدا ، وبيروت ، وجبيل ، وغير ذلك ، ولم يبق من الطراز أثناء ذلك سوى صور ؛ بين صيدا ، وعكا . وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه ، فتح هذا الطراز أولا ، ثم فتح بيت المقدس ، وكني بقيصر عن الأبرنس [أي أرناط] الذي قتله صلاح الدين الأيوبي بيده ، لأنه كان من رؤوس الكفر ، وملوكهم ، وغلاتهم في معاداة الإسلام والله أعلم**".[3]

---

(١) هو علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن الأحمد الهمذاني السخاوي ولد سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م ، واشتغل بالعلم ورحل سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م إلى الاسكندرية ، كان إماما مقرءا نحويا أصوليا توفي سنة ٦٤٣هـ/١٠٤٥م ، ودفن بتربته بجبل قاسيون في دمشق . أنظر : أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١٧٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ــ ص٣٤٠ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٣٦٨ .

وذكر ابن أصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٠٦٩م) ، في ترجمته لطبيب من نصارى بيت المقدس هو سليمان بن داود بن المنى بن أبي فانه[١] (٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، "**أنه رأى في أحكام النجوم أن الملك الناصر يفتح البيت المقدس في اليوم الفلاني ، من الشهر الفلاني من السنة الفلانية ، وأنه يدخل إليها من باب الرحمة**[٢] " ، وأرسل ابنه ؛ أبا الخير ليبشر السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بملك بيت المقدس ، وكان ذلك في غرة رمضان سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م[٣] .

ومما يذكر في التنبؤ أيضا أن المنجمين قالوا لصلاح الدين : " **على نجمك أن تدخل بيت المقدس ، وتذهب عين واحدة منك ، فقال : قد رضيت بأن أعمى ، وآخذ البلد**"[٤] .

رابعا : تقييم الدور الجهادي لخطوات صلاح الدين الأيوبي في مواجهة الصليبيين ، والوقوف إلى جانبه في النصر والهزيمة .

ويتضح ذلك في رسالة القاضي الفاضل التي أرسلها إلى صلاح الدين الأيوبي ، إثر هزيمته أمام الصليبيين في موقعة الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م ، يشد بها أزره ، ويدعوه إلى خوض معركة أخرى تتهيأ لها الإمكانات ، حيث قال :

" **ونوبة العدو في الرملة ، فقد كانت عثرة ، علينا ظاهرُها ، وعلى الكفر باطنُها ، ولزمنا ما نسي من اسمها ، ولزمهم ما بقي من عزمها ، ولا دليل أدل على القوة ، المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها ، إلى الشام ،**

---

(١) طبيب نصراني ، كان من أهل القدس ثم انتقل إلى الديار المصرية ، وكان له معرفة بأحكام النجوم .

أنظر : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص٥٨٧ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص٥٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٥٩٠ .

(٤) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص١٢٨ .

نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة ، والحشود الكثـــيرة ، والحريـــم المســـتور ، والمال العظيم الموفور" (١) .

فلما انتصر صلاح الدين على الصليبيين بعد ذلك سنة ٥٧٥هـــ/١١٧٩م في موقعة مرج عيون ، وتمكن من تدمير حصن بيت الأحزان ، الـــذي كـــان الصليبيون قد بنـــوه ، هنـــأه الشـــعراء بذلـــك ، فقـــال ســـبط ابـــن التعـــاويذي(٢) (ت٥٨٣هـ/١١٨٧م) : (٣)

كادَ الأعادِي أنْ يُصيبَكَ كَيْدُها   لو لم تَكِدْكَ برأيِها المأفُون
تُخفِي عَدَاوَتَها وَراءَ بَشَاشَةٍ   فتَشِفُّ عن نَظَرٍ لها مَشْفُون
دَفَنَتْ حَبَائِلَ مَكْرِهَا فَرَدَدْتَها   تَدْوَى بغيظِ صُدُورِها المَدْفُون
وَعَلِمْتَ ما أخفَوا كَأنَّ قُلوبَهُمْ   أفضَتْ إليكَ بسِرِّها المَخْزُون
كَمَنُوا وكَمْ لكَ من كَمِين سَعَادَةٍ   في الغَيْبِ يَظْهَرُ من وَرَاءِ كَمِين
فَهَوَتْ نُجُومُ سُعُودِهِمْ وقَضَى لَهُمْ   بالنَّحْسِ طائِرُهُمْ بِمَرْجِ عُيُون

(١) البنداري ، سنا البرق الشامي ، جـ١ ، ص٢٧٤ .

(٢) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله سبط ابن التعاويذي ، شاعر ، وكاتب ، ولد سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م ، توفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٦٦-٤٧٣ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٤ ، ص١١ .

(٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٣ .

وقال الحسن الجويني[1] (ت٥٨٧هـ/١١٩٠م) : [2]

لك رَبُّ السَّمَاءِ خَيْرُ مُعين وكفيلٍ بما تُحِبُّ ضَمِينُ
فَلَهُ الحَمْدُ أيُّ نَصرٍ عزيزٍ قد حَبَانَا بِهِ وَفَتْحٌ مُبِيْنُ
أدْرَكَ الثَّأرَ حِينَ نَازَلَهُ المِغْــوار حَتْفُ الكُفَّار لَيْثُ العَرِيْنُ
الهُمَامُ الغَضَنْفَرُ المَلِكُ النَّاصر مَوْلى الوَرَى صَلاحُ الدِّين

وقال ابن نفاده الدمشقي[3] (ت٦٠١هـ/١٢٠٤م) منددا بإقدام الصليبيين على بناء حصن بيت الأحزان :[4]

وليكن قد دَنَا حَتْفُها لما عمَّرت بَيْتَ أحْزَانِهَا

---

(١) هو أبو علي الحسن بن يوسف إبراهيم ، الملقب فخر الدين الكتاب ، ولد في جوين من نواحي نيسابور ، بغدادي الأصل ، من ندماء عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي في الشام ، سافر إلى مصر أيام طلائع بن رزيك الوزير الفاطمي ، وتوفي فيها سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ٩ ، ص٤٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٣١ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ١٢ ، ص ١٢٧-١٢٨ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٠ .

(٣) هو أحمد بن عبد الرحمن بن علي ، بدر الدين بن نفاده السلمي الدمشقي ، كان عند صلاح الدين في عداد الأجناد الذين يسمونهم الأمراء ، ولد في دمشق سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م ، توفي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٣٢٩ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٧ ، ص٣٩ .

(٤) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٨ .

وقال ابن الساعاتي في المناسبة ذاتها :[1]

بجدّك أعْطـــافُ القنَا تتَعَطّفُ وطرْفُ الأعادي دونَ مَجْدِكَ يَطْرِفُ
شِهَابُ هُدَىً في ظلمهِ الشّكّ ثاقِبُ وسَيْفٌ إذا ما هَزّهُ اللّه مُرْهَفُ
وَقفْت على حِصْن المخاض وإنّهُ لمَوْقِفُ حقّ لا يُوازيْهِ مَوْقِفُ
فلمْ يَبْدُ وَجْهُ الأرْض بل حَالَ دُونَهُ رجَالٌ كآسادِ الشّرى وهي تزْحَفُ
وجَرْدَاءُ سَلهُوب ودِرْعٌ مُضَاعِفٌ وأبيضُ هِنْديٌّ ولَدْنٌ مُثقفُ
وَمَا رَجَعَتْ أعلامَكَ الصّفر سَاعةً إلى أنْ غَدَتْ أكبادُها السُّود تَرْجُفُ
أيَسْكنُ أوْطـــانَ النّبيِّين عَصْبَةٌ تمينُ لدى أيمانها وهي تَحْلِفُ

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٩ .

المبحث الثالث

موقف صلاح الدين من الصليبيين خلال الحقبة بين معركة حطين وحتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة

(٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م)

تحددت خطوات صلاح الدين الأيوبي في مواجهة الصليبيين وإخراجهم من بلاد الشام – وهو ما اعتبره هدفا مركزيا له – بمدى نجاحه في توفير الظروف المناسبة التي مكنته من ذلك ، لذا فإنه – وكما أشير إلى ذلك سابقا – اعتمد سياسة تحرى فيها إشعار الصليبيين بقوته ، من خلال ما وجهه إليهم من ضربات عسكرية ، وإفشال محاولتهم للاستفادة من الصراع الزنكي-الأيوبي ، وتكوين تحالفات ضده ، دون أن يسعى إلى تطوير المواجهات العسكرية المشار إليها ، إلى حرب شاملة ، غير أن هذه السياسة أخذت اتجاها آخر ، إثر نجاح صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، في إعادة توحيد البلاد ، بالصيغة التي كانت عليها ، في عهد نور الدين محمود ، والذي كان يعني ولادة قيادة سياسية ، عسكرية تحت إمرته تشمل جميع القوى الإسلامية الممتدة من ضفاف دجلة ، في الجزيرة الفراتية ، وحتى ضفاف النيل ، في مصر ، والتي تعني كذلك تطويقا كليا للكيانات السياسية الصليبية في بلاد الشام ، من ناحية البحر ، إضافة إلى تنامي الوجود الأيوبي في البحر المتوسط ، بفضل الاهتمام الخاص الذي أعطي له من قبل صلاح الدين الأيوبي ، مما جعل الكيانات المشار إليها تواجه ضغطا أيوبيا في البحر المتوسط[1] .

---

(١) أحمد الشامي ، صلاح الدين والصليبيون ، تاريخ الدولة الأيوبية ، ط١ ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩١ ، ص٦٩ . سيشار إليه تاليا : الشامي ، صلاح الدين والصليبيون .

يتضح مما أشير إليه أعلاه ، أن الموقف الأيوبي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، شكل حالة مواتية مكنت الأيوبيين من الخروج من إطار سياستهم السابقة ، إلى إطار سياسة جديدة تعتمد مواجهة شاملة ، وحاسمة مع الصليبيين ، غير أن صلاح الدين لم يتخذ أية خطوة في هذا الاتجاه ، بحكم كونه مرتبطا بهدنة معهم تنتهي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، وهي المعاهدة التي سبق له أن وقعها سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، مع مملكة بيت المقدس ، ومدتها أربع سنوات ، تبدأ من تاريخ إبرامها[1] ، فأخذ صلاح الدين ينتظر الفرصة ليتزود بذريعة مناسبة للدخول في مواجهة عسكرية حاسمة مع الصليبيين .

ويبدو أن قيام حاكم بارونية الكرك رينالد دي شاتيون (Reanuld de chatilion) بنقض الهدنة المشار إليها سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، كان هو ما أعفى صلاح الدين من أية التزامات بموجب المعاهدة المشار إليها .

قام رينالد دي شاتيون سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، بمهاجمة قافلة تجارية للمسلمين ، قادمة من القاهرة ، فسيطر عليها ، وقتل الجنود الذين كانوا يرافقونها لحمايتها ، وأسر التجار ، وعائلاتهم ، وصادر ما فيها من أموال ، وُصِفَتْ بأنها أكبر من أية غنائم حصل عليها من قبل[2] .

---

(١) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، د.ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢ ، ص٥٠ . سيشار إليه تاليا : عاشور ، مصر والشام .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٢٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٩٤ ، Grossest, Histoire des Crosiades, T,II.p703.

ولكي يؤكد صلاح الدين الأيوبي التزامه بالعهود المشار إليها ، أرسل إلى رينالد دي شاتيون يطلب منه إطلاق سراح الأسرى ، فرفض الاستجابة إلى ذلك ، وقال لأسراه :" **قولوا لمحمد يخلصكم** " ، كما قام صلاح الدين الأيوبي بمخاطبة الصليبيين في مملكة بيت المقدس طالبا منهم ، بحكم المعاهدة المعقودة بين الطريفين أن يقنعوا حاكم الكرك بإرجاع الأسرى والأموال التي استولى عليها ، غير أن الأخير رفض ذلك[١] فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ، إن ظفر به[٢] ؛ وقرر – بعد أن نكث الصليبيون – أن يرد عليهم في شن حرب شاملة فأعلن التعبئة العامة التي استجابت لها القوى الإسلامية ، حيث التحقت به قوات الموصل ، وحلب ، وديار الجزيرة ، واربل ، ومصر ، وسائر بلاد الشام من أجل الجهاد[٣] ، وكان صلاح الدين في دمشق ، فخرج هو بنفسه على رأس قوة كبيرة لحماية قافلة الحجاج كانت عائدة من بلاد الحجاز ، وذلك في المحرم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وترك ابنه الأفضل على رأس الماء في حوران ؛ القريبة من دمشق لتتجمع القوات عنده ، وقامت القوات المصرية التي وصلت للانضمام إلى صلاح الدين ، بالإغارة على أملاك الصليبيين في الكرك ، والشوبك[٤] ، ثم عاد صلاح الدين وانضم إلى القوات الإسلامية في حوران[٥] وخرج

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٩٤ ؛ Grossest Histoire des Crousiades, T.II,p.703.

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٢٧٦ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٣٢٤ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٢٧٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٨٧ ؛ Grossest, Histoire des Crousiades, T.II,p.703.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٨٦-١٨٧ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٣٠-٥٣١ .

بتلك القوات يوم الجمعة ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، ونزل بثغر الأقحوان ، وأحاطت عساكره ببحيرة طبرية[١] ، فزحف عليها بمجموعة من جنده وفتحها عنوة ، وفي معركة ضد فرسان الداوية[٢] (Templars) والاسبتارية[٣] (Hospitallers) ، عند صفورية ، انتصر الأيوبيون فيها على القوات الصليبية المحتشدة هناك .

كان هدف صلاح الدين الأيوبي هو أن تصل أخبار انتصاراته في طبرية وغيرها إلى الصليبيين المجتمعين في صفورية ، فيضطروا بعدها إلى السير إليه ، في أجواء الحر التي كانت سائدة آنذاك ، ويقطعوا مسافة طويلة فتتمكن القوات الإسلامية من هزيمتهم[٤] ، وهذا ما حصل فقد خرج الصليبيون يوم الجمعة ٢٤ ربيع الثاني ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٥] ، نحو موقع حطين القريب من طبرية ، فاصطدمت بهم القوات الأيوبية وتمكنت من

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٧٥-٧٦ .

(٢) طائفة من فرسان الفرنج حبسوا أنفسهم لقتال المسلمين ، وقد أطلق المسلمون هذا الاسم على فرسان المعبد (Templars) وهم الجماعة التى أسسها (Hugue de paynes) سنة ٥١٣هـ/١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا والقدس ، ثم أصبحت هيئة دينية حربية لها شأنها في تاريخ الحروب الصليبية . أنظر: عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٤٨٧ ؛

Henry treece, The Crusades, London 1962 , p.p.172-174. Subsequently cited as : Treece, The Crusades.

(٣) جماعة من فرسان الفرنج ، تأسست بعد استيلاءهم على بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م ، وكان هدفها الأول علاج المرضى ، وإيواء الحجاج .ومساعدتهم . أنظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٤٨٦ ؛

Treece The Crusades,. p171-182 .

(٤) الشامي ، صلاح الدين والصليبيون ، ص١٢٤ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٣٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص١٨٩ .

تحقيق انتــصار حاسم على الصليبيين فـــي معركـــة حطيـــن التـــي وقعــت ســنة ٥٨٣هـــ/١١٨٧م ، ووقع ملك بيـــت المقـــدس جـــاي دي لوزينيـــــان (Guy de lusignan) ، (٥٨٣-٥٨٨هـ/١١٨٧-١١٩٢م) في الأسر ، و رينالد دي شـــاتيون حاكم الكرك ، ومجموعة من الاستبارية ، والداوية [١] .

استمر نشاط صلاح الدين الأيوبـــي ضـــد الصليبييـــن ، ضمـــن خطـــة عسكـــرية تحرت توجيه القوات الأيوبية نحـــو المـــدن الســـاحلية التـــي يحتلـــها الصليبيون ، تحقيقا للأهداف التالية :

أولا : قطع الطريق على الصليبيين في أوروبا ، ومنعـــهم مـــن تقديـــم الدعـــم للصليبين في الشرق .

ثانيا : فتح الطريق أمام القوات الأيوبية في مصر ، لضــــرب أيـــة تحركـــات أوروبية وللإسهام بالضغط على الصليبيين ، واسترجاع البلاد منهم .

ثالثا : استكمال تطويق الكيانات الصليبية ، في مملكة بيت المقدس ، وأنطاكيـــة ، وطرابلس عن طريق البحر ، بعد أن تم تطويقها عن طريق البر .

رابعا : في حالة استكمال الخطوات أعلاه ، تتجه القوات العسكرية الأيوبية نحـــو بيت المقدس ، والمدن الداخلية في مملكة بيـــت المقـــدس ، والإمـــارات الصليبية لتصفية الحكم الصليبي فيها .

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـــ١١ ، ص٥٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـــ٢ ، ص١٩٤ ؛

A.J.Kerr, The Crusades, London 1966, P49. Subsequently Cited as : Kerr, The Crusades

على الصعيد التطبيقي حققت هذه الخطة أهدافها إلى حد كـبير ، فقد تـم تحرير عكا[١] ، وقيسارية ، ونابلس[٢] ، ويافا[٣] ، وصيدا[٤] ، وحيفـا ، وتبنيـن ، وبيروت[٥] ، وجبيل[٦] ، وعسقلان[٧] .

---

(١) اتجه صلاح الدين إلى عكا لتحقيق اتصال بحري بين مصر وبلاد الشام ودخلها بعد أن سلم جوسـلين الثـالث حاكمها مفتاح المدينة ، بعد أن أمنهم صلاح الدين على أرواحهم ، وأنفسهم ، وممتلكاتهم ، وفوض صلاح الدين الأيوبي أمر المدينة إلى ولده الأفضل نور الدين علي . أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٠١ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٨١٢-٨١٣ ؛

Stevenson, The Crusades in the East, p.204

(٢) فتح صلاح الدين نابلس بالأمان . أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٠٤ .

(٣) هاجم العادل يافا ، وبعد مقاومة ، سقطت بيده ، أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٠٤ .

(٤) دخلت صيدا تحت سيطرة صلاح الدين ، بعد أن استسلمت دون مقاومة . أنظر : ابن واصل ، مفرج الكـروب ، جـ٢ ، ص٢٠٦ .

(٥) حاصر صلاح الدين بيروت لمدة ثمانية أيام ، وتسلمها بعد أن أمن أهلها ، على أنفسهم وأموالهم . أنظر : ابـن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٤٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٠٦ .

(٦) تسلم صلاح الدين جبيل ، مقابل إطلاق سراح صاحبها ؛ أوك الصليبي . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٤٢ .

(٧) حاصر صلاح الدين عسقلان ، وظل أهلها من الصليبيين يقاومون حتى نفدت إمكانياتهم ، ودخلها بعـد أن أمّـنَ أهلها من الصليبيين بناء على طلبهم . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٤٢ .

بهذا يكون الساحل قد دخل تحت سيطرة صلاح الدين من بيروت إلى يافا باستثناء صور ، التي لم يتمكن من فتحها ، لأن القوات الصليبية التي فرت من معركة حطين التجأت إليها[1] ، وهذا جعل صلاح الدين يؤجل قضية تحريرها ، ويتجه نحو بيت المقدس حيث تم له تحقيق نصر كبير ، فقد استسلمت المدينة المقدسة وتسلمها صلاح الدين بالأمان في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/٢تشرين الأول ١١٨٧م[2] ، بعد حصار بدأ في ١٥رجب٥٨٣هـ/١١٨٧م ، فدخل المدينة ، وأزال ما أحدثه الصليبيون فيها من مبان ، وأقيمت أول صلاة للجمعة في ٤ شعبان ٥٨٣هـ/٩ تشرين الأول ١١٨٧م في المسجد الأقصى في أعقاب احتلال دام تسعة عقود (٤٩٢-٥٨٣هـ/١٠٩٨-١١٨٧م) وقد ألقاها بتكليف من صلاح الدين الأيوبي القاضي محي الدين بن زكي الدين القرشي (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م)[3] .

توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى إمارة أنطاكية ، وتمكن من تقليص نفوذها ، إذ لم يبق منها سوى مدينة أنطاكية ، وميناء السويداء ، وحصن المرقب[4]

---

(١) Kerr, <u>The Crusades</u>, p.49 ; Stevenson, <u>The Crusades in the East</u>, p.p.224-225.

(٢) رفض صلاح الدين الأيوبي منح الصليبيين الأمان ، ولكن بعد أن رأى مقاومتهم استشار رجاله ، فأشاروا عليه بإجابتهم . فعقد معهم صلحا على أن يفتدي الرجل نفسه مقابل عشرة دنانير ، والمرأة مقابل خمسة دنانير ، والطفل من الإناث والذكور مقابل دينارين ، وكانت المدة التي أعطاها لهم أربعين يوما فمن أدى الضريبة نجا ، ومن لم يؤدها صار مملوكا . أنظر : العماد الأصفهاني ، <u>الفتح القسي</u> ، ص١٢٣ ؛ ابن الأثير ، <u>الكامل</u> ، جـ١١ ، ص٥٤٨ ؛ ابن شداد ، <u>النوادر السلطانية</u> ، ص٩٢ ؛ أبو شامة ، <u>كتاب الروضتين</u> ، جـ ؛ ابن واصل ، <u>مفرج الكروب</u> ، جـ٢ ، ص٢١٨ .

(٣) أبو شامة ، <u>كتاب الروضتين</u> ، جـ٣ ، ص٢٧٦ ؛ ابن واصل ، <u>مفرج الكروب</u> ، جـ٢ ، ص٢١٨ .

(٤) ابن الأثير ، <u>الكامل</u> ، جـ١٢ ، ص٦ ؛ عاشور ، <u>مصر والشام</u> ، ص٧٥ .

ثم اتجه إلى طرابلس ، وتمكن كذلك من تقليص نفوذها ، فلم يبق منها سوى مدينة طرابلس ، وطرطوس ، وحصن الأكراد[1] ، أما صور فقد حاول تحريرها في شوال سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[2] ، مما جعله يغير خط سيره حيث توجه شمالا إلى أنطرسوس ، وجبلة ، وبيروت ، وأزاح الصليبيين عنها ثم قام في السنة التالية بإخضاع الصليبيين في الكرك ، وهونين ، والشوبك ، والوعر ، والسلع ، وصفد ، ودربساك[3] .

لقد كان لهذه الانتصارات التي حققها صلاح الدين بين سنتي (٥٨٣-٥٨٥هـ/١١٨٧-١١٨٩م) ، صداها الواسع بين المسلمين ، كما أن تحرير القدس كان أمنية جمهور المسلمين ، وفي مقدمتهم العلماء ، والأدباء ، فهم من حمل راية النقد ، واللوم ، والاعتراض ، على الحكام المسلمين في الحقبة التي سبقت قيام الأتابكية الزنكية ، كما وضح في المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذه الدراسة ، وهم من ساند عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين محمود في كل خطواتهم في هذا الاتجاه ، كما أشير في المبحث الرابع من الفصل الثاني ، وهم من أسند صلاح الدين طوال أحد عشر عاما (٥٧٠-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م) في محاولته لاستعادة وحدة البلاد، بل واعتبروا خطواته تلك تمهيدا ضروريا لتحرير بلاد الشام ، واستعادة بيت

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٧-٨ ؛ عاشور ، مصر والشام ، ص٧٥ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٥٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١١ ، ص٥٥٦ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٨١١ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٦٠-٢٧٥ .

المقدس كما أشير إليه في المبحث الثاني من الفصل الثالث ، فما هو موقفهم خـــلال الحقبة التي تم فيها تحقيق الجزء الأكبر من ذلك الهدف ؟

هذا ما ستعالجه الدراسة في المبحث التالي :

الشـيرازي[1] (ت٦٣٤هـــ/١٢٣٦م) ، والفقيــه موفــق الديــن الجمــــاعيلي[2] (ت٦٠٧هـــ/١٢١٠م) ، والقــاضي شــرف الديــن بــــن أبــــي عصــــرون (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م)[3] .

ثانيا : المشاركة في رسم السياسة العليا للدولة في مواجهة الصليبيين :

لم يكن صلاح الدين الأيوبي هو وحده من استقطب عددا مـــن العلمــاء والأدباء ، لكي يساهموا إلى جواره في إدارة دولته ، وبخاصة في ما يخص سياستها تجاه الصليبيين ، بل أن هذه الشريحة من المجتمع والتي كانت أول مـــن نبــه إلــى مخاطر الغزو الصليبي ، كما سبقت الإشارة إليه ، وجدت في صلاح الدين الأيوبـــي الشخصية التي حققت أحلامها فالتفت حوله ، وسعت إليه ، لذا فإن علاقته بها كــانت علاقة التزام بقضية واحدة ، كما أن علاقتهم به كانت في ذات الإطـــار تســتند إلــى احترامهم له بسبب التزامه بالقضية التي آمنوا بها ، وهي تحرير البلاد ، وإنقاذها مـــن سيطرة الصليبيين ، ومن أبرز أولئك ، القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) ، الــذي اتصل بصلاح الدين الأيوبي بعد توليــه الــوزارة ســنة ٥٦٤هـ/١١٧٨م ، ففــوض إليه ديوان الإنشاء ، وصار لسان صلاح الدين إلى الخلــفاء ، والملوك ، والأمراء ،

---

(١) هو عبدالرحمن بن نجم بن عبدالوهاب بن عبدالواحد الأنصاري ، الشيرازي ، الدمشقي الأصل ، واعــظ وفقيــه ولد سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م في دمشق ، توفي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م . أنظر : ابن رجب ، الذيل على طبقــات الحنابلة ، جـ٢ ، ص١٩٣ .

(٢) هو محمد بن أحمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ، الدمشقي ، من قرية جماعيل ، قــرب نــابلس ، عــاش بالقدس ، وخرج منها سنة ٥٥١هـ/١١٥٥م ، وتوفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م . أنظر : ابن رجب ، الذيــل على طبقات الحنابلة ، جـ٢ ، ص٥٦ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق١ ، ص٣٩٤ .

المبحث الرابع

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين خلال الحقبة بين معركة حطين وحتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م)

اتسم موقف العلماء والأدباء إبان المرحلة التي ابتدأت بمعركة حطين ، وتحرير معظم الساحل ، ثم فتح بيت المقدس ، وحتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م) ، بظهور مضامين جديدة تتناسب مع طبيعة النصر الذي أصبح واقعا ، بعد أن كان حلما يدعون إلى تحقيقه ، ويحفزون الهمم من أجله ، ويمكن أن تحصر هذه المضامين بما يلي :

أولا : المشاركة الفعلية في القتال :

شارك مجموعة من العلماء والأدباء في فتح بيت المقدس ، والسواحل ، كما أشار إليه ابن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) في قوله : " **كان فتوحا عظيما ، شهده من أهل العلم خلق عظيم** " [(١)] ، ومن الذين أشارت المصادر إلى مشاركتهم أيضا ، الشيخ أبو العباس المقدسي[(٢)] (ت٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، الذي استشهد أثناء القتال ، والفقيه الشيخ الصالح أبو عمرو المقدسي[(٣)] ، الذي لم يكن ينقطع عن غزاة ، إلا وخرج فيها مع صلاح الدين لقتال الصليبيين ، كما شارك أيضا الفقيه ناصح الدين

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٨٢ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص١٢٩ .

(٢) مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م) ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، د.ط ، مكتبة المحتسب ، عمان ١٩٧٣م ، جـ٢ ، ص١٤٤ . سيشار إليه تاليا : الحنبلي ، الأنس الجليل .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٠ .

وأصبحت له المكانة العليا في دولة صلاح الدين الأيوبي ، حتى أنه كان يرجع إلـــى قوله ، ويستشيره إذا سافر إلى الغزو ، ويكتب إليه بخطه طالبا منه رأيه . وقد شــارك القاضي الفاضل صلاح الدين في غزواتـــه فـــي بـــلاد الشـــام بيـــن ســنتي (٥٨٥-٥٨٦هـ/١١٨٩-١١٩٠م)(١) ، أما بعد ذلك فقد أقام مشرفا على تجـــهيز الجيـــش ، والأسطول ، حتى وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م .

ومن الذين تأثر بهم صلاح الدين الأيوبي ، الفقيه ضيـــاء الديـــن عيســى الهكاري ، فقد أخذ برأيه عند حصاره لمدينة صور ، عندما أشـــار عليـــه بضــرورة مواصلة الحصار للمدينة ، حتى لا يضيع ما تحقق للمسلمين ، من إنجازات بعد معركة حطين، في الوقت الذي كانت غالبية الآراء تميل إلى التخلي عن الحصار(٢) ، وقد كان لآراء القاضي منصور بن نبيل دور في إنجاز صلاح الدين لتحرير مـــدن جبلـــة ، طـــرطوس ، واللاذقية ، والمرقب ، حيث قام بدور الوسيط بيـــن صـــلاح الديـــن الأيوبي ، وبين الصليبيين ، بحكم معايشته لهم ، ففاوضهم سنة ٥٨٤هـــ/١١٨٨م ، نيابة عنه (٣) .

---

(١) للمزيد حول دور القاضي الفاضل أنظر : هادية دجاني شكيل ، القاضي الفـــاضل عبدالرحيـم البيســاني العسقلاني (٥٢٦-٥٩٦هـ/١١٣١-١١٩٠م) ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته ، بـــيروت ١٩٩٣م .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٢ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٥٦ .

ثالثا : الدعوة إلى استغلال النصر الذي حققه صلاح الدين بفتح ما تبقى من مدن وقلاع بيد الصليبيين .

تأثر العلماء والأدباء ، بالنصر الذي حققه صلاح الدين الأيوبي ، في تحرير عدد من المدن والقلاع الصليبية ، كان لذلك مدعاة للإشادة بعمله هذا ، والدعوة إلى الاستفادة من هذا النصر ، بالتوجه لتحرير مدن وقلاع أخرى .

ويتضح هذا في قول العماد الأصفهاني يحرض صلاح الدين على تخليص السواحل الشامية ما بين صور ، وانطرسوس ، وأنطاكية ، من الوجود الصليبي :(١)

قُلْ للمليك صلاح الدِّين أكْرَمْ مَنْ يمشي على الأرْض أو من يَرْكَبُ الفَرَسَا
من بَعْدِ فَتْحِكَ بيتَ القُدْس ليس سوى صُور فإنْ فُتِحَتْ فاقصِد طرابُلُسا
أثِرْ على أنطرسوسَ ذا لجَبٍ وابعثْ إلى ليل أنطاكية العَسَا
وأخْلِ ساحِلَ هذا الشَّام أجْمَعَهُ من العُدَاة ومَنْ في دينه وكَسَا

وفي قول ابن الساعاتي محرضا صلاح الدين على استعادة مدن السواحل : (٢)

فألْمِمْ بالسَّواحِلِ فهي صورٌ إليك وألْحِقْ إلهامَ المُتُونا
فقلْبُ القُدْس مسرورٌ ولولا سُطاك لكان مُكتَئبا حزينا

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٦٣ .

(٢) علي بن رستم بن الساعاتي (ت٦٠٤هـ/١٢٠٧م) ، ديوان ابن الساعاتي ، تح : أنيس المقدسي ، ط١ ، المطبعة الأمريكية ، بيروت ١٩٣٨م ، جـ١ ، ص٧١ . سيشار إليه تاليا : ابن الساعاتي ، ديوانه ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٠٦ .

وفي قول فتيان الشاغوري[1](ت٦١٥-١٢١٧م) / محرضا صلاح الدين على أخذ صور :[2]

هل تُعْجِزنْ صورٌ مليكا ناصراً لله أينَ يَسرْ يُسَرَّ ويُنْصر
ما سور صور عاصمٌ. منه وهل سورُ المعاصم عاصمُ لمسُوَّرِ
فانهدْ لصور فهي أحسنُ صورةٍ في هيكل الدنيا بدتْ لمُصَوِّرِ

وجاء في الخطبة التي ألقاها القاضي محي الدين بن الزكي في الجمعة الثانية التي تلت فتح بيت المقدس[3] ، دعوته لضرورة الاستمرار في الجهاد حيث قال :[4]

"...، والجهاد ، الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، انصروا الله يَنْصُرْكُمْ ، اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جِدُّوا في حسم الدَّاء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجْتَثُّوا أصُوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والمِلَّة المحمدية ".

---

(١) هو فتيان بن علي بن فتيان بن ثمال الأسدي المعروف بالشاغوري ، نسبة إلى الشاغور ؛ من أحياء دمشق ، ولد سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م في بانياس ، توفى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، ودفن مقابر الباب الصغير . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٤٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٤ .

(٢) فتيان بن علي الشاغوري (ت٦١٥هـ/١٢١٨م) ، ديوان فتيان الشاغوري ، تح : أحمد الجندي ، ط١ ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٧م ، ص١٤٠ . سيشار إليه تاليا : الشاغوري ، ديوانه .

(٣) أنظر نص الخطبة في الملحق رقم (١) من هذه الدراسة .

(٤) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٨٩ .

دعا القاضي ابن الزكي في الخطبة نفسها إلى فتح ما تبقى من الأراضي المقدسة في يد الصليبيين حيث قال: (١)

"...، واعلموا – رحمكم الله – أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فاخرجوا لها هممكم وبرّزوها ، وسيّروا إليها سرايا عزماتكم وجهّزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، قد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم ، أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون " .

رابعا : قيام العلماء والأدباء بحركة نشطة لسد الفراغ الثقافي والديني ، الناجم عن حقبة السيطرة الصليبية :

يفهم مما جاء في رسالة العماد الأصفهاني التي وجهها إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٦-٦٢٠هـ/١١٨٠-١٢٢٣م)(٢) ، أن حركة نشطة ، بدأت مع تحرير بيت المقدس ، والمدن الأخرى ، استهدفت سد الفراغ الثقافي ، والديني ، ولعل خير ما يعبر عند الصورة التي أصبح عليها الوضع فيها ، هو ما أورده الأصفهاني عن ذلك نصاً حيث قال: (٣)

"...، وتُلي التنزيل وحُقّ الحق ، وبَطَلتْ الأباطيل ، وتولى الفرقان ، وصُفّت السجادات ، وصَفّت العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأعليت السرايات ، ونطق الأذان ، ... ، وعاد الإيمان الغريب إلى وطنه ... ، وورد القراء وقرأوا الأوراد ، واجتمع الزهاد والعباد ، والأبدال ، والأوتاد ، ... ، وأملى الحفاظ ، وأبلى الوعاظ ، وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء ، وتحدث الرواة ، وروى المُحَدِّثون...، ولخَّصَ المفسرون ...، وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترسمون للخطابة ، والمتوشحون بالإصابة ، المعروفون بالفصاحة" .

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٩٠ .

(٢) أ نظر نص الرسالة في الملحق رقم (٣) من هذه الدراسة .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٣٨ .

إن ما أورده العماد الأصفهاني يوضح أن الشعائر الدينية عادت ، كما كانت عليه قبل الغزو الصليبي ، وأن المسجد الأقصى استعاد دوره العلمي والديني ، وهو ما تزامن مع إنشاء مدارس ، وزوايا ، وخوانق ، وربط ، كان لها دورها الفاعل في انتعاش الحركة العلمية[١] .

ويتأكد حديث العماد الأصفهاني هذا ، بما ذكره عبداللطيف البغدادي (٦٢٩هـ/١٢٣١م) ، في كتابه ، الإفادة والاعتبار ، الذي صور فيه بعض معالم الحياة الفكرية في بيت المقدس عندما قدم إليها سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ؛ أي بعد سنة من تحريرها ، حيث شاهد مع أول ليلة له في بيت المقدس ، مجلسا حافلا بأهل العلم ، وأصحابه "**يتذاكرون في أصناف العلوم**"[٢] ، مما يدل على وجود النشاط ثقافي ، وديني في بيت المقدس ، كما أن مشاركة السلطان للعلماء والأدباء في هذا المجال كان له دلالته [٣] .

---

(١) عبدالجليل حسن عبد المهدي ، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ط١ ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ١٩٨٠ ، ص٤٩-٥٠ . سيشار إليه تاليا : عبدالمهدي ، الحركة الفكرية .

(٢) عبداللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م) ، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تح : علي مسحن مال الله ، د.ط ، دار الحكمة ، بغداد ، ١٩٨٧م ، ص٢٥ . سيشار إليه تاليا : البغدادي ، الإفادة والاعتبار .

(٣) البغدادي ، الإفادة والاعتبار ، ص٢٥ ؛ عبد المهدي ، الحركة الفكرية ، ص٥٠ .

وقد أشارت بعض الدراسات الحديثة إلى أن مدارس بيت المقدس ، كانت نشطة ي هذه الحقبة حيث درست فيها العلوم الدينية ، وعلوم اللغة العربية ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والعلوم العقلية ، التي ساهم فيها ، عدد كبير من العلماء والأدباء ، ممن كان لهم نشاط واسع في التصنيف في مختلف العلوم ، والآداب[١] .

وقد صور العماد الأصفهاني ، هذا النشاط ، بصورة دقيقة ، توحي بأنه كان نشاطا دائبا حيث قال :[٢]

"...، **فما ترى إلا قارئا باللسان الفصيح ، وراويا للكتاب الصحيح ، ومتكلما في مسألة ، ومفصحا عن مشكلة ، وموردا لحديث نبوي ، وذاكرا لحكم مذهبي ، وسائلا عن لفظ لغوي ، ومعنى نحوي ، أو مقرضا بقريض ، أو معرضا بتصريح ، أو مصرحا بتعريض ، أو ناشدا بنشيد ، أو مسمعا بتغريب وتغريد**" . وهو ما جعل العماد نفسه ، يتوجه لله بالشكر فيقول : "**والحمد لله ، الذي تسنى بفضله هذا المطلب**[٣] " .

ولا بد من الإشارة هنا ، من أن هذا النوع من النشاط الثقافي والعلمي والديني ، الذي بدا نشطا ، ومتسعا ، ما كان ليكون كذلك ، لولا أنه جاء محاولة لسد الفراغ العلمي والديني ، الذي نجم جراء حقبة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس قرابة تسعة عقود .

---

(١) عبدالجليل عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، (٤٩٢-٦٤٨هـ) ، د.ط ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٨٨م ، ص٩٧-٩٨ . سيشار إليه تاليا : عبد المهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية .

(٢) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص١٤١ .

خامسا : اعتبار استرداد صلاح الدين الأيوبي للبلاد من أيدي الصليبيين ، استعادة لتراث الأمة وماضيها .

وقد عبر عن هذا المعنى القاضي الفاضل ، ضمن الرسالة التي كتبها عن فتح بيت المقدس(١) ، وبعث بها إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، حيث جاء فيها قوله : (٢)

"...، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائي طارقا ، واستقرت على الأعلا أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قُبلهُم ، وشفيت بها ، وإن كانت صخرة قلوبهم كما تُشفى بالماء غُللهُم ".

سادسا : رصد ما قام به صلاح الدين الأيوبي تجاه الصليبيين في معركة حطين ، وتصوير الانهيار في الجيش الصليبي .

ويمكن تلمس ذلك لدى مجموعة من العلماء والأدباء ، ومنهم القاضي الفاضل ، في رسالته إلى الخليفة العباسي ، بعد الفتح ، حيث قال: (٣)

"...، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وحل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاناته ، وكانت الأكثر عددا وحصى ، وتلت حملاته وعثرت قدمه ، وكانت الأرض له حليفة ، وغصت عينه ، وكانت عيون السيوف دونها كسيفه ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون" .

---

(١) أنظر نص الرسالة في الملحق رقم (٢) من هذه الدراسة .

(٢) موفق الدين ابن الديباجي (ت٦٣٥هـ/١٢٣٧م) ، رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل ، تح : محمد نغش ، ط١ ، د.ن ، القاهرة ١٩٨٤م ، ص١٦٨-١٦٩ . سيشار إليه تاليا : ابن الديباجي ، رسائل الحرب والسلام ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص٤٩١ .

(٣) ابن الديباجي ،رسائل الحرب والسلام ، ص١٧٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٣٨ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص٥٩٨ .

ورصد العماد الأصفهاني ما آل إليه حال الصليبيون ، بعد مواجهة صلاح الدين وقواته لهم ، في حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، من يوم الخميس الثالث والعشرون من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة حيث قال: (١)

"...، وتلك سبع ليالي وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، ورايتها إلى الإسلام ضاحكة ، كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الأول فنجت طبرية وفاض ريُّ النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرها الفرنج فقضت تحت بحيرتها ، وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله الأعداء وبأيدي أوليائه أخذ القوى وهي ظالمة ،..." .

وفي قول العماد الأصفهاني أيضا :(٢)

سَحَبْتَ على الأرْدُنّ رُدْنًا من القنا رُدَيْنِيَّة مُلْدًا وخَطِيَّة مَلْسَا
حَطَطّتَ على حِطّينَ قدْر رَمُلوكِهِمْ ولم تُبْقِ من أجناس كُفْرِهِمْ جِنسا
تُقادُ بِدأماءِ الدِّمَاءِ ملوكُهُمْ أسارى كُسُفْن أليمٍّ نُطّتْ بها القَلْسا
سبايَا بلادُ اللّه مملُوءةٌ بها وقد شُرِيَتْ بَخْساً وقد عُرِضَتْ نَخْسا
يُطافُ بها الأسواقَ لا راغبٌ لها لِكَثْرَتِهَا كم كَثْرَةٍ تُوجِبُ الوَكْسا
وقد طابَ ريَّانا على طَبَرِيَّةٍ فيا طيبَها ريا ويا حُسْنُها مَرْسَى

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١١٨-١١٩ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين، جـ٣ ، ص٣٠٢ .

أما أبو الفضل الجلياني (ت٦٠٣هـ/١٢٠٧م) ، فقد سجل الحالة النفسية التي كان عليها الصليبيون الذين تم أسرهم في موقعة حطين وهم : ملك بيت المقدس جاي دي لوزينيان ، وأمير بارونية الكرك ؛ رينالد دي شاتيون ، وفرسان الداوية ، والاسبتارية ، حيث قال :[1]

وَوقعةِ يوم التـل إذا قُبضَـت بـه ... جبابرة الإفرنج حَيْرَى وشُرَّدا

عليـهم من البَلْـوَى سُـرَادِقُ ذِلَّةٍ ... ومن ذلَّ ماتَتْ نَفْسُـهُ فتقيَّدا

ترى المِنْسَر الديِّـويّ يُلقَى سَـلاحُهُ ... وينساقُ ما بين السَّـبايا مُلَهَّدا

يُبَاعُـون أسـراباً شـرائح أحْبُلٍ ... كَشكَّةِ عصفورٍ من الرِّيش جُرِّدا

فتَلقَى نصارى جِـلَّقٍ في مـآتمٍ ... يُسِـرُّونها إلا شجيً وتَنَهُّدا

ألم تَـرَ للُسلطان صِـدّق نَـذْرُهُ ... دمَ الغادر الإبرنس فاقتَيدَ أرْبَدَا

وباشَـرَهُ بالقتْـل وَسْـط خِبائِـهِ ... وعايَنَهُ الكُنْدُ المَليكُ فأرْعِدا

وضاقتَ بنَفْس القُومِص الأرضُ مَهْرَبَا ... فأدركهُ الموتُ المفاجئُ مُكْمَدا

ووصف ابن سناء الملك[2](ت٦٠٨هـ/١٢١١م) ، الشاعر المصري ، ضخامة الجيش الصليبي في معركة حطين ، وانهياره أمام عزم المسلمين

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين، جـ٣ ، ص٤٠٨ .

(٢) هو أبو القاسم هبة الله بن الرشيد أبي الفضل بن المعتمد سناء الملك أبي عبدالله السعدي ، المعروف بابن سناء الملك ، ولد سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ، توفي في القاهرة سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م . أنظر : زكي الدين عبد القوي المنذري (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، التكملة لوفيات النقلة ، تح : بشار عواد معروف ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤م ، جـ٣ ، ص٣٧٧ . سيشار إليه تاليا : المنذري ، التكملة .

فقال: (١)

حمَـلوا كالجبالِ عِظماً ولكنْ جَعَلتْها حمْـلاتُ خيلك عِهْنا
جمعوا كَيْدَهُمْ وجاءوك أركانا فمَن قدّ فارسـا هَـدّ ركنا
لـم تُـلاق الجيـوشَ منهم ولكنّك لاقيتَهم بلاداً و مُـدْنا
كلّ من يَجْعَـلُ الحَديدَ لهُ ثوباً وتـاجـا وطَيْلسَاناً ورُدْنا
أشـجع القـوم فيـهمُ جاعـلُ الدِّرع هروباً أو الفرارَ مجنًّا
ظـلَّ معبودُهم لديك أسـيراً مُستَضاماً فاجعل له النارَ سِجنا
وحوى الأسـرُ كلّ ملكٍ يظنُّ الدهرَ يُفنى وملكهُ ليسَ يَفنَى
والمليكُ العظـيمُ فيهم أسـيٌر يتثنّى في أدهـم يتـثنّى
واللعينُ الإبْرنسُ أصبحَ مذبوحاً تمنّى لمْ يُعِـدمَ اليـومَ يُمْنَا
أنت ذكّيْتَـهُ فـوفّيْتَ نَـذْرا كُنتَ قدّمته فجُـوزيتَ حُسْنا

وقد ورد ذات المعنى لدى فتيان الشاغوري (ت٦١٥هـ/١٢١٧م) ، الذي بين ضخامة عدد القتلى الأسرى الصليبيين وذكر أسماء كبارهم فقال: (٢)

فمَن الذي من جَيْشِهِمْ لم يُختَرمَ قبلاً ومن مِنْ جَمْعِهِمْ لم يُؤسَرِ
حتى لقد بِيْعَتَ عَقائِلُ أرْهِقتْ بالسبْي بالثَّمَن الأخَسِّ الأحقرِ
سَقتِ المَمَالِيكُ الكِرَامُ مُلوكَهُمْ كأساً به سَقتِ اللّئيم الهَنْفَرَي
أغْلى الأدَاهِمَ مَنْ أسَرْتَ وأرْخَصَتْ بِيْضُ الصَّوارم من نِهابِ العَسْكَرِ

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٣٤ .

(٢) الشاغوري ، ديوانه ، ص١٤٣-١٤٤ .

سابعا : الإشادة بالانتصار الذي حققه صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في معركة حطين وما بعدها ، والربط بينه وبين الفتوحات الإسلامية :

يمكن تلمس ذلك لدى مجموعة من العلماء والأدباء في هذه الحقبة ، فقد أشادوا بانتصار صلاح الدين الأيوبي ، ووفائه بما وعد به في حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وهذا ما عبر عنه الحسين بن علي الجويني (ت٥٨٦هـ/١١٩٠م) ، الشاعر العراقي ، في قصيدته التي أشاد فيها بانتصار صلاح الدين الأيوبي في حطين ، وربط بينه وبين فتوح الأنبياء ، حيث قال: (١)

جُنْدُ السَّمَاء لهذا الملك أعوانُ ... مَنْ شَكَّ فيهمْ فهذا الفتحُ بُرْهَانُ
هذا الفتوحُ فتوحُ الأنبياء وما ... له سوى الشُّكْر بالأفعال أثمانُ
أضحتْ ملوكُ الفرنج الصِّيدِ في يده ... صَيْداً وما ضَعُفوا يوماً وما هانُوا
كم من فحول ملوكٍ غُودروا وهُمُ ... خوفَ الفرنجة ولدانٌ و نسوانُ
تسعون عاماً بلادُ الله تصرُخُ ... والإسلام أنصارُهُ صُمٌّ و عُمْيانُ
فالآن لبَّى صلاحُ الدين دعوتهم ... بأمر مَنْ هو للمِعْوان مِعْوانُ
في نصف شهر غدا للشِّرْكِ مَصْطلما ... فطُهرت منه أقطارٌ و بلدانُ
وعدّ عما سواه فالفرنجة لم ... يبدَّهم من ملوك الأرض إنسانُ
لو أنَّ ذا الفتح في عصر النبيِّ لقدْ ... تَنَزلتْ فيه آياتٌ وقرآنُ

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٧٠ .

وقد أشاد محمد بن أسعد الجواني[1] (ت٥٨٨هـ/١١٩٢م) ، بصلاح الدين الأيوبي ، وما أنجزه من نصر في خدمة الإسلام ورسوله ، وربط بين هذا النصر وبين ما تحقق في عهد الخلفاء الراشدين ، فقال :[2]

من كان هذا فتحه لمحمَّدٍ ماذا يُقال له وماذا يُذكرُ ؟
يا يوسف الصِّدِّيقُ أنت لِفتحِها فاروقُها عمرُ الإمامُ الأطْهَرُ
ولأنتَ عثمانُ الشَّريعةِ بَعده ولأنتَ في نصر النُّبُوَّة حَيْدَرُ
غاراتُهُ جُمَعٌ فإن خَطَبَتْ له فيها السُّيُوف فكُلُّ هامٍ مِنْبَرُ

أما أبي الفضل الجلياني فقد أشاد بانتصار صلاح الدين واعتبره انتصارا للحق وللإسلام وربط بين معركة حطين وبين معركة القادسية[3] .

أما رأيتم فتوح القادسيَّة في أكناف (الوبَيةِ) تجْلى وذا عُمرُ
والحق يُغْرس والطغيان منتحب والكفرُ يُطمَس والإيمانُ مزدهرُ
هذا المليك الذي بُشرى النبيّ به في فتنة البغي للإسلام ينتصرُ

---

(١) هو محمد بن أسعد بن علي ، بن معمر الحسيني المعروف بالجواني ، النسابة المصري ، أصله من الموصل ، ولد في مصر سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م ، ولي نقابة الأشراف فيها ، توفي فيها سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص١١٧-١١٩ ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٢ ، ص٢٠٢ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٢٧١ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .

وقال ابن جبير الأندلسي(١) (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) مشيدا بصلاح الدين: (٢)

وأدْبَرَ مُلْكُهُمُ بالشام وولّى كأمسِهم الدابر
فتَحْتَ المقدّسَ من أرضهِ فعَادتْ إلى وَصْفِهَا الطّاهر

وأشاد الرشيد بن بدر النابلسي(٣) (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) ، لتحرير صلاح الدين الأيوبي للمدن الساحلية في فلسطين ، فقال : (٤)

يا مالك الأرْض مَهّدْهَا فما أحدٌ سِواكَ من قائم للمَهْدِ يُنْتَظرُ
ما أخضّرَ هذا الطّرازُ السّاحليُّ تُرىَ إلا لِتَعْلُو بهِ أعْلامُكَ الصُّفُرُ
أضحى بنو الأصْفَر الأنكاس مَوْعِظةٍ فيها لأعدائك الآياتُ و النُّذُرُ
صاروا حديثا وكانوا قبْلُ حادثة على الوَرَى يتّقيها البَدوُ والحَضَرُ
سَلَبْتَهُم دولةَ الدُّنيَا وعيشتَها حتى لقد ضَجرَتْ من وَقدهم سَقرُ
هذا الذي سَلَبَ الإفرنج دَوْلتهُم ومُلْكَهُمْ يا ملوكَ الأرض فاعتَبروا

---

(١) هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الأندلسي ، ولد في بلنسية سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م ، كاتب وشاعر ، ورحالة ، توفي في الإسكندرية سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م . أنظر : المنذري ، التكلمة ، جـ٤ ، ص٢٨٨ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ٥ ، ص٣١٩ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٢٧٢ .

(٣) هو عبدالرحمن بن محمد الرشيد بن بدر النابلسي ، شاعر ، لقبه مدلويه ، حضر فتح بيت المقدس مع صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، توفي في دمشق سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٦٦ ؛ الكتبي ، فوات الوفيات ، جـ٢ ، ص٢٧٥ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٤٠٩ .

مراكزُما اختَطاهَا الخَوفُ مُذ مائةٍ عاماً ولا ريْعَ أهَلوهَا ولا دُعُرُوا
ولم أُصَرِّحْ بأسمـــاء البلادِ فقد أسهَبْتُ والقائل المِنْطيقُ يختَصِرُ
يُغْنيك مُجْمَلُ قولِي عن مُفَصلةٍ في لفظه البَحْرُ معنىً تَحتَه الدُّرَرُ

ثامنا : التعبير عن عمق الفرح بفتح بيت المقدس عند جمهور الناس :

اعتبر الأدباء الانتصار على الصليبيين ، وتحرير بيت المقدس انتصـــارا للإسلام ، وإحياء لمكانته ، فبعد أن كان حلما أصبح واقعا ، فصوروا فرح جمـــهور الناس العميق بذلك ، وهذا ما دعا الشاعر محمد بن أسعد الجواني إلى التساؤل: (١)

أتَرى مَناماً ما بعينيّ أبصِرُ القُدسُ يُفتَحُ والفرنجةُ تُكسَرُ؟!
ومَلِيكُهُمُ في القَيْدِ مصفود ولم يُرَ قَبْلَ ذاك لهمْ مليكٌ يُؤسَرُ
قد جاء نَصرُ اللّه والفَتْحُ الذي وُعِدَ الرَّسُولُ فسبِّحوا واستَغفِرُوا
فُتِحَ الشَّام وطُهِّرَ القُدسُ الذي هو في القيامة للأنام المَحْشَرُ

ويتردد المعنى ذاته عند العماد الأصفهاني ، الذي صور الفتـــح ، وقـــد انتشر خبره في أرجاء الأرض ، بما فاق تصورات الناس وتوقعاتهم ، وعجز عـــن تحقيقه الملوك السابقون ، بعد أن ظل الناس ينتظرون تحقيقه حقبـــا طويلـــة حيـــث قال:(٢)

أبْشِرْ بفَتْح أمـــيرَ المؤمنين أتى وَصِيتُهُ في جميع الأرض جَوَّابُ
ما كان يَخطُرُ في بالٍ تَصَوُّرُهُ واستُصْعِبَ الفَتْحُ لمَّا أغلِقَ البابُ
وخـــامَ عنه الملوكُ الأقدمون وقد مَضَتْ على النَّاس أحقابٌ وأحقابُ

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٣٦٤ .

وجـــاءَ عَصْرُكَ والأيـــامُ مُقْبِلَةٌ	فكان فيه لِفَيْضِ الكُفْرِ إنضابُ
نَصْرٌ أعادَ صلاحُ الدِّين رَوْنَقَه	إيجـــازه ببليغِ القولِ إسْـــهَابُ
أحيا الهُدَى وأماتَ الشِّرْكِ صارمهُ	لقد تجلّى الهُدَى والشِّرْكُ مُنْجابُ

أما الرشيد بن بدر النابلسي ؛ فيشير إلى أن الناس كانوا قد نذروا نذورا ، في حالة تحقيق حلمهم بتحرير بيت المقدس ، ويدعوهم إلى الوفاء بذلـــك ، بعـــد أن حقق الله تعالى آمالهم ، فقال:[١]

هذا الذي كانت الآمالُ تَنْتَظِرُ	فليوفـِ لله أقوامٌ بما نَذَرُوا
بمثل ذا الفتح لا واللّه ما حُكِيَتْ	في سالفِ الدَّهرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٦٤ .

المبحث الخامس

موقف صلاح الدين من الصليبيين بعد وصول الحملة

الصليبية الثالثة (٥٨٦-٥٨٨هـ/١١٩٠م)

كان رد فعل الغرب الأوروبي على استعادة صلاح الدين الأيوبي ، لبيت المقدس من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، ثم تمكنه من معظم البلاد التي كانت في أيديهم ، وبلاد الشام بين سنتي (٥٨٣-٥٨٦هـ/١١٨٧-١١٩٠م) ، تشكيل حملة صليبية جديدة ؛ هي الحملة الثالثة ، وكان على رأسها ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا : فردريك بربروسا (Frederick Barbarossa) (٥٤٧-٥٨٦هـ/١١٥٢-١١٩٠م) ، إمبراطور ألمانيا ، وفيليب أوغسطس (Philip Augustus) (٥٧٦-٦٢٠هـ/١١٨٠-١٢٢٣م) ، ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد (Richard, the lion Harted) ، ملك إنجلترا[1] .

أما رد فعل صلاح الدين الأيوبي تجاه ذلك ، فقد أستند إلى إدراكه مدى ضخامة القوات التي دفعت بها هذه الحملة ، مما يتطلب تعبئة عسكرية أكبر مما هو متوفر لديه ، لذا فإنه ما أن سمع بتحريك هذه الحملة من أوروبا حتى قام بتوجيه رسائل حملها رسله إلى الخليفة العباسي ؛ الناصر لدين الله (٥٧٦-٦٢٠هـ/١١٨٠-١٢٢٣م)[2] ، وإلى سلطان المغرب ؛ أبي يوسف يعقوب

---

(١) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٨٢٦ ؛ Kerr, The Crusades, p.51.

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٥٤ .

بن عبد المؤمن (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٨م)[١] .

بالرجوع إلى مضامين هذه الرسائل ، يتضح أن صلاح الدين الأيوبي ، قدم صورة عن الموقف السياسي ، والعسكري ، وعن أفكاره بصدد الخطوات الواجب اتباعها لمواجهة الحملة المشار إليها ، وفي مقدمتها حاجته الماسة إلى العون والمساعدة ، لدعم قواته في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة[٢] .

وحيث أن رسائله هذه لم تحقق أية نتائج عملية ، فقد اضطر إلى أن يواجه الحملة الصليبية الثالثة ، منذ وصولها إلى السواحل الشامية ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، دونما أية مساعدة مما كان يتوقع وصوله ، حيث دارت معارك عديدة لم يستطع أي طرف أن يحقق فيها رجحانا لصالحه دون الآخر ، وبخاصة بعد استيلاء الصليبيين على عكا بعد حصار دام حتى ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/١١٩١م[٣] ، لذا فقد تم الاتفاق على عقد اتفاقية بين حامية

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٦١-٣٦٢ .

(٢) أنظر نصوص هذه الرسائل في الملاحق رقم (٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) من هذه الدراسة .

(٣) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٤١٤ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٨٤ .

عكا ، وكونراد دي مونتفرات (Conrad de montefrat) ؛ صاحب صور ، نصت على ما يلي [1] :

أولا : أن تسلم المدينة للصليبيين ، بما فيها من آلات ، وعُدَدْ ، وأسلحة .

ثانيا : أن يدفع الأيوبيون لهم مائتي ألف دينار ، فدية عن أسرى المسلمين في المدينة ، خلال شهرين ، إضافة إلى عشرة آلاف دينار ، تدفع للمركيز كونرا دي مونتفرات ، وأربعة آلاف دينار أخرى ، تدفع لحاجبه .

ثالثا : أن يطلق صلاح الدين سراح ألف وخمسمائة فارس صليبي ، من مجاهيل الأسرى ، وخمسمائة فارس حدد الصليبيون أسماؤهم .

رابعا : أن يرد صليب الصلبوت ، الذي أخذه المسلمون في موقعة حطين .

خامسا : أن يخرج جميع المسلمين الموجودين في المدينة بأموالهم آمنين ، سالمين .

ومع أن الصليبيين حققوا نصرا آخر باستيلائهم على أرسوف في ٤ شعبان ٥٨٧هـ/١١٩١م [2] ، فإنهم لم يستطيعوا أن يحققوا طموحهم في استرجاع بيت المقدس ، بل أنهم عجزوا عن أن يعكسوا تلاحما بين بعضهم بعضا

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٣٤ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٣١٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٠٤ ؛ يوسف حسن غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج ، ط١ ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٩٥م ، ص٣٩ . سيشار إليه تاليا : غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ؛ جلال حسين عبد الحميد سلامة ، عكا في أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ١٩٩٣م ، ص٧٨ .

(٢) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ٥٤٢-٥٤٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٤٨ ؛ Kerr, The crusades, p.57.

فقد غادر ملك فرنسا بقواته إلى بلاده ، تاركا الملك ريتشارد قلب الأسد منفردا في مواجهة المسلمين ، في حين أن بقايا الجيش الألماني الذي كان قائده قد لقي حتفه غرقا ، لم يستطيع أن يحقق عملا حاسما(١) .

إن هذا هو ما دفع الملك ريتشادر قلب الأسد ، إلى أن يطلب من صلاح الدين الأيوبي ، الدخول في مفاوضات لإقامة صلح بين الطرفين . ويبدو أن الظروف التي أحاطت بصلاح الدين الأيوبي ، وعدم قدرة أي من الطرفين تحقيق إنجاز حاسم جعله يوافق على طلب الصلح ، حيث بدأت مفاوضات طويلة ، انتهت بعقد ما يعرف بصلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/٢ أيلول ١١٩٢م(٢) ، حيث اشترط صلاح الدين الأيوبي دخول الإسماعيلية فيه ، وفي مقابل ذلك اشترط الصليبيون دخول إمارتي أنطاكية ، وطرابلس فيه ، وحدد هذا الصلح بثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، تضمن البنود التالية(٣) :

أولا : أن يستقر بيد الصليبيين ، المنطقة الساحلية ، من صور إلى يافا ، وقيسارية ، وعكا ، بالإضافة إلى أرسوف .

ثانيا : أن تكون البلاد الجبلية التي فيها قلاع بيد المسلمين .

ثالثا : أن تكون اللد والرملة مناصفة بين الطرفين .

رابعا : أن تكون عسقلان خرابا .

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٥٤٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٤٨ .

(٢)العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٥٤٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٠٣ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٣١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٠٣ ؛ Kerr, The Crusades, p58.

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٣٥ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٣١٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٠٤ ؛ غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ، ص٤١ ؛ Kerr, The Crusades, p57.

لم يكن توقيع هذا الصلح مع الصليبيين موضع اطمئنان صلاح الدين الأيوبي ، إذا يبدو أنه دُفِعَ إليه مضطرا بعد أن عجزت القوى السياسية الإسلامية في المشرق والمغرب عن أن تقدم عونا له ، وإثرَ ما لاحظه في عساكره من مظاهر التعب والجهد . والواقع أن صلاح الدين أظهر تخوفه من التطورات المستقبلية بعد صلح الرملة ، فقد خاطب القاضي ابن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) ، قائلا : " **أخاف أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى به هذا العدو**"[١] ، بما يشير إلى أن صلاح الدين الأيوبي ، حين وافق على هذا الصلح ، إنما وافق عليه هدنة محددة بزمن معين ، وهو ما اعتاد الأيوبيون والصليبيون اللجوء إليه ، عندما توجد ضرورات تقتضي ذلك ، بهدف إعطاء فرصة لكل طرف لتقدير موقفه بعد انتهاء مدة الهدنة . وهذا هو ما دعا صلاح الدين إلى التخوف مما قد يحصل لو أنه توفي كما أشار إلى ذلك في قوله إلى ابن شداد .

كانت هذه نظرة صلاح الدين الأيوبي إلى صلح الرملة ، فأين وقف العلماء والأدباء من هذا ؟ هذا ما ستعالجه الدراسة في المبحث التالي .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٩١ .

المبحث السادس

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة وحتى صلح الرملة

(٥٨٦-٥٨٨هـ/١١٩٠-١١٩٢م)

كان وصول الحملة الصليبية الثالثة ، وسقوط عكا بيد الصليبيين بداية مرحلة لا تتناسب في نتائجها مع المرحلتين السابقتين ، فإن النجاح الذي واكبه العلماء والأدباء سبعة عشر عاما بين سنتي (٥٦٩-٥٨٦هـ/١١٧٣-١١٩٠م) ، والتزموا به تعبيرا وسلوكا ، بدأ يتعثر ، ويواجه عقبات انتهت إلى اضطرار صلاح الدين إلى عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م مع الصليبيين ، وقد انعكس هذا لدى العلماء والأدباء في بروز مضامين جديدة ، وهي :

أولا : المشاركة الفعلية في الدفاع عن عكا :

شارك إلى جانب صلاح الدين في دفاعه عن عكا مجموعة من العلماء والأدباء من بينهم الفقيه الشيخ ضياء الدين عيسى الهكاري (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، الذي كان في مقدمة المقاتلين ، والذي كان أحد الذين استطاعوا الوصول إلى سور المدينة[(١)] ، وشارك في ذلك الفقيه الأديب ؛ جمال الدين بن رواحة الحموي[(٢)] (ت٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، والذي استشهد قرب خيمة صلاح الدين الأيوبي[(٣)] ، واستشهد القاضي المرتضى أبو عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن عبدالعزيز

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١١٠ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٨٤ .

(٢) هو الحسين بن عبدالله بن رواحة بن ابراهيم بن عبد الله بن رواحة أبو علي الأنصاري الحموي ، الأديب ، ولد في حماة ونشأ بها ، ورحل إلى دمشق ، فأقام بها مدة ، توفي في عكا سنة ت٥٨٥هـ/١١٨٩م . أنظر : العماد الأصفهاني ، خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٤٨١ ؛ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ٣ ، ص١٠٨٧ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٨ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٩٧ .

القرشي سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م[١] .

ثانيا : القيام بدور استشاري في التخطيط للمعارك .

حرص صلاح الدين على استشارة الشخصيات التي كانت قريبة منه ، في كثير من خططه العسكرية ، ومن بين هؤلاء ضياء الدين عيسى الهكاري الذي تولى قيادة مقدمة جيش صلاح الدين في معركة عكا[٢] ، كما أن صلاح الدين أصغى لمشورة العماد الأصفهاني أثناء حصار عكا سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، الذي دعا إلى مواصلة الهجوم على الصليبيين المحاصرين للمدينة[٣] .

ثالثا : المساهمة في الحملة التعبوية ، التي قام بها صلاح الدين الأيوبي لكسب بعض القوى الإسلامية المساندة في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة .

مع أن جميع الرسائل التي ساهم بكتابتها كتاب وأدباء تمثل وجهة النظر الرسمية ، إلا أن طبيعة العلاقة بين صلاح الدين وبين وزرائه وكتابه من العلماء ، كان يطغى عليها التزام متبادل بقضية تحرير البلاد من الصليبيين ، لذا فإن ما جاء من أفكار في هذه الرسائل مما صدر باسم صلاح الدين ، إنما يمثل أفكار طبقة العلماء والأدباء المحيطة به أيضا ، وشعورا منهم بأن صلاح الدين الأيوبي يجسم قضية الأمة في تحرير البلاد من الصليبيين ، مما يبدو واضحا في جميع الرسائل التي صدرت عنهم أو تلك التي كتبوها عن أنفسهم .

ويستدل على ذلك من مضامين ، عدد واسع من الرسائل ، ومنها رسالة القاضي الفاضل ، التي أرسلها باسم صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بغداد ، يصور فيها الحاجة إلى تعبئة واسعة ، لقوات إسلامية

---

(١) المنذري ، التكملة ، جـ١ ، ص١٣٦ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٩٦ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٠٤ .

لمساندة المحاصرين في عكا ، وقد جاء فيها: "...، ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا ، يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجابه ، ...، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية ، في الصيحة البدرية ،...، ويرجوا على سيدنا أمير المؤمنين الإجابة ..."(١) .

وما كتبه إلى أمراء الأطراف الإسلامية في كتاب جاء فيه : (٢)

"...،والمرجو من الله سبحانه وتعالى ، تحريك همم المؤمنين ، في تسكين ثائرهم ، بتخريب عامرهم ، وما دام البحر يمدهم ، والبر لا يصدهم ، فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم ، فأين حمية المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيره أهل اليمين ،..." .

وما كتبه إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب طالبا إياه إرسال أسطول ، لمساندة صلاح الدين في عكا ، قائلا(٣) :

"... ، ولما مخض النظر زبده ، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده ، لم نر لمكاثرة البحر إلا بحرا من أساطيله المنصورة ، فإن عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه أدام الله تمكينه ، أن يمد الشام منه بعدد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه وأن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغيه صقلية ، ليحض جناح قلوعه أن تطير ..."

---

(١)ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٣٠٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٥٠١-٥٠٥ .

وفي رسالة للعماد الأصفهاني إلى الخليفة العباسي في بغداد ، صور فيها مخاوف الأيوبيين من تحركات الحملة الصليبية الثالثة ، وجهود ريتشارد قلب الأسد ؛ ملك إنجلترا ، لاستعادة بيت المقدس ثانية ، مما جعله يعطي الخليفة العباسي صورة مجسمة لواقع الحالة آنذاك ، حيث قال :[١]

"...، هذا الكفر قد أناخ بكلكلة ، وحفل بجحفله ، وبرز إلى الإسلام بكليته ، وعراه ببليته ، وقامت قيامة بقيامته ".

وفي قوله العماد الأصفهاني أيضا مصورا الحرب بين صلاح الدين والصليبيين :[٢]

"مرابطة أهل الكفر مستمرة ، وإن الحرب فيها سجال بين الطرفين" .

رابعا : المساهمة في الحملة التعبوية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي في داخل دولته ، لتهيئة عساكره لمواجهة الحملة الصليبية الثالثة .

إدراكا من صلاح الدين الأيوبي ، لمدى الجهود التي بذلتها قواته ، في حروبها العديدة مع الصليبيين ، بما أتعبهم ، استعان بالقاضي بهاء الدين بن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) ، لكي يتحدث إليهم ويحثهم ويحرضهم على الجهاد ، حيث ذكر ابن شداد نص الحوار الذي دار بينه وبين صلاح الدين الأيوبي ، فقال :[٣]

"...، ثم أمرني أن أكلمهم ، وأحثهم على الجهاد ، فذكر ما يسر الله له من ذلك ، وكان ما قلته أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة ، رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به وصلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ...".

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٠١ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٦٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٧٦ .

خامسا : مطالبة صلاح الدين الأيوبي بالحفاظ على مدينة بيت المقدس :

يبدو أن أخبار الحملة الصليبية الثالثة هذه بدأت تؤثر علـــى معنويـات الناس ، الذين بدأ القلق يساورهم ، باحتمال استعادة الصليبيين لمدينة بيت المقـدس ، لذا فقد ساورت الناس مخاوف ، من أن يحقق الصليبيون أهدافهم ، ويستولوا علـــى بيت المقدس ، فانعكس ذلك في شعر تلك الحقبة حيث وجه الرشيد بن بدر النابلسـي نداء إلى صلاح الدين الأيوبي، يدعوه إلى الحفاظ على بيت المقدس ، حيث قال[1] :

فحَام عن حَوْطَةِ البَيْتِ المقَدس لا خَوفٌ وحاشاكَ من خوفٍ ولا ضرر

كمـا ورد ذات المضمـون فـي قـول يوسـف بـن المجـاور[2] (ت٦٠١هـ/١٢٠٤م)[3] :

القُدْسُ ما فيهِ لِسَرْجِكَ مَطْمَحٌ كَـلا ولا نُـوْرُ الإله بِمُنْطَفي
والمَسْجِدُ الأقصَى فعَنْهُ تَقصٌ مِنْ وقعِ الدبَابيس الأليمةِ تَعْرِفِ

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٢٨٩ .

(٢) هو نجم الدين أبو الفتح يوسف بن محمد بن الحسين بن المعروف بابن المجاور ، ولد في مدينة دمشـق ، سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، نشأ فيها استوزره العزيز في نيابته عن أبيه في مصر ، فوض إليه أموره ودولته بعد وفاة صلاح الدين ، توفي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م في القاهـرة . أنظـر : الأزدي ، بدائـع البدايـة ، ص٧٥ ؛ المنذري ، التكملة ، جـ٣ ، ص٤٠١ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٣٢٨ .

سادسا : رفع المعنويات للمسلمين ، والتقليل من خطر الحملة الصليبية المتوقعة .

ساد في بلاد الشام أخبار عن استعدادات جديدة في الغرب الأوروبي ، توجيه حملة صليبية ثالثة ، وقد عبر بعض الأدباء عن استهانتهم بهذا التحرك ، كما أنهم في ذات الوقت حاولوا رفع معنويات المسلمين ، وأشادوا بقدرتهم على مواجهته ، فقد جاء في شعر الرشيد بن بدر النابلسي (ت٦١٩هـ/١٢٢١م) ، قوله : (١)

ويحَ الفرنجةِ بل ويلَ أمْهم أوما فيهمُ لبيبٌ على العلاتِ يعتبرُ
فكمْ نَثَرتْهُمُ ضَرْبًا إذا انتظموا وكمْ نَظَمتْهُمُ طعْنًا إذا انتَثَرُوا
كم قد سَقَيْتَهُم ذُلاً فلا عَجَبٌ إنْ عَرْبَدُوا سَفَهاً فالقوم قد سَكِرُوا
إن يمّموكَ فلا بَدْعُ لجهلهُم تَسْعَى إلى الأسْدِ في غابَاتِها الحُمُرُ
زأروا نموراً ولا تُغْني وَقاحَتُهُمْ إذا أسُودك في أبطالهُم زأروا
هو الشَّريفُ وقد ناداكَ مُعْتَصِمَاً فما على مجده من بَعْده حَذَرُ
وسوف تَسْتَغْفِرُ الأيامُ هَفْوَتَها وتَحْصُدُ الفئةُ الأوغادُ ما بَذَرَوا

سابعا : التشكيك بجدوى الهدنة مع الصليبيين ، والحذر من نتائجها .

إن صلح الرملة هدنة بين طرفين أضْنَتْهُمَا الحرب ، فانتهى الأمر بينهما إلى اتفاق على حلول معينة ، ريثما ينظر كل منهما إلى موقفه ، ويقيّم وضعه ، فجاءت ردود الفعل على ذلك من قبل مجموعة من العلماء ، والأدباء تحمل التشكيك

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٢٨٩-٢٩٠ .

بجدوى الهدنة مع الصليبيين ، وتدعو إلى عدم الاغترار بها ، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني ، عندما طلب من صلاح الدين الأيوبي ، الذي كان قد عزم على الحج ، ألا يترك البلاد في وقت كهذا ،فقال :(١)

" **هذه البلاد إذا تركتها على ما بها من الشعث ، لم ترم مرور حبلها المنتكث ، وهذه المعاقل التي في الثغور ، حفظها من أهم الأمور ، ولا يغتر بعقد الهدنة ، فإن القوم على ترقب المكنة ، والغدر دأبهم ، وملء البغي إهابهم** " .

أما يوسف بن المجاور فقد عرض بالملك ؛ ريتشارد قلب الأسد ، ودعا صلاح الدين الأيوبي إلى عدم الثقة بهذا الصلح ، فقال (٢) :

القدسُ ما فيه لسرجكُ مَطْمَحٌ   كلا ولا نُور الإله بمنطفي
والمسجدُ الأقصى فعنُه تَقَصَّ مِنْ   وَقْعِ الدبابيس الأليمةِ تعرفِ
واستَثْقِتِ نفسكَ فهي أخبثُ ناصِح   واتركْ متَابَعَةِ اللجاج المُتلفِ
قدْ قُلتَ لما قِيل صُلْحٌ قد جَرَى   هذا حَديثٌ مخرّفٍ ومُحرَّفِ
سَلفٌ تَوَلّى السيفُ عَقْدَ شُروطهِ   أحْببْ بهِ من مسلم ومسلّفِ
ظنُّوهُ سِلْما وهو في أرْواحِهم   سلْمٌ إلى أجلٍ لهمْ مُتَخلّفِ

إن هذا ما جسده موقف العلماء والأدباء الذين عاصروا صلاح الدين الأيوبي ، وخطواته الجهادية ضد الصليبيين ، ترى هل تغير الموقف في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي (٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م) ؟

هذا ما ستناوله الدراسة في الفصل القادم .

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص١٠٨ .

(٢) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٣٢٨ .

المبحث الأول : موقف الأيوبيين من الصليبيين

(٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م)

المبحث الثاني : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين

في الحقبة ما بين (٥٨٩-٦١٥هـ/١١٩٣-١٢١٨م)

المبحث الثالث : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين

في الحقبة ما بين (٦١٥-٦٣٧هـ/١٢١٨-١٢٤٠م)

المبحث الرابع : موقف العلماء والأدباء من الصليبيين

في الحقبة ما بين (٦٣٧-٦٤٨هـ/١٢٤٠-١٢٥٠م)

الفصل الرابع

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي

(٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م)

المبحث الأول : موقف الأيوبيين من الصليبيين

(٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م)

توفي صلاح الدين الأيوبي في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/٣ آذار ١١٩٣م ، في دمشق[١] ، وانقسمت دولته بين أفراد أسرته[٢] في مصر ، وبلاد الشام[٣] ، ونشبت صراعات بينهم[٤] ، ووصلت إلى درجة النزاع المسلح ، واستعان البعض بقوى خارجية ضد البعض الآخر ، وقد تأثرت سياسة الأيوبيين تجاه الصليبيين ، بهذه

---

(٢)ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٤٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٢٠ .

(٢) قسم صلاح الدين دولته بين أفراد أسرته سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حيث كان الأفضل ، في دمشق ، والساحل ، وبيت ، المقدس ، وبصرى ، وبانياس ، وصرخد ، وهونين ، وتبنين ، وجميع الأعمال من الداروم إلى غزة ، والعزيز عثمان في مصر ، والظاهر غياث الدين غازي في حلب ، وأعمالها ، وهي: حارم وتل باشر ، وعزاز ، وبرزيه ، ودربساك ، ومنبج ، والملك العادل أخي صلاح الدين بيده الكرك والشوبك والبلاد الشرقية قاطع الفرات وهي : حران ، والرها ، وسميساط ، والرقة ، وقلعة جعبر وميافارقين ، وديار بكر ، والملك العزيز ظهير الدين في اليمن ، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن مجد الدين في حمص ، والرحبة ، والملك الأمجد بهرامشاه بن فرخشاه في بعلبك ، والملك الظاهر خضر بن صلاح الدين بيده بصرى . أنظر : أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٤٠٦-٦١٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٦ ، ص٣-٤ .

(٣) أنظر ملحق رقم (١٤) وفيه أسماء جميع السلاطين والأمراء الأيوبيين ؛ الذين حكموا مصر وسائر المناطق في بلاد الشام ، من هذه الدراسة .

(٤) حول هذه الصراعات أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١١-٩٠ ؛ عاشور ، مصر والشام ، ص٦٧-٧٥ ؛ فايد حماد عاشور ، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ، د.ط ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص٢٤٧-٢٧٤ . سيشار إليه تاليا : عاشور ، الجهاد الإسلامي .

المتغيرات وهو ما يمكن ملاحظته في إطار ثلاث مراحل أساسية ، هي :

١ – المرحلة الأولى (٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣م) :

وهي التي تشمل الحقبة ما بين وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، وحتى وفاة أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م .

تدور أحداث هذه المرحلة في عهد ثلاث شخصيات رئيسة ، وهي : شخصية الملك الأفضل(١) ؛ أكبر أبناء صلاح الدين الأيوبي ، المتحكم في أمور دمشق ، والشخصية الثانية هي شخصية العزيز عثمان(٢) ، الابن الأصغر لصلاح الدين الأيوبي ، والذي كان متحكما في أمور مصر ، والشخصية الثالثة ، هي شخصية الملك العادل سيف الدين أبي بكر(٣) ؛ أخي صلاح الدين .

على رغم مما ساد هذه الحقبة من صراعات بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي ، فيما يعرف بحرب الوراثة(٤) ، فقد طغت شخصية الملك العادل ، أخي صلاح الدين الأيوبي فيها، سواء قبل توليه السلطنة (٥٨٩-٥٩٦هـ-١١٩٣-١١٩٩م) ،

---

(١) هو علي بن يوسف بن أيوب ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ولد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م في القاهرة ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م في سميساط . أنظر : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٢٢ ، ص٤٤٢ .

(٢) هو عثمان أبو الفتح بن السلطان صلاح الدين ، سلطان الديار المصرية بعد والده ، توفي سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م ، ولي النيابة في مصر في عهد والده ، وبعد ذلك تسلطن باتفاق الأمراء وأعيان الدولة فيها ، وهو أصغر من أخيه الأفضل ، وأخيه الظاهر . أنظر : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٦- .

(٣) هو سيف الدين محمد بن الأمير نجم الدين أيوب ، كان صلاح الدين يستشيره ويعتمد على رأيه لعقله ودهائه ، تولى مصر سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ، توفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م في دمشق . أنظر : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، جـ٢ ، ص٢٢٥ .

(٤) عاشور ، مصر والشام ، ص٦٩ ؛ نعمان محمود جبران ، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ط١ ، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية ، الأردن ٢٠٠٠م ، ص١٣٩ . ميشار إليه تاليا : جبران ، دراسات .

أو بعد توليه لها (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م) ، بحكم كونه أكبر أعضاء الأسرة الأيوبية سنا ، ثم بحكم مشاركته لصلاح الدين في إدارة دولته ، كما أن من المعروف ، أنه هو من مثّل الجانب الأيوبي في المفاوضات ، التي تمت مع الصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي ، والتي انتهت بصلح الرملة في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/٢ أيلول ١١٩٢م[١] ، والذي أقر بموجبه أن يحتفظ الصليبيون بالمنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى يافا ، بما فيها قيسارية ، وأرسوف ، وحيفا وعكا ، إضافة إلى دخول إمارتي أنطاكية ، وطرابلس في الصلح ، وإعادة صليب الصلبوت إلى الصليبيين ، وقد أبْقِيَ للأيوبيين بموجب هذا الصلح ، الجزء الأعظم من الأراضي التي كانت بأيدي الصليبيين ، ومنها بيت المقدس ، إضافة إلى مناصفة مدينتي اللد ، والرملة ، بين الطرفين ، في إطار هدنة أمدها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر[٢] . ويبدو أن الاتجاه الذي عبر عنه هذا الصلح ، ظل هو الذي حكم موقف الأيوبيين من الصليبيين في هذه الحقبة إذ يلاحظ أن السلاطين الأيوبيين الذين حكموا في هذه الحقبة حرصوا على أمرين ، هما :

أولا : المحافظة على الوضع السياسي بالشكل الذي حددته الاتفاقية المشار إليها ، والذي كان يعكس توازنا بين القوتين ، لا يَرْجُحُ فيه أحدهما على الآخر .

ثانيا : التصدي لكل ما قد يُخَلّ بهذا التوازن ، بين القوتين المشار إليهما ، تَرْجُحْ فيه كفة الصليبيين .

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص٥٤٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٠٣ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٣١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٠٣ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص٢٣٥ ؛ أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٣١٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٠٤ ؛ غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ، ص٤١ .

وأدلة ذلك :

أ – مع أن الصليبيين نقضوا الهدنة في أكثر من حالة ، وهي تتمثل حصرا بهجوم مجموعة من الصليبيين الألمان على المدن الساحلية في بلاد الشام سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م ، وبقيام الملك عموري الثاني (Amarlic II) (٥٩٤-٦٠٢هـ/١١٩٨-١٢٠٥م) ، بالاستيلاء على بيروت دون قتال فعليّ ، في السنة ذاتها[١] ، وبعد أن سلمها لهم صاحبها ؛ عز الدين أسامة[٢] (ت٦٠٩هـ/١٢١٢م) ، ثم اتساع النشاط الصليبي هذا بمهاجمة اللاذقية ، وجبلة[٣] ، ثم بمهاجمة صيدا ، وصور [٤]، وحصن تبنين سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م[٥] ، فإن الأيوبيين مع كل تحديات الصليبيين هذه ورغم أنهم تصدوا لهذه التحركات ، وحركوا جيوشهم ، من كل من دمشق ، والقاهرة في هجوم معاكس ، دفع الصليبيين للتراجع عن بعض المواقع ، ولم يندفعوا باتجاه توسيع هذه ، المواجهات العسكرية ، بل حرصوا – كما حرص الصليبيون – على توقيع هدنة بينهما سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م . أمدها ثلاث سنوات تم بموجبها تقاسم النفوذ بينهما ، وقد بقيت بيروت ، وجبيل بيد الصليبيين ، وأعطيت يافا للأيوبيين ، أما صيدا فقد اقتسمها الطرفان[٦] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص١٢٧ .

(٢) هو عز الدين أسامة الجبلي ، أحد أكابر الأمراء في العصر الأيوبي . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٨٠-٨١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٠٩-٢١٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٤ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٩٢٢ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٥ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص١٢٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٦ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص١٢٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٨ : تقي الدين أبو العباس أحمد المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٣٤٤م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، صححه ووضع هامشه مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦٦م ، جـ١ ، ق١ ، ص١٤١ . سيشار إليه تاليا : المقريزي ، السلوك .

ب – مع أن الصليبيين حاولوا السيطرة على مواقـع أيوبيـة ، حيويـة هامـة (حـصن الأكراد ، والمرقب) ، وهاجموا حماة سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م[١] ، ثم سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م[٢] ، ثم هـاجموا حمـص سـنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م[٣] ، وترصدوا بالسفن الإسلامية في البحر المتوسط ، ثم هاجموا إقليم الجليل[٤] ، فـإن الملك العادل اقتصر على الخروج إليهم ، وإيقاف زحفهم[٥] ، وعقد معـهم صلحـا مدته ست سنوات (٦٠١-٦٠٧هـ/١٢٠٥-١٢١١م) . نص علـى أن تكـون يافـا للصليبيين ، وأن يتناصفا اللد ، والرملة[٦] .

جـ – مع أن ضغط الصليبيين ازداد سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م ، متمثـلا بمهاجمة الاسبتارية لحمص ، وقيام قراصنة قبرص بالاستيلاء على عدة سفن مـن الأسطول الخاص بمصر[٧] ، ومع أن الملك العادل ، رد بقوة وهاجم حصن الأكـراد العائد للاسبتارية ، ثم هاجم كلا من عكا ، وطرابلس وحقق نجاحا كبـيرا[٨] ، فـإن الأمر انتهى إلى عقد صلح مع صليبيي عكا ، تم بموجبه إطلاق أسـرى المسلميـن

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص١٩٠ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٤٣ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص١٤٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ص١٩٥ .

(٥) المصدر نفسه ، جـ١٢ ، ص٢٦٣ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٦٢ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٩٠٢ ؛ Grousset, Histoire des Crosiades,T, III, p.171.

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٧٣ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٩٦ .

(٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٧٢ ؛ ابن تغـري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٩٦ .

وما كان قد نهب من أموالهم وذلك في ٦٠٣هـ/١٢٠٧م[١] .

د – مع أن الملك عموري الثاني استغل انتهاء أمد الهدنة المعقودة بين الطرفين منذ سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م ، ووصول إمدادات عسكرية إلى عكا ، فقام في سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م بمهاجمة الأيوبيين[٢] ، فإن رد الملك العادل لم يزد على الخروج لمواجهته ، لينتهي الصدام إلى عقد هدنة جديدة [٣] .

من الواضح أن كلا من الأيوبيين والصليبيين خلال الحقبة بين وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتى ما قبل قيام الحملة الصليبية الخامسة ، لم يبلغ من القوة ما يستطيع معه حسم الموقف العسكري لصالحه ، لذا فإن كلا الطرفين ، كما لوحظ في الحالات المشار إليها آنفا ، كان حريصا على عقد صلح ، لأمد محدود .

إن من الواضح أن هذا النوع من الصلح لم يعكس صلحا نهائيا فهو مرتبط دائما بسنوات محددة ، وهذا يوضح ضمناً أن كلاً من الأيوبيين والصليبيين كان ينتظر الفرصة الملائمة لكي ينقض على الآخر ، ويبدو أن الفرصة سنحت للصليبيين سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م عندما وصلت الحملة الصليبية الخامسة ، التي اتجهت إلى مصر ، وحاصرت مدينة دمياط[٤] ، مستهدفة التركيز على الجبهة المصرية ، وذلك اقتناعا بالفكرة التي تبناها الصليبيون من بداية تحركهم نحو بلاد الشام ، والتي ترى في السيطرة على مصر المفتاح والطريق للسيطرة على القدس[٥] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٧٣

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٠١ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ ، ق١ ، ص١٧١ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٠١ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٧١ ؛

setton, Ahiyorty of the Crousades, Vol II , P.P.161-171 ; stevenson, The Crusaders in the East, p295.

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٦٠ .

(٥) جبران ، دراسات ، ص١٤٩ .

أمام هذا المتغير في السياسة الصليبية ، والذي أدى إلى خلل جوهري في التوازن بين الطرفين ، وأصبح يهدد بالسيطرة على مصر وبلاد الشام ، ويشكل خطرا على وجود الدولة الأيوبية ، استنفر الأيوبيون كل قوتهم ، وانتقل السلطان الملك العادل إلى ساحة المعركة(1) ، كما أن وفاته لم تُفتَّ في عضد أبنائه فقد استطاعوا أن يتجاوزا كل نقاط الضعف في الموقف الأيوبي في بلاد الشام ، وفي مصر ، ويظهروا ، قوة متماسكة واحدة ، لمواجهة هذا الخطر الكبير .

ومع أن هذا التحرك أخذ هذه الأبعاد ، وبدا كما لو أنه سيؤدي إلى مرحلة جديدة من مراحل الصراع ، فإن العكس هو الذي حصل ، فقد عاد الأيوبيون – كما سيلاحظ في الفقرة التالية – إلى سياستهم الأولى التي تعتمد على المعاهدات المؤقتة بين الطرفين ، والحفاظ على تعادل القوتين ، وإن كانت قد اتجهت نحو أبعاد أكثر خطورة من هذا كما سيلاحظ أدناه .

٢ – المرحلة الثانية (٦١٥-٦٣٧هـ/١٢١٨-١٢٤٠م) :

مع تولي الملك الكامل(2) ، السلطنة الأيوبية سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وبعد نجاحه – بفعل تعاون ، إخوانه معه – ظهرت توجهات جديدة تجاه الصليبيين ، فقد تبنى الملك الكامل سياسة تهدف إلى إجلاء الصليبيين عن دمياط ، مقابل تنازلات يقدمها لهم . وقد جاء هذا النهج متعاكسا مع الموقف الأيوبي

---

(٢)ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٦٠ .

(٢) هو ناصر الدين محمد ، أبو الفتح ، بن الملك العادل ، أبي بكر بن أيوب ، ولد في مصر سنة ٥٧٦هـ/١٢٧٨م ، ملك الديار المصرية في عهد أبيه عشرين سنة ، وملكها بعده عشرين سنة أخرى ، تملك ، دمشق وحران ، وأمد ، توفي في قلعة دمشق سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٨٩-٩٢ ؛ المرتضى الزبيدي (١٢٠٥هـ/١٧٠٩م) ، ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب ، تح : صلاح الدين المنجد ، د.ط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٩ ، ص٦٣ . سيشار إليه تاليا : الزبيدي ، ترويح القلوب .

المعروف من الصليبيين ، حيث عرض عليهم التنازل عن جميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبي باستثناء الكرك ، والشوبك ، وأضاف إلى ذلك التنازل عن عسقلان ، وطبرية واللاذقية ، وجبلة ، مقابل الجلاء عن دمياط[١] ، إلا أن هذا العرض لم يلق قبولا من الصليبيين الذين اشترطوا تسليم الكرك ، والشوبك إضافة إلى مطالبتهم بدفع مبالغ مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار[٢] ، تخصص لإعمار أسوار القدس التي كان المعظم عيسى قد أخربها سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م[٣] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٢٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٣٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٢٢ .

(٣) ذكر سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) أنه في أول المحرم ، وقيل في السابع منه ، من سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م :"أخرب المعظم (عيسى بن الملك العادل) أبراج القدس وسوره ، خوفا من استيلاء الفرنج عليه ، فاضطرب الناس ، وخرجوا منه متفرقين في البلاد ، وهان عليهم مفارقة ديارهم ، وضياع أموالهم ، وقد كانت القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة ، وكثرة السكان ، قال أبو المظفر : كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط ، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس ، فاتفق الأمراء على خرابه ، وقالوا : قد خلا الشام من العساكر ، فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام ، وكان بالقدس ، إخوه العزيز ، عثمان ، وعز الدين أيبك ، الاستدار ، فكتب إليهم المعظم بخرابه ، فتوقفا وقالا : نحن نحفظه ، فكتب إليهم المعظم : لو أخذوه قتلوا كل من فيه ، وحكموا على دمشق وبلاد الشام ، فالجأت الضرورة إلى إخرابه ، فشرعوا في السور أول يوم من المحرم ، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة ، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والشبان ، إلى الصخرة والأقصى . فقطعوا شعورهم وتركوا أموالهم ، وأثقالهم ، وما شكوا أن الفرنج تصحبهم ، وامتلأت بهم الطرقات ، فبعضهم إلى مصر ، وبعضهم إلى الكرك ، وبعضهم إلى دمشق ، وكانت الفتيات والمخدرات تمزقن ثيابهم وتربطها على أرجلهن من الخلف ومات خلق كثير من الجوع والعطش ، وكانت توبة لم يكن في الإسلام مثلها ، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس " . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١١٦ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٦٠٦ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣٠٥ .

وبعد أن ساءت أوضاع الصليبيين أرسلوا إلى الملك الكامل ، وعرضوا عليه موافقتهم على الخروج من أرض مصر ، ومن دمياط ، مقابل السماح لهم بالخروج سالمين والعودة إلى بلادهم ، فوافق الملك الكامل على ذلك ، وطلب أن يتم تسليم رهائن صليبية للطرف الإسلامي حتى يضمن إمكانية خروجهم من دمياط ، كما أنه بعث إليهم بابنه نجم الدين أيوب ، مقابل رهائنهم التي أرسلوها ، وهم : المندوب البابوي بلاجيوس ؛ وملك عكا ؛ حنا دي إيلين .

انسحب الصليبيون عن دمياط في ٩رجب ٦١٨هـ/١٢٢١م ، ووقعت هدنة بين الطرفين ، أمدها ثماني سنوات (٦١٨-٦٢٦هـ/١٢٢١-١٢٢٩م) ، تعهدا فيها أن يطلق كل طرف أسرى الطرف الآخر [١] .

لم تكن توجهات السلطان الكامل بالمساومة على الأراضي التي حررها صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام ، مقابل تحقيق أهدافه في الحفاظ على دمياط ، مجرد رد فعل دفعت إليه ظروف الحملة الصليبية الخامسة ، بل كان توجها مركزيا في سياسته ، وسابقة دفعته ، ودفعت من جاء بعده من السلاطين والأمراء الأيوبيين المتنافسين لاعتمادها ، فهذا ما حصل عندما ساءت العلاقة بينه وبين أخيه الملك المعظم [٢] ؛ صاحب دمشق ، وأخيه الملك الأشرف صاحب بلاد الجزيرة وأخلاط ،

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٣٠ ؛ المكين جرجس بن العميد (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) أخبار الأيوبيين ، د.ط ، مكتبة الثقافة الدينية د.م ، د.ت ، ص١٣٤ . سيشار إليه تاليا : ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص١٠٥ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣٠٩ .

(٢) هو شرف الدين عيسى بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي ، ولد في القاهرة سنة ٥٧٨هـ/١٢٢٦م ، ونشأ في الشام ، وملكها بعد أبيه سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م ، توفي في دمشق ودفن في المدرسة المعظمية سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٥٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩٤-٤٩٦ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٢٧٦-٢٩٠ ؛ الزبيدي ، ترويح القلوب ، ص٦٣ .

حيث لجأ – أي الملك الكامل – إلى الإمبراطور فردريك الثاني[1] (Freaderick II) لكي يناصره ضد أخويه المشار إليهما ، وكان الثمن الذي قدمه للحصول على هذه المساعدة هو ما نصت عليه المعاهدة التي وقعها معه والمعروفة باتفاقية يافا[2] وذلك في ٢٨ ربيع الأول ٦٢٦هـ/١٢٢٩م ، ونصت على ما يلي[3] :

أولا : تسليم بيت المقدس للصليبيين على أن تبقى خرابا ولا يجدد سورها .

ثانيا : جميع القرى التابعة لبيت المقدس تبقى بيد المسلمين ، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة فقط، وللمسلمين والٍ عليها يكون مقره مدينة البيرة .

ثالثا : يكون الحرم الشريف بما حوله من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ، ويكون شعار المسلمين فيها ظاهر ، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة فقط ، ويتولاها مسؤولون من المسلمين .

رابعا : تكون الناصرة ، وبيت لحم ، واللد ، وتبنين ، والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس ، وعكا ، بيد الصليبيين .

---

(١) ملك ألمانيا وصقلية ، اتخذ لنفسه لقب حافظ بيت المقدس . ولد في صقلية ونشأ فيها ، كان يحب الفلسفة والرياضيات وواسع الاطلاع فيهما ، وأجاد عدة لغات منها اللغة العربية ، وتذوق الشعر العربي توج إمبراطورا سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . توفي سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م . أنظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٨٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٠٦ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٣ ، ص١٩٦ .

(٢) عند توقيع المعاهدة كان المعظم عيسى قد توفي وحل محلة ابنه الملك الناصر داود صاحب الكرك .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٣٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٤٣ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٩٦٥ ؛ غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ، ص٦٨ ؛

Grousset, Histoire des Croisades, T, II,p.218 .

٣ – المرحلة الثالثة (٦٣٧-٦٤٨هـ/١٢٣٨-١٢٥٠م) :

مع أن هذه المرحلة شهدت مبادرة أحد أمراء الدولة الأيوبية ، وهو الناصر داود[١] بن الملك المعظم عيسى ؛ صاحب الكرك ، بالتحرك عسكريا – ودون تنسيق مع السلطان الأيوبي العادل الثاني – نحو القدس وتحريرها ، وطرد الصليبيين منها ثانية ، فإن هذا التحرك لم يعكس سياسة الدولة الأيوبية آنذاك ، إذا يلاحظ أن النهج الذي نهجه الملك الكامل من قبل ، وهو الذي تعمق ، بل اتجه إلى أكثر مما ذهب هو إليه في هذه المرحلة ، وأدلة ذلك :

أ – تجدد الصراع بين الصالح نجم الدين أيوب[٢] ؛ صاحب مصر ، والناصر داود ؛ صاحب الكرك ، والصالح إسماعيل ؛ صاحب دمشق ، فقد انتاب الخوف الصالح إسماعيل من تحرك الصالح نجم الدين أيوب ضده ، فلجأ إلى التحالف مع الصليبيين ، مقدما لهم إغراءات ، بإعادة سيطرتهم على مناطق هامة في بلاد الشام ، مثل بيت المقدس ، وصفد ، والشقيف ، ومناصفة كل من صيدا ،

---

(١) هو صلاح الدين أبي المظفر ناصر الدين بن داود بن الملك المعظم عيسى ، ولد في دمشق سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م ، وقد تولاها بعد وفاة والده إلا أن الكامل أخذها منه وعوضه عنها بالكرك والشوبك ، توفي في دمشق سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ ، ودفن بتربة والده في سفح جبل قاسيون . انظر : أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص٢٠٠ ؛ قطب الدين موسى اليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ، ذيل مرآة الزمان ، صحح بعناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة العالمية الهندية ، ط١ ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ١٩٦١ ، جـ١ ، ص١٢٦ ، سيشار إليه تاليا : ابن اليونيني ، مرآة الزمان ؛ الزبيدي ، ترويح القلوب ، ص٧٣ .

(٢) هو نجم الدين أيوب بن الملك العادل ، ولد في القاهرة سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م ، ونشأ فيها ، وناب عن والده في مصر سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٥م ، ثم سلمه والده حصن كيفا ، ثم ملك دمشق ، ثم مصر سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م . وتوفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م في المنصورة . انظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٨٣ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣٦٧ ؛ الزبيدي ، ترويح القلوب ، ص٧٩ .

إضافة إلى السماح لهم بدخول دمشق ، وشراء السلاح منها[١] .

سار الصالح إسماعيل ، وحلفاؤه ، من الصليبيين إلى مصر ، واصطدموا بقوات الصالح نجم الدين أيوب في غزة ، ولكنه استطاع أن يحقق النصر على الصالح وحلفائه ، وخلص الأمر إلى عقد صلح مع الصليبيين ، أطلق بموجبه سراح أسراهم ، والسماح لهم بتحصين عسقلان ، مقابل أن يحصل منهم على وعد بعدم تأييد حكام دمشق في صراعهم معه[٢] .

ب – جاءت الحملة الإنجليزية بقيادة ريتشارد كورنوول من إنجلترا ، متجهة إلى عسقلان لاستكمال تحصيناتها ، واستقبل هناك مبعوثا من الصالح نجم بن أيوب ، وتم الاتفاق على احترام الصلح الذي كان الصالح نجم الدين قد وقعه مع الصليبيين ، والذي حصلوا بموجبه على اعترافه بأحقيتهم في منطقة الجليل ، وحصن تبنين ، وهونين ، وطبرية ، بالإضافة إلى بيت المقدس ، وبيت لحم ، ومجدل يافا ، وعسقلان ، وبعد ذلك غادرت الحملة عسقلان بعد أن استكملت تحصيناتها سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م . [٣]

جـ – استمرت الصراعات داخل البيت الأيوبي ، وأدت إلى إفراز تحالف جديد مع الصليبيين من قبل الصالح إسماعيل ؛ صاحب دمشق ، والناصر داود ؛ صاحب الكرك ، قدّمَا من خلاله إغراءات للصليبيين لضمان تحالفهم معهما ، ضد الصالح نجم الدين أيوب ؛ صاحب مصر ، حيث عرض الصالح إسماعيل

---

(١) عز الدين بن شداد (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) ، تح : سامي الدهان ، د.ط ، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٦٢ ، ص١٤٧-١٥٣. سيشار إليه تاليا : ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٣٠٣ ؛ غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ، ص٧٣ .

(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٧٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٣٠٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٨١-١٨٢ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٣١٥ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٩٩٣ .

والناصر ، داود عل؛ى الصليبيين سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م بأن يسلموا إليهم بيت المقدس ، إضافة إلى التنازل عن الأماكن المقدسة ، والمسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والسماح لهم بالسيطرة على طبرية وتحصينها ، وإعطائهم بعض الأجزاء من مصر ، إن تمت السيطرة عليها[١] .

لقد شجعت السياسة التي اتبعها الملك الكامل تجاه الصليبيين ، ثم سار على منوالها ، بل وعمقها من أعقبه في السلطنة من أمراء بني أيوب في بلاد الشام ، على تجرؤ الصليبيين على مهاجمة البلاد في محاولات عديدة .

شارك السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في تبني هذه السياسة فقد عرض على الصليبيين العرض الذي قدمه الصالح إسماعيل ، والناصر داود ، سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م عليهم والتنازل عن بيت المقدس ، والمسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، والسيطرة على طبرية ، وإعطاؤهم بعض الأجزاء من مصر ، إن هم وقفوا إلى جانبه ، إلا أنه سلك سلوكا مناقضا لذلك في العقد الأخير من حكمه ، فقد تحالف مع بقايا الجيش الخوارزمي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ، الذين تمكنوا من انتزاع بيت المقدس من الصليبيين ، وأخرجوهم منها ، كما أنهم وبعد اجتماعهم بالقوات الأيوبية القادمة من مصر ، واصطدموا بالقوات الصليبية ومن يساندها من الأمراء الأيوبيين في بلاد الشام وهم : الصالح إسماعيل ؛ صاحب دمشق والناصر داود ؛ صاحب الكرك في معركة قرب غزة في ١٢جمادى الأولى ٦٤٢هـ/١٢٤٤[٢] ، وحققوا انتصارا كبيرا على الصليبيين لم يصابوا بمثله ، حتى أطلق المؤرخون على هذه المعركة – نظرا لأهميتها – اسم : حطين الثانية [٣] .

استمر الصالح نجم الدين أيوب في مواجهة الصليبيين ، وأعد العدة لذلك فقام بتشكيل فرقة عسكرية جديدة ، هي التي عرفت بطبقة المماليك

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٣٣٣ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٩٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٣٣٢ .

(٣)عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص٩٩٩ .

البحرية ، التي أعدها إعداداً عسكرياً كبيراً ، لذا فإنه ما أن وصلته معلومات عن حملة صليبية جديدة ، وهي الحملة الصليبية السابعة[١] ، حتى حشد هذه القوات لمواجهتها ، فلما وصلت طلائعها إلى مصر ، واحتلت دمياط في ٢٢صفر ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[٢] ، انتقل – رغم مرضه – إلى مدينة المنصورة بعساكر من المماليك البحرية وغيرهم ، إلا أنه توفي خلال ذلك في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[٣] ، فتمكنت زوجته شجرة الدر ومعها القوات المشار إليها من مواجهة الصليبيين وصدهم ، ثم تمكنوا بعد وصول السلطان الجديد ، وهو توارن شاه ابن الصالح نجم الدين أيوب ، من إيقاف الحملة ، والانتصار عليها ، في معركة قرب فار سكور[٤] سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، وأسر كل أفراد الجيش الصليبي ، وعلى رأسهم الملك لويس التاسع ؛ قائد الحملة ، الذي نقل إلى مدينة المنصورة ، حيث سجن في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان[٥] .

بعد مفاوضات طويلة بين الطرفين ، تم التوقيع على معاهدة صلح ، مدتها عشر سنوات ، تعهد فيها الصليبيون بما يلي: [٦]

أولا : أن يسلم الملك الفرنسي لويس التاسع مدينة دمياط إلى المسلمين ، فدية عن نفسه .

---

(١) للمزيد حول الحملة أنظر : جوانفيل ، القديس لويس وحملاته علي مصر وبلاد الشام ، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي ، د.ط ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨ . سيشار إليه تاليا : جوانفيل ، القديس لويس ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي علي مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفار سكور) ، د.ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ . سيشار إليه تاليا : يوسف ، العدوان الصليبي علي مصر .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص٣٣٦ .

(٣) أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١٨٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣٤١ .

(٤) قرية من قرى مصر ، قريبة من دمياط . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٨٨ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، جـ١، ق٢ ، ص٣٥٦ .

(٦) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٢ ؛ غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ، ص٧١-٧٢ .

ثانيا : أن يدفع الملك لويس التاسع مبلغ ثلاثمائة ألف بيزنط ، فدية عن باقي الأسرى .

ثالثا : أن يطلق الملك لويس التاسع جميع الأسرى المسلمين ، سواء أولئك الذين أسرهم أثناء هذه الحملة أو أولئك الذين وقعوا في الأسر ، منذ الصلح الذي وقع بين الإمبراطور فردريك الثاني ، والملك الكامل .

رابعا : أن يعمل الصليبيون على حفظ الأمن ، مع إقرار السلام في جميع البلاد التي يحتلونها في فلسطين .

أما المسلمون فقد تعهدوا بما يلي: (١)

أولا : إطلاق سراح جميع من وقع في قبضة المسلمين من الصليبيين منذ وصولهم إلى الشاطئ المصري ، ومن وقع بأيديهم ، منذ الصلح الذي عقد بين الإمبراطور فردريك الثاني ، والملك الكامل .

ثانيا : المحافظة على عتاد الصليبيين في دمياط حتى يتم نقله .

ثالثا : منح جميع الأسرى الصليبيين المرضى الأمان أثناء إقامتهم في دمياط ، على أن يسمح لهم بالمغادرة برا أو بحرا .

وقد تسلم المسلمون المدينة في ٣صفر ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، حيث غادرها الصليبيون إلى عكا في اليوم ذاته (٢) .

كانت الحملة السابعة آخر الحملات الصليبية التي وجهتها أوروبا ضد مصر ، وبلاد الشام ، وقد ارتبط القضاء عليها بالدور الذي أدته طبقة المماليك البحرية ، التي تحملت مسؤولية الجهاد ضد الصليبيين ، بعد العصر الأيوبي ، بما لا يقع الحديث عنه ضمن هذه الدراسة .

يتضح مما سبق أن الحقبة التي أعقبت وفاة صلاح الدين الأيوبي ، شهدت تحولا جذريا في السياسة الأيوبية ، تجاه الصليبيين ، مقارنة بما كانت عليه في الحقب السابقة ، وذلك أن الملك الكامل ومن أعقبه من السلاطين الأيوبيين حتى

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٢ ؛ غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام ، ص٧١-٧٢ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٦ .

سقوط الدولة الأيوبية في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، نظروا إلى الوجود الصليبي في المناطق الساحلية من بلاد الشام ، على أنه واقع مقبول ، بل وتعاملوا معه في صراعاتهم السياسية ، بين بعضهم بعضا ، وكان الثمن الذي ساوموا عليه هو تقديم الأراضي المقدسة التي حررها صلاح الدين الأيوبي منذ موقعة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، مقابل وقوف الصليبيين إلى جانبهم .

أمام هذه السياسة الأيوبية التي ميزت الحقبة ما بين سنتي (٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠م) ، والتي تناقضت في مجملها مع سياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه الصليبيين . ترى كيف نظر العلماء والأدباء إلى هذا التحول المناقض لجوهر موقفهم من الصليبيين مما أشير إليه في مراحل الصراع الثلاث بين الأيوبيين والصليبيين في الحقبة موضوعة البحث ؟

هذا ما ستتناوله الدراسة في المباحث التالية .

المبحث الثاني

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في الحقبة ما بين (٥٨٩-٦١٥هـ/١١٩٣-١٢١٨م)

لم تعكس هذه الحقبة في بداياتها ردود فعل لدى العلماء والأدباء ، ولعل مرد ذلك يرجع إلى الأثر الذي تركه غياب صلاح الدين الأيوبي عن مسرح الأحداث واختلاف أبنائه من بعده ، فقد كانوا على ما يبدو خلال ذلك في حالة ترقب ، مثلهم في ذلك مثل جمهور الناس الذين افتقدوا أجواء الجهاد ، وروح النصر ، فلما شهدوا بلادهم تتعرض لهجمات الصليبيين ، كما حصل سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م ، عندما هوجمت مدن اللاذقية ، وجبلة ، وصيدا ، وصور ، وحصن تبنين[١] ، وبيروت[٢] ، دون أية إجراءات حاسمة من قبل السلطنة الأيوبية ، بدأوا يسجلون تحفظاتهم ، ومطالباتهم بضرورة معالجة هذا الوضع الخطر ، وقد جاء أول رد فعل من القاضي الفاضل (٥٩٦هـ/١١٩٩م) ، وزير صلاح الدين الأيوبي ، حيث خاطب الملك العادل الذي كان آنذاك واليا على دمشق ، في رسالة إليه ركزت على ما يلي[٣] :

أولا : إن وصول الأعداء إلى بيروت والسيطرة عليها هو كارثة "**وما تجدد من وصول العدو اللعين إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة ، وأوقع في ضائقة** " .

ثانيا : إن وصول الأخبار بسيطرة الصليبيين على بيروت ، خلق حالة من القلق جعلت الفكر المتسع يضيق كما عبر عن ذلك القاضي الفاضل في رسالته قائلا : "**تنفق الأفكار فيها من سعة**" .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٤-٧٥

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص١٢٧ .

(٣) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٣ ، ص٤٣٧-٤٣٨ .

ثالثا : حذر من الانغمار في التفرق والاستماع إلى ما يعمق الخـوف وقال له : " انظروا إلى أنـكم الإسلام كله ، قد برز إلى الشرك كله" ودعا إلى الجهاد فقـال : " ... **وإنكم ظل الله ، فإن صححتم تلك النسبة ، فإن الله لا ناسخ لظله ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا تهنوا ، وإن ذهب الناصر ، فإن الله خير الناصريـن ، فما هـي إلا غمـرة وتنجلـي ، وهيعـة وتنقضي ، وليله وتصبح ، وتجارة وتربح"**(١) .

وقد استنكر العماد الأصفهاني تفريط والي بـيروت الـذي سـلم قلعتـه للصليبيين في ذات الحادثة المشار إليها آنفا ، وهو عز الدين أسامة فقال: (٢)

إنَّ بَيْعَ الحصون من غيرِ حَرْبٍ   سُنَّةٌ سنَّها ببيروتَ سَامَه
لعَنَ اللّه كلَّ مَنْ باعَ ذا البَيْعِ   وأخزَى بخِزْيِه مَنْ سَامَه

وكان تصرف أسامة هذا ، مثار استغراب شـاعر آخـر ، لـم تذكـر المصـادر اسمه ، حيث قال(٣) :

سَلّم الحِصْنَ ما عليك مَلامَةْ   ما يُلامُ الذي يَرُوْمُ السَّلامة
فعطاءُ الحصون مِنْ غيرِ حَرْبٍ   سُنَّةٌ سنَّها ببيروتَ سامَةْ

وحين أدرك جمهور الناس أن سياسة التساهل مع الصليبيين بدأت تتفـاقم في عهد الملك العادل الذي ظهر الأيوبيون خلاله بمظهر الضعف ، كما أشير إليـه في المبحث الأول ، قوبل ذلك برد فعل شعبي ، فقد قامت امرأة في دمشق ، بقـص شعرها ، وإرساله إلى الملك العادل ، تطلب منه أن يجعله قيدا لذيل حصانه ، إشـارة لتخاذله أمام الصليبيين ، بحيث أصبح تصرف هذه المرأة ظاهرة عامة بيـن النسـوة اللائي أخذن تقليدها ، وبما فعلته بشعرها ، حتى توفر من ذلك كميات كبيرة ، وقد قـام المؤرخ سبط ابن الجوزي الدمشقي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) بالاستفادة من تصرف النسوة

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٤٣٨ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٤ .

(٤)أبو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ٤ ، ص٤٤١ .

هذا ، في إثارة المسلمين وذكّرهم خلال حديث له في مجلس وعظ سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م في دمشق ، بمغزى تصرف النسوة هذا ، - ثم طلب - وهو على المنبر - أن يؤتى بما تجمع لديه من ذلك ، " **فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة** " ، ثم سار الجميع ، وعلى رأسهم ابن الجوزي نفسه ، ووالي دمشق وأعيانها الذين كانوا في مجلس الوعظ المشار إليه ، نحو الصليبيين في مدينة نابلس ، فهاجموها ، وحققوا بعض النصر عليهم .

ومع أن رد الفعل هذا ، كان محدود النتائج ، إلا أنه كان ذا دلالة كبيرة ، في توضيح مدى الضيق والرفض للسياسة التي اعتمدها الملك العادل تجاه الصليبيين ، من جمهور الناس ومن علمائهم(١) .

وظهر رد الفعل هذا أيضا في موقف الشيخ عبد الرحمن اليمني(٢) (ت٦٢٠هـ/١٢٢٢م) الذي آلمه أن يرى الملك العادل وغيره من الأمراء المسلمين منشغلين بقتال بعضهم بعضا ، في حين أنهم لم يؤدوا واجبهم تجاه الصليبيين ، فدخل عليه في مجلسه ، وعنفه ، وطلب منه الانصراف لقتال الصليبيين ، بدلا من الانشغال بقتال المسلمين(٣) .

---

(١) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٦٩-٧٠ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص١١١ .

(٢) هو أحد العلماء الصوفية ، اشتهر بجرأته في قول الحق ، وقد حاول العادل أن يغريه بإرسال المال إليه ، فلم يقبل منه ذلك ، توفي في دمشق سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٢م ودفن بمقابر الصوفية . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٣٦ .

(٣) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٣٦ .

المبحث الثالث

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في الحقبة ما بين

(٦١٥-٦٣٧هـ/١٢١٨-١٢٤٠م)

إن أبرز ما تمخضت عنه الحقبة ، مما أشير إلى تفصيلاته في المبحث الأول من هذا الفصل ، أن السياسة الأيوبية في عهد الملك الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م) ، أخذت منحنيين متناقضين ، فقد واجهت أولا الحملة الصليبية الخامسة بهجمة عسكرية موحدة تشكلت من القوات الأيوبية في مصر وبلاد الشام ، إضافة إلى انتقال رموز البيت الأيوبي من حكام بلاد الشام إلى مصر للمشاركة في التصدي للحملة المشار إليها ، وإجبارها على الجلاء عن دمياط ، ثم أعقب ذلك توجه جديد تبناه الملك الكامل ، وظهر خلال المفاوضات مع رجال الحملة الصليبية الخامسة ، حيث عرض عليهم استعداداته للتنازل عن بيت المقدس ، وكل ما حرره صلاح الدين الأيوبي في فلسطين وبلاد الشام ، باستثناء الكرك والشوبك[١] ، وهو الاتجاه الذي شكّل السياسة التي اعتمدها الملك الكامل طيلة فترة حكمه ، وبخاصة تنازله عن بيت المقدس بعد مجيء الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك بربروسا بموجب اتفاقية يافا سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٢] .

أمام هذين الاتجاهين في سياسة الملك الكامل وقف العلماء والأدباء موقف المسند والملتزم بالاتجاه الأول ، وموقف الناقد والرافض للاتجاه الثاني ، وما أفرزه من تصرفات على النحو التالي :

أولا : دور المؤرخ الفقيه سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، في دفع أمراء بني أيوب للتحرك وتشكيل جبهة موحدة ضد الصليبيين :

قام الفقيه سبط ابن الجوزي باستنهاض الهمم والتحريض على الجهاد ، في أعقاب وصول الحملة الصليبية الخامسة ، ومحاصرتها لدمياط ، كما أنه استجاب

(١) حول ذلك أنظر أعلاه ص١٦٣ من المبحث الأول من هذا الفصل .

(٢) حول ذلك أنظر أعلاه ص١٦٥ من المبحث الأول من هذا الفصل .

لطلب الملك المعظم عيسى منه لإقناع أخيه ؛ الأشرف موسى في المشاركة في إنجاد أخيهما ، الملك الكامل ، في مصر ، لدفع الصليبيين عن دمياط ، فتوجه سبط ابن الجوزي إلى الأشرف ومعه رسالة من الملك المعظم فلما وصل إلى مدينة سلمية خرج الأشرف لاستقباله ، حيث خاطبه قائلا : " **المسلمون في ضائقة وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت ، وعفوا آثار مكة ، والمدينة ، والشام ، وأنت بُلَغْت قُمْ الساعة وارحل** "(١) .

وفي ذلك يقول سبط ابن الجوزي :

" **قد سحبت على الأشرف إلى هذا ، بأسناني ، وهو كاره في كل يوم أعتبه في تأخره وهو يكاشر ، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر ، وهو صديقك فاشتهي تروح إليه فقد سألني عنك مرارا** "(٢) .

كما قام سبط ابن الجوزي بحض الناس على الجهاد أيضا ، بناء على طلب الملك المعظم عيسى من أجل مساندة أهل مصر ، ويظهر أن هذه الدعوة لقيت قبولا عند أهل دمشق وأجابوه في بداية الأمر ، إلا أنهم ترددوا فيما بعد ، لأنهم لم يطلبوا رجالا فقط ولكن طلبوا الأموال أيضا ، إلا أن الناس لم يستطيعوا دفع الأموال(٣) .

ثانيا : مشاركة عدد من العلماء في الدفاع عن دمياط ضد الصليبيين :

شارك مجموعة من الشخصيات في الدفاع عن دمياط ، عندما سقطت بأيدي الصليبيين سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، واستشهدوا ومنهم ؛ إمام المالكية ومرجعهم ، جلال الدين بن شاس(٤) (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) ، والفقيه الزاهد أبو علي

---

(١) أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١٢٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٢٤٠ .

(٢) أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١٢٨ .

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٢٣٩ .

(٤) هو أبي محمد عبدالله بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبدالله بن محمد بن شاس الجذامي السعدي ، فقيه مالكي المنعوت بالجلال ، توفي في رجب سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م . أنظر : المنذري ، التكملة ، جـ٢ ، ص٤٦٨ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٦١ .

حسن المعروف بالطويل[١] (ت٦١٦هـ/١٢١٩م) ، والفقيه محمد بن أبي القاسم بن عبدالله الهكاري (ت٦١٦هـ/١٢١٩م)[٢] . وكان الفقيه أبو طاهر محمد بن الحسين بن عبدالرحمن الأنصاري[٣] (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م) ، خطيب الجامع العتيق في مصر ، ممن شارك في الدفاع عن دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، وقد برهن عن شجاعته وقاتل قتالا شديدا ، وأصيب في المعركة [٤] ، أما الفقيه عبدالله اليونيني[٥] (ت٦١٧هـ/١٢٢٠م) ، الملقب بأسد الشام ، والذي كان يحمل قوسه ، الذي يزن ثمانية عشر رطلا[٦] ، فقد حارب الصليبيين في معارك عديدة حتى استشهد .[٧] وشارك أيضا الفقيه ضياء الدين محمد بن إسماعيل الصويتي (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م) في الجهاد ضد الصليبيين [٨] .

---

(١) هو أبو علي بن عبدالله بن الخير التونسي المالكي المعروف بالطويل ، تفقه على مذهب أبي عبدالله مالك بن أنس رضي الله عنه ، توفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م . أنظر : المنذري ، التكملة ، جـ٢ ، ص٤٧٦-٤٧٧ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ،جـ٦ ، ص٢٢١ .

(٣) هو أبو الطاهر محمد بن عبدالرحمن الجابري من ولد جابر بن عبدالله الأنصاري -رضي الله عنه- اشتهرت نسبته بالمحلي ، ولد سنة ٥٥٤هـ/١٢٥٩م ، وتوفي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٦٣-١٦٤ .

(٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٥ ، ص٢١ .

(٥) هو عبدالله بن عثمان اليونيني ، كان شيخا مهيبا ، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين توفي سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٢٥ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ٤ ، ص٣١ .

(٦) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٢٥ .

(٧) المصدر نفسه ، ص١٢٦ .

(٨) المصدر نفسه ، ص١٢٦ .

ثالثا : الإشادة بنجاح الجهود التي بذلها أمراء بني أيوب ، في تحقيق الجلاء عن دمياط .

كان لانتصار الأيوبيين على الصليبيين في دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، أثره البالغ بين جمهور الناس ، وعديد من الشخصيات ، ومن بين هؤلاء الشاعر ابن النبيه[١] (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) ، الذي مدح الأشرف موسى وحرضه على استئصال شأفة الصليبيين من عكا ، وصور حيث قال[٢] :

الويلُ للروم والإفرنج مِنْ ملكٍ له من النصر والتأييدِ عاداتُ
أينَ النجاةُ لسربِ الروم مِنْ أسدٍ ضارٍ لهُ مِنْ رماح الخطِ راياتُ
دمياطُ طورنا ونارُ الحربِ موقدة وأينَ موسى وهذا اليومُ ميقاتُ
عكا وصور إلى رُؤياك عاطشة فانهضْ فقدْ أمكنتَ منهُن خلواتُ
واستخبر الريحَ عنها إذ لسيره إليكَ فهو سلامُ أو تحياتُ

---

(١) هو علي محمد بن النبيه ، كتب الإنشاء للملك الأشرف موسى بن العادل ، ثم غادر الديار المصرية ، وسكن نصيبين ، توفي فيها سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١٨٨ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ٣ ، ص١١٨ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢١٢ .

وقال الشاعر ابن عنين[1] (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) في قصيدة ، مدح بها المعظم عيسى، بسبب دوره في محاربة الصليبيين في دمياط [2] :

سَلو صهواتَ الخيلِ يومَ الوغى عنّا إذا جهلتَ آياتُنا اللدُنا
غَدَاة لقينا دونَ دمياطَ جحفلاً مِنْ الرومِ لا يُحصى يقيناً ولا ظناً

وفي قول أبي الحسن السخاوي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) مادحا المعظم عيسى، بعد أن تحقق النصر [3] :

وَسَرَى الملكُ المولى المعظمُ في الدُّجَى فاطلعْ نجمُ النصر بَعْدَ مَغِيبِهِ
وَرَدَّ على الإسلام بَعْدَ كآبةٍ سروراً وأولى الدين بَعْدَ شحوبِهِ
تجلى بعيشٍ غمها واعتدى بها فريداً وأضحى بحرُها من نصيبِهِ

وأشاد الشاعر راجح الحلي بالنصر الذي حققه الأيوبيون في دمياط حيث قال[4] :

هنيئاً فإن السعد راح مخلدا وقد أنجزَ الرحمنَ بالنصرِ موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدالنا مبينـاً وأنعامـا وغرا مؤيـدا
تهلل وجه الدهر بَعْدَ قطوبهِ وأصبحَ وجه الشّرْكِ بالظلم أسودا
ولمَّا طغَى البحرُ الخضمُ بأهلهِ طغاةُ وأضحَى بالمراكبِ فريدا

---

(١) هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين ، ولد في دمشق سنة ٥٤٩هـ/١٢٥٤م ، توفي في دمشق سنة ٦٣٠هـ/١٢٢٨م . أنظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٩٧ ؛ الكبتي ، فوات الوفيات ، جـ١ ، ص٢٢٠ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢١٣ .

(٣) أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٢٩ .

وقال الشاعر بهاء الدين بن زهـــير[1] (ت٦٥٦هــــ/١٢٥٨م) ، مشــيدا بالنصر ومعبرا عن فرحة بغداد بما حققه بالملك الكامل من نصر في دمياط : [2]

بكَ اهتزَّ عطفُ الدين في حُلل النصر   وردت على أعقابها مِلةُ الكفر

وما فرحتْ مصر بذا الفتح وحــدها   لقد فرحتْ بغدادُ أكثرُ من مصر

ولو لم يَقم في الله حق قيامـــهِ   لما سمتْ دار السلام مِنْ الذعر

وأقســمُ لو لا عزمــة كاملــيــةِ   لخافتْ رجالٌ المقام وبالحجر

رابعا :استنكار السياسات التي اعتبرها العلماء والأدباء ، مناقضة لــروح التصدي للإفرنج الصليبيين :

شهدت هذه الحقبة مواقف سلبية مناقضة لروح التصدي للصليبيين ، وقــد ووجهت هذه المواقف بالرفض من قبل عدد من شخصيات هذا العصر على النحـــو التالي :

أ – موقف العلماء والأدباء من قيام المعظم عيسى بهدم أســوار القــدس سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م :

١ – استنكار وذم ما حدث ، وهذا ما عَبّرَ عنه شاعر ، لم تذكر المصادر اســمه حين قال :[3]

في رَجَبٍ حَلّلَ الحُميَّا وأخرب القُدْسَ في المحرَّمْ

---

(١) هو بهاء الدين زهير بن علي الأزدي ، ولد في مكة سنة ٥٨١هـــ/١١٨٥م وتوفــي فــي مصــر ســنة ٦٥٦هــ/١٢٥٨ . كان كاتب الديار المصرية في عهد الصالح نجم الدين أيوب . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٢٠١ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢١٣ .

(٣) أبو شــامة ، الذيل على الروضتين ، ص١١٦ ؛ سبط ابن الجــوزي ، مــرآة الزمــان ، جـــ٨ ، ق٢ ، ص٦٠٦ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣٠٥ .

وفي قول قاضي الطور[١] ، مجد الدين الحنفي[٢] ، ينعي ما حدث في القدس من خراب[٣] :

مَرَرْتُ على القُدْسِ الشريفِ مُسَلِّمَاً ... على ما تَبَقَّى من رُبوع كأنْجُم

ففاضت دُموعُ العَيْن منّي صبابةً ... على ما مضى من عصرنا المتقدِّم

وقد رام علجٌ أن يُعفّي رُسُومَهُ ... وشمَّر عن كَفّي لئيم مُذَمَّم

فقلتُ له شُلّتْ يمينك خَلّهَا ... لمعتبرٍ أو سائلٍ أو مُسَلّم

فلو كان يُفْدَى بالنفوس فديتهُ ... بنفسي وهذا الظَنُّ في كلِّ مُسْلِمِ

---

(١) جبل عال مطل على عكا عمر الملك العادل سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، أو في السنة التي قبلها قلعة عليه ، وقيل أنه كان عليه قلعة في أيام الصليبيين ، ملكها الأيوبيون ثم خربوها لما ملكوا عكا . أنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢١٥ .

(٢) هو مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي ، اشتغل بالتدريس في المدرسة المعظمية في دمشق . أنظر : أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١١٦ ؛ النعيمي ، الدارس ، جـ١ ، ص٥٨٦ .

(٣) أبو شامة ، الذيل علي الروضتين ، ص١١٦ .

٢ – تصوير الخراب الذي حل بالصخرة والأقصى ، والمدارس ، وحال الأعداء إزاء ذلك ، وما في نفوسهم فقد جاء على لسان محمد بـــن المبـــارك القرقســـاني[(١)] خطيب في بيت المقدس قوله : [(٢)]

مُصَاب القدس قد سَلبَ الرّقادا وقد لبسُ الخطيب به حدادا
وقاضيه قضى نحباً وإن لم يمتْ الخرابِ ما أعلى وشادَا
ونادى المسجد الأقصى أيرضى بهذا الفعل من فرض الجهادا
ومنبرهُ الشريف يئنّ خوفاً ومما حَلَّ بالمحرابِ مَادا
ولا تَرْقى لصخرته دموع فكم قد أقرحتْ أسفاً فؤادا
كذا محراب داودِ علته الـــ ـكآبةُ دمعُه مَجْلى العِهَادا
ولازمَ باب رحمته عذاب وسَحَّ الطورُ أدمعَه وجادا
وأصبحت المدارس مُعْولات تُريق محابر الفتيا المدادا
وما عَنْ عيْن سلوان سُلُوًّا لساكنه ولو ملك البلادا
وبيت خليله وَجِلٌ لما قد أصاب سواه يَرْتعد ارتعادا
وَعند قُمامهِ اليوم التهاني تتيه ككاعب جاءت تهادى
إذا سمعتْ بدمياط وما قد أشيع تقول بُلّغْتَ المُرادا

---

(١) هو محمد بن مبارك بن علي القرقساني الخطيب ، ينسب إلى قرقيسيا وهي بلد في الجزيـــرة علـــى نـــهر الخابور ، كان يتولى الخطابة في بيت المقدس . أنظـــر : كمـــال الديـــن بـــن البركـــات بـــن الشـــعار (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان ، تح : نوري حمودي القيســـي ، محمـــد نايـــف الديلمي ، ط١ ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٩٩٢م ، جـ٦ ، ص٢٦١ . سيشار إليـــه تاليا : ابن الشعار ، قلائد الجمان .

(٢) ابن الشعار ، قلائد الجمان ، جـ٦ ، ص٢٦١-٢٦٢ .

ب – موقف العلماء والأدباء من تنازل الملك الكامل عن بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م :

سلم الملك الكامل القدس ، إلى الإمبراطور فريدريك الثاني ، بموجب اتفاقية يافا سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، فجاءت ردود فعل العلماء والأدباء على ذلك على النحو التالي :

١ – استنكر سبط ابن الجوزي في مجلس وعظ عقده في الجامع الأموي في دمشق ، ما قام به الملك الكامل وحرض على الجهاد ، وشنع على الكامل ما فعله ، وبين فضائل المسجد الأقصى ، وبيت المقدس ، وأثار الناس الذين اشتد بكاؤهم ، وصراخهم وأنشد قصيدة لشهاب الدين أبي يوسف بن المجاور (ت٦٠١هـ/١٢٠٣م) ، حيث قال : [١]

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفرُ العرصاتِ

ويذكر سبط ابن الجوزي أنه عندما وصلت أخبار تسليم بيت المقدس للإفرنج الصليبيين **"قامت القيامة في جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظائم ، بحيث أقيمت المآتم ، وأشار الملك الناصر [إليّ] بأن أجلس بجامع دمشق ، وأذكر ما جرى للبيت المقدس ، فما أمكنني مخالفته ، وحضر الناصر داود ، على الباب فشهد عليّ ، وكان يوما مشهودا ، لم يتخلف من أهل دمشق أحد"**[٢] وقام السبط باستثارة المسلمين

---

(٢)ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٤٤٦ ؛ الحنبلي ، الأنس الجليل ، جـ١ ، ص٤٧ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٦٥٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٤١ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ن ص٣١١ ؛ أبو عبدالله محمد السيوطي (ت٨٨٠هـ/١٤٧٥م) ، اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تح : أحمد رمضان أحمد ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢م ، ق٢ ، ص٢٣٦ . سيشار إليه تاليا : السيوطي ، اتحاف الأخصا .

وتذكيرهم بالمنزلة التي كانت للمسلمين ، والمكانة التي كانوا عليها في حديث له[٣] :

"وما انقطعت من البيت وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كانت لهم من تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة ، تا الله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات " .

وكان رد الفعل على هذا المجلس أن الناس علت أصواتهم بالصراخ ، وكان مجلسا عظيما ، فقد أذن الأئمة في الصخرة ، والمسجد الأقصى على الدهليز في غير وقت الأذان[٢] .

وكان ابن واصل (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) قد حضر هذا المجلس وقال: **"وحضرت أنا هذا المجلس"** ووصفه بأنه **"كان يوما مشهودا وقد علا فيه ضجيج الناس ، وعويلهم ، وبكاؤهم"**[٣] .

ويظهر الاستنكار أيضا لما آل إليه مصير بيت المقدس ، في قصيدة لشهاب الدين بن المجاور ، حيث قال: [٤]

أعينيَّ لا تَرْقي من العَبَرَاتِ صِلي في البُكا الآصالَ بالبَكرَاتِ
لعلَّ سيولَ الدَّمْعِ يُطفئ فيضُها تَوَقُّدَ ما في القلبِ من جَمَرَاتِ
ويا قلبُ اسْعِرْ نارَ وَجْدِك كلّما خَبَتْ بادّكار يبعثُ الحَسَراتِ
ويا فَمُ بُحْ بالشّجْوِ منكَ لعلّه يَروِّح ما ألقَى من الكُرُبَاتِ

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٤٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٦٥٤ ؛ السيوطي ، اتحاف الأخصا ، ق٢ ، ص٢٣٧ .

(٢) بن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص٢٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٤ ، ص٢٤٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٣٠ .

(٤) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٣٣ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٨٠ .

على المسجدُ الأقصى الذي جلّ قدرهٌ على موطن الإخبات والصلوات
عفا بعد ما قد كان للخير مَوْسِمًا وللبرِّ والإحسان والقُرُبَاتِ
يُوافي إليه كلُّ أشعث قانتٍ لمولاه بَرٍ دائم الخلواتِ
خَلا من صلاةٍ لا يملُّ مقيمها تُوشّح بالآيات والسورات
خَلا من حنين التائبين وحُزْنهم فمِن بين نُواّح وبين بُكاة

وفي قول لشاعر مجهول ، مستنكرا الحال ذاته :[1]

عزيزٌ علينا أن نرى القدسُ تَخْرَبُ وشمْسُ مبانيه تزول وتغرُبُ
وقلتُ له : منا الدُموعُ لأنَّه على مثله تجري الدُموعُ وتسكبُ

وفي قول الشاعر أبو محمد عبد الرزاق الرسعني[2] (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) ، مستنكرا التفريط القدس ببيت المقدس ، غير مصدق لما حدث ، متمنيا لو أنه كان ميتا ، قبل أن تحل هذه المصيبة بالمسلمين: [3]

تعالوْا نُقيم الحزن في مجمع الإنس ونصبغُ أثواب المصيبة بالنّقس
ونعمل للإسلام أعظمَ مأتم كما أنَّ عُبَّادَ الطواغيت في عُرس
ونبكي دماً بعدَ الدموع وإنَّهُ قليلٌ على ما أصبنا من القُدْس
أيؤخذُ والإسلامُ فيه بقيةٌ فوا عجبًا أن النخاة من الحُمْس

---

(١) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣١٢ .

(٢) هو عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف بن أبي الهيجا الرسعني ولد سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م في رأس العين في الجزيرة الفراتية بين حران ، ونصيبين حفظ القرآن ، وقرأ الروايات ببغداد ، توفي في سنجار سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م . أنظر : ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، جـ٢ ، ص٢٧٤ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٣٠٥ .

(٣) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣١٢ .

مَناماً أرى أم يقظة ما سمعتُهُ أحقاً عبادَ اللّه أم خانني حسي
لئن تمَّ هذا الأمرُ ، لا تمَّ إنه لأشهى إلى نفسي حلوليَ في رَمسي
لئلا أرى داعي الضلال مُصوِّتا على المسجد الأقصى يؤذنُ بالنّقس
لعمرك هذا الرُزء لا هُلكُ هالكٍ ولا سُلبُ مالٍ ولا عَدَمُ النَفس

٢ – التعريض بالملوك الذين تنازلوا عن بيت المقدس واعتبار ما حدث وصمة عار ، حيث قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : "**وحكي أن فقيرا بات في القدس سمع قائلا يقول في الليل**"[(١)] :

إنْ يكُنْ بالشام قلَّ نَصيري وتَهدَّمت ثم دامَ هُلوكي
فلقد أصبحَ الغداة خرابي سمة العار في حياة الملوك

٣ – المطالبة بالحفاظ على الأماكن المقدسة وبخاصة بيت المقدس ، وهو ما جاء على لسان شهاب الدين بن المجاور ، حيث يقول :[(١)]
على المَسْجد الأقصى جلَّ قدْرُهُ على مَوْطِن الأخباتِ والصلواتِ
على منزلِ الأمْلاك والوَحْي والهُدى على مَشْهد الأبدال والبَدَلاتِ
على سُلم المعراج والصخرة التي أنافتْ بما في الأرض من صَخَرَاتِ
على القبلة الأولى التي اتجهتْ لها صلاةُ البرايا في ا ختلافِ جهاتِ
على خير مَعْمُورِ وأكْرَم عامرِ وأشْرفَ مبنيّ لخير بُنَاة
لتَبْكِ على القُدْس البلادُ بأسرها وتعلنُ الأحزان والتَّرحاتِ
لتَبْكِ عليها مكة فهي أختُهُا وتشكو الذي لاقتْ إلى عَرَفَاتِ
لتَبْكِ على ما حَلَّ بالقُدْس طيبةٌ وتشرحهُ في أكرم الحُجُراتِ

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٦٥٤ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣١٣ .

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٣٣ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣١٣ .

المبحث الرابع

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين

في الحقبة ما بين (٦٣٧-٦٤٨هـ/١٢٤٠-١٢٥٠م)

أفرزت هذه المرحلة كما أشير إليه في المبحث الأول من هذا الفصل ، اتجاهين في الموقف الأيوبي من الصليبيين ، أولها الذي يمثله الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والذي سار في الاتجاه ذاته الذي سلكه الملك الكامل – كما أشير آنفا – بالتحالف مع الصليبيين ، ومنحهم امتيازات في بيت المقدس ، وفلسطين وغيرها ، بل إنه ذهب إلى سياسة أبعد من ذلك بكثير ، إذ لم تقتصر مساومته للصليبيين على تقديم ما كان بيد صلاح الدين الأيوبي ، بل أبدى استعداده لمنحهم أجزاء من مصر إذا هم اشتركوا معهم وتحقق النصر[١] على خصومه من الأيوبيين ، أما الاتجاه الثاني فقد كان اتجاها معتدلا ، مثله كل من الناصر داود ، والصالح نجم الدين أيوب ، ومع أن هاتين الشخصيتين شاركتا في سلوك ذات النهج السابق ، في الاتصال بالصليبين ، وتقديم تنازلات لهم ، فإن ذلك لم يتكرر من قبلهما ، كما أنهما سلكا سلوكا مناقضا لهم ، فقد قام الأول بتوجيه قواته نحو بيت المقدس سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م ، وحررها من الصليبيين ، الذين كانوا يسيطرون عليها آنذاك ، وقام الثاني باتخاذ الاستعدادات العسكرية ، وتعبئة الجند لغرض التصدي للصليبيين ، واصطدم بهم فعلا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م عندما قدموا في حملة صليبية سابعة ، ورغم وفاته في أثناء المعركة ، فقد تمكنت قواته العسكرية من صدهم ، بل وتمكنوا من أسر كامل جيش الحملة ، وقائدها لويس التاسع (Luise IX)[٢] .

---

(١) حول ذلك أنظر أعلاه ص١٦٦ من المبحث الأول من هذا الفصل .

(٢) حول ذلك أنظر أعلاه ص١٦٨ من المبحث الأول من هذا الفصل .

أمام هذين الاتجاهين كان للعلماء والأدباء موقف هو :

أولا : موقف العلماء والأدباء من الفتح الثاني لبيت المقدس سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م :

كان الناصر داود واحدا من أدباء عصره ، وكانت رسالته التي كتبها بخط يده ، ووجهها إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م) ، يبشره بتحرير بيت المقدس على يده ، أول إسهامات رجال العلم والأدب تجاه هذا الحدث .[١]

كما أشاد الشاعر جمال الدين بن مطروح[٢] (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م) ، بهذا الفتح وأطلق عليه : الفتح القدسي الثاني لبيت المقدس ، واعتبره موازيا في أهميته لفتحها على يد صلاح الدين الأيوبي ، حيث قال : [٣]

المسجدُ الأقصى له عادةٌ سارتْ فصارتْ مثلاً سائرا
إذا غَدا للشركِ مستوطنا أن يبعثَ الله له ناصِرا
فناصر طهَّره أولاً وناصرٌ طهَّره آخِرا

---

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة(لبنان ، الأردن ، فلسطين) ، ص٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن إبراهيم المعروف بابن مطروح ، ولد في مدينة أسيوط سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م . اتصل بكبار رجال الدولة الأيوبية أيام سلطنة الكامل الأيوبي وابنه الصالح نجم الدين ، وأصبح من رجال الدولة ، توفي في أخريات سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، ودفن بسفح جبل المقطم في القاهرة . أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٨٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٥٨ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٢٤٧ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣٥١ .

ثانيا : موقف العلماء والأدباء من التحالف مع الصليبيين سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م :

عندما تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين ضد الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ، كان لذلك صداه ، فقام المسلمون بالإنكار على الصالح إسماعيل ذلك ، وعلى رأسهم مفتي وخطيب ، دمشق ، الشيخ عز الدين بن عبد السلام[1] (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) ، الذي عارض ما قام به الصالح إسماعيل من محالفة الصليبيين وأبطل الخطبة باسمه ، وكان ينتهي بنص يدل على معارضته لأفعال الصالح إسماعيل ، حيث كان يقول :"**اللهم أبرم لهذه الأمة أمرا رشدا ، تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وتنهي فيه عن معصيتك** "[2] ، إضافة إلى ذلك أفتى صراحة بتحريم بيع السلاح الصليبيين حيث قال :"**يحرم على المسلمين مبايعتهم لأنهم يتحققون أنهم يشترون السلاح ليقاتلوا به إخوانهم في الدين** "[3] .

---

(١)هو أبو القاسم عبد العزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي ، الدمشقي ، الشافعي ، ويلقب بسلطان العلماء . ولد في دمشق سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، وتوفي في مصر سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م . أنظر : اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ٤ ، ص١١٦ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢٠٩ .

(٢) السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢٤٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٥٥ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٠٤ .

(٣) السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢٤٣ ؛ ابن المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٠٤ .

وقد أيد الشيخ عز الدين بن عبدالسلام في موقفه الناقد للصالح إسماعيل شيخ المالكية أبو عمرو بن الحاجب[1](ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ؛ وكان لرأيهما أثر واسع في صفوف المسلمين ، وقد رد الصالح إسماعيل على ذلك بعزل العز بن عبد السلام عن الخطابة ، واعتقال الرجلين ، ثم نفيهما ، حيث توجها إلى مصر[2] .

---

(١) هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس بن عمر جمال الدين المعروف بابن الحاجب ، الفقيه المالكي الأصولي ، النحوي ، حفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالقاهرة وأتقن الفقه وأصوله ثم العربية والقراءات ، وصار من كبار علماء اللغة العربية وانتقل إلى دمشق سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م وبات في الإسكندرية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م . أنظر : اليافعي ، مرآة الجنان ، جـ٤ ، ص٨٩-٩٠ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢٢٩ .

(٢) إن ما آل إليه مصير عز الدين بن عبد السلام بعد هذا الموقف هو أنه عزل عن الخطابة واعتقله الصالح إسماعيل ، واعتقل معه الشيخ ابن الحاجب الذي شاركه في الإنكار على فعل السلطان ، ولما قدم الصالح إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما ، وألزم الشيخ العز داره ومنعه عن الإفتاء ، وبعد أن عزل العز اتجه إلى مصر والتقى بالناصر داود فأخذه إلى نابلس ، وذلك بعد أن تحالف الصالح إسماعيل والناصر داود ضد الصالح نجم الدين أيوب لأن ذهاب العز إلى مصر يشكل خطرا عليهما ، وبعد فترة عاد العز إلى بيت المقدس ، فوافق ذلك وصول الصالح إسماعيل مع عساكره وحلفائه من الصليبيين إلى بيت المقدس في طريقهم إلى مصر فلما علم بوجود العز فيها ، أرسل إليه بعض خواصه يطلب منه أن يصالحه فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ، وما كنت عليه ، وزيادة ، أن تتكسر للسلطان ، وتقبل يده لا غير ، فقال له : والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا أن أقبل يده ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به ، فقال : إذن أمر الملك باعتقالك ، فقال " **افعلوا ما بدا لكم** " فاعتقله في خيمة بجانب خيمة الملك ، فبقي العز في الاعتقال ، وأشغل وقته بقراءة القرآن الكريم ، وكان الملك يسمعه ، فقال يوما للفرنج تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ فقالوا : نعم ، قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون القدس ، ثم جددت حبسه ، واعتقاله لأجلكم . فقالت له ملوك الفرنج :"**لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها** ". أنظر : أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٧١ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢٤٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٣٠٥ .

ثالثا : موقف العلماء والأدباء من الحملة الصليبية السابعة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م :

جاء رد فعل العلماء والأدباء تجاه الحملة الصليبية السابعة التي وصلت إلى المنصورة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، على النحو التالي :

أ – التحريض على الجهاد ، ويظهر ذلك عندما ضاقت الأحوال بالمسلمين في مواجهة الصليبيين قبل معركة فارسكور ، التي وقعت سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، فقد كتب القاضي بهاء الدين زهير كتابا أرسله إلى أهل مصر جاء في جانب منه :

" **انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا في سبيل الله ، بأموالكم ، وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون**"[١] ، وقد قرأ على الناس فأثر في المسلمين فارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وخرج عدد كبير منهم ، لقتال الصليبيين[٢] .

ب – الإشادة بالانتصار الذي حققه المسلمون ، في معركة المنصورة ضد الصليبيين ، وهذا واضح في قول جمال الدين بن مطروح ، مشيرا إلى عظم الهزيمة ، التي لحقت بالصليبيين ، ومذكرا بالمصير الذي آل إليه لويس التاسع ؛ قائد الحملة المشار إليها ، الذي سبق أن وقع في الأسر ، ووضع سجينا في دار ابن لقمان ، وأوكلت حراسته إلى أحد الخدم المسمى صبيح :[٣]

قل للفرنسيس إذا جئته مقال ذي نصح وقول صحيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها تحسب أن الزمر يا طبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

---

(١) المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٤٦ .

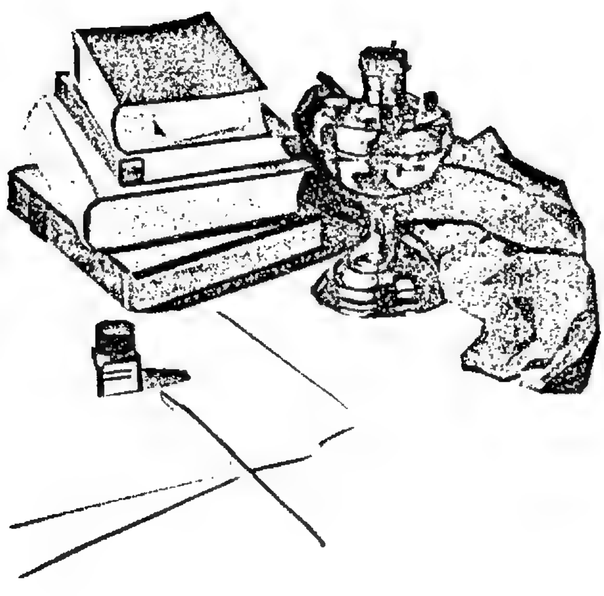
(٢) المصدر نفسه ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٤٧ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ١ ، ق٢ ، ص٣٦٣ .

خمسون ألفا لا يرى منهم إلا قتيلاً أو أسيراً أو جريح
وقل لهم إن اضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق ، والطواشي ، صبيح

هذه صورة عن موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عصر خلفــاء صلاح الدين الأيوبي ، عبر مراحل الصراع الثلاثة ، بين الصليبيين والأيوبيين فــي الفترة ما بين (٥٨٩-٦٤٨هـ/١١٩٣-١٢٥٠) ، أظهروا فيها موقفا تباين مع تبــاين السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين .

الخاتمة



الخاتمة

تحرت هذه الدراسة تشخيص موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي ، وحيث أن سياسات هذا العصر تباينت بين رفض لهذا الوجود ، وعمل دائب لتحرير ما استولوا عليه من أراض في بلاد الشام ، وفلسطين ، وبين قبول مؤقت لهذا في حدود هُدنٍ عقدت بين الطرفين ، وبين اندفاع نحو التحالف معهم ، وتقديم التنازلات لهم ، فقد تمت دراسة موقف العلماء والأدباء في إطار هذا التباين في السياسات الأيوبية ، مع الأخذ بنظر الاعتبار جذور هذا الموقف قبل حقبة الدراسة بثمانية عقود ، والتي تمتد من السنة التي وصلت فيها الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، وحتى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ؛ تاريخ قيام الحكم الأيوبي .

وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

أولا : إن الغزو الصليبي ، الذي تغلغل في بلاد الشام ، والجزيرة الفراتية ، سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م ، وأقام خلال سنتين من وصوله ثلاث كيانات سياسية في كل من : الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، قابله صمت من كل من ؛ الخلافة العباسية ، والسلطنة السلجوقية ، أما الخلافة الفاطمية التي نظرت إلى الحملة الصليبية الأولى ، على إنها عمل موجه ضد خصومها السياسيين من العباسيين ، فقد بادرت إلى إرسال بعثة إلى الصليبيين ، تظهر فيها رغبتها في عمل عسكري مشترك ضد خصميهما المشار إليها ، في إطار تقتسم به بلاد الشام بينها وبينهم .

ثانيا : إن أول رد فعلٍ مناهض ، للوجود الصليبي جاء في إطار شعبي ، ابتدأ بسنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م بمدينة دمشق ، ثم حلب ، فالموصل ، وكان على رأسه عدد من العلماء والأدباء الذين تنبهوا مع وصول الصليبيين إلى أنطاكية ، ومحاصرتهم لها ، أن الهدف الأساس لهم ، هو بيت المقدس ، وقاموا بالتنبيه إلى خطورة ذلك ، وانتقدوا حكام المسلمين المتقاعسين ، واستثاروا هممهم ، واتجهوا بوفود عديدة لمقابلة الخليفة العباسي ، والسلطان السلجوقي ، ونقلوا إليها صورة عن

الوضع الخطر في بلاد الشام ، مما يدحض ما ذهبت إليه إحدى الدراسات الحديثة ، من أن احتلال الصليبيين لبيت المقدس ، لم يترك رد فعل بين جمهور المسلمين آنذاك .

ثالثا : كان لهذا التحرك أثره الكبير في دفع السلطنة السلجوقية ، إلى توجيه أوامرها ، إلى الأمراء المحليين ، التابعين لها ، في الجزيرة الفراتية ، وبلاد الشام ، في التصدي للصليبيين ، مما خلق قاعدة للمقاومة ، كان أبرز من مثلها ؛ عماد الدين زنكي ، وابنه نور الدين محمود ، فالتف العلماء والأدباء حولهما ، وشاركوا في توعية جمهور المسلمين ، بأهمية الجهاد في سبيل الله ، بل وساهموا بمعارك ، واستشهد العديد منهم ، ومنهم من صنف كتبا في الجهاد ، وفي فضائل المدن الإسلامية بعد سقوطها في يد الصليبيين .

رابعا : أظهرت الدراسة تجاوز العلماء والأدباء لما كان يسود عصرهم من صراع ، بين العباسيين والفاطميين ، على أساس مذهبي ، فوقفوا صفا واحدا ضد الصليبيين ، بل أن هذا التوجه بينهم كان له أثره في بروز الدعوة إلى التوحد ، والعمل المشترك بين الزنكيين والفاطميين من أجل تحرير بلاد الشام ، وبيت المقدس بخاصة ، مما انعكس بشكل خاص في شعر كل من أسامة بن منقذ ، والوزير الفاطمي ؛ طلائع بن رزيك .

أما في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٤٨هـ/١١٧٣-١٢٥٠م) ، فقد أظهرت الدراسة أن موقف العلماء والأدباء من الصليبيين ، تباين مع تباين سياسيات هذا العصر تجاه الصليبيين ، وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية :

أولا : نظر العلماء والأدباء إلى خطوات صلاح الدين الأيوبي ، بين سنتي (٥٧٠-٥٨٢هـ/١١٧٤-١١٨٦م) ، والتي تحرى فيها إعادة وحدة بلاد الشام ، والجزيرة الفراتية ، تحت قيادته ، والقضاء على التحالف الزنكي - الصليبي ، على أنها - أي خطوات صلاح الدين الأيوبي - هي الطريق الصحيح الذي لابد من اكتماله من أجل القضية المركزية التي آمنوا بها ، وعملوا من أجلها ،

وهي قضية تحرير بلادهم من الصليبيين ، وبخاصة بيـــت المقـدس مـن خـلال التحريض على الجهاد ، والتبشير بفتح بيت المقدس ، والتنبؤ به .

ثانيا : نظر العلماء والأدباء إلى تبني صلاح الدين الأيوبـــي ، لسياســة المواجهة مع الصليبيين ، بعد نجاحه في تحقيق وحـــدة مصـــر ، وبــلاد الشــام ، والجزيرة الفراتية ، وإلى إنجازاته في معركة حطيـــن ســنة ٥٨٣هـــ/١١٨٧م ، باحترام كبير ، واندفعوا في تأييده من خلال ؛ المشاركة في القتـــال ، وفـــي رســم السياسة العليا للدولة في مواجهة الصليبيين ، والدعوة إلى استغلال النصـــر الــذي حققه صلاح الدين الأيوبي ، بفتح ما تبقى من مدن وقلاع بأيدي الصليبيين ، إضافــة إلى أنهم قاموا بحركة نشطة لسد الفراغ الثقافي والديني ، النـــاجم عــن الســيطرة الصليبية ، واعتبروا استرداد ، صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس اســتعادة لــتراث الأمة ، وماضيها ، وقاموا برصد ما قام به صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين فــي معركة حطين ، وتصوير الانهيار ، الذي حل بالجيش الصليبي ، والإشادة بـــالنصر الذي تحقق ، وربطوا بينه ، وبين الفتوحات الإسلامية ، وعبروا عن عمــق الفـــرح بفتح بيت المقدس عند جمهور المسلمين .

ثالثا : نظر العلماء والأدباء إلى السياسة التي اعتمدهـــا صـــلاح الديــن الأيوبي ، في سنيه الأخيرة نظرة تغيرت عما كانت عليه فـــي المرحلــة الســابقة ، فالنجاح الذي واكبوه سبعة عشر عاما (٥٦٩-٥٨٦هـ/١١٧٣-١١٩٠م) ، والتزموا به تعبيرا وسلوكا بدأ يتعثر ويواجه عقبات ، بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، والتي تعارضت مع سياسة المواجهة والحســم التـــي اعتمدهـــا صلاح الدين الأيوبي من قبل ، لذا فقد اندفعوا بالمشاركة فـــي القتـــال ، وتقديـــم المشورة ، والتخطيط للمعارك ، والمساهمة في الحملة التعبوية التي قام بها صـــلاح الدين الأيوبي بكسب بعض القوى الإسلامية إلى جانبه ضد الصليبيين ، وفي الحملــة التعبوية داخل دولته ، لتهيئة المسلمين لمواجهة جيوش الحملة المشار إليها ، وأخـذوا في مطالبة صلاح الدين الأيوبي ، بالحفاظ على القدس ، وشككوا بجدوى الهدنة التي وقعها مع الصليبيين .

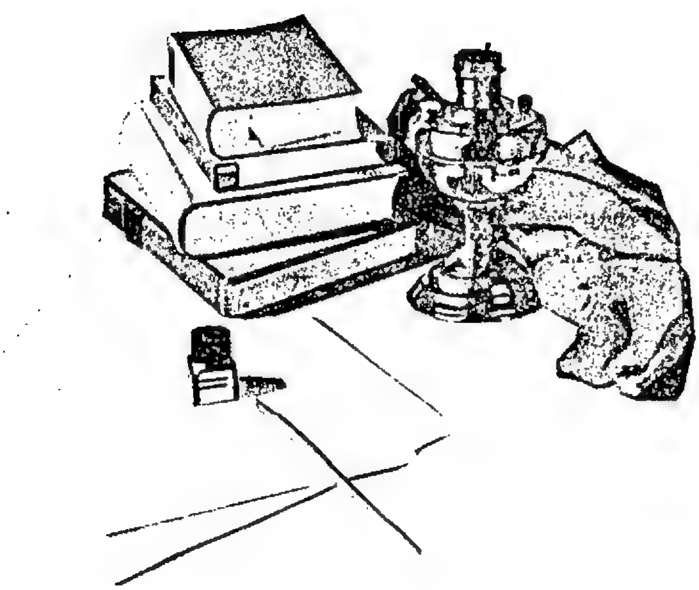
رابعا : نظر العلماء والأدباء إلى السياسة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، وبخاصة في عهد الملك العادل (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م) ، - والتي اتسمت بالمحافظة على الوضع القائم بالصيغة التي نص عليها صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م ، والتي تحرت أن تتصرف تجاه التحركات الصليبية بما لا يحولها إلى معارك كبرى - ، نظرة قامت على استنكار هذا النوع من السياسة .

خامسا : نظر العلماء والأدباء إلى السياسة التي تبناها الملك الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٨م) ، تجاه الصليبيين التي ظهرت بمظهر المستعد للمواجهة والتصدي للصليبيين أحيانا ، والاتجاه نحو أبعاد لم يعرفها الأيوبيون من قبل أحيانا أخرى ، وذلك بقبوله للوجود الصليبي ، واستعداده للتنازل عن بيت المقدس ، وما حرره صلاح الدين الأيوبي من مناطق ، نظرة تمثلت بداية بالإشادة بالنصر الذي حققه الأيوبيون في دمياط سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، واستنكار ما قام به الملك المعظم عيسى من تخريب أسوار بيت المقدس سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، وتنازل الملك الكامل عنه للصليبيين، بموجب اتفاقية يافا سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، والمطالبة بالحفاظ على الأماكن المقدسة ، وبخاصة بيت المقدس .

سادسا : نظر العلماء والأدباء إلى سياسة الأيوبيين تجاه الصليبيين ، في الحقبة التي تلت وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م ، وحتى سقوط الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، - والتي أفرزت اتجاهين متناقضين ، مثل الاتجاه الأول التحالف مع الصليبيين ، أما الاتجاه الثاني الذي كان معتدلا ، فقد تمثل بتحرير بيت المقدس ثانية ، من أيدي الصليبيين سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م ، وبمواجهة الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م - ، نظرة قامت على استنكار سياسة التخاذل ، الذي مثله الاتجاه الأول ، والتأييد لما قام به الأيوبيون ضد الصليبيين ، والذي مثله الاتجاه الثاني .

هذا ما كان عليه موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٤٨هـ/١١٧٣-١٢٥٠م) .

الملاحق



الملحق رقم (١) رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره بالفتوح التي سبقت تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م من إنشاء العماد الأصفهاني .

الملحق رقم (٢) رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره فيها بتحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م ، من إنشاء

الملحق رقم (٣) الخطبة التي ألقاها قاضي دمشق محي الدين بن الزكي القرشي في صلاة أول جمعة في بيت المقدس بعد تحريره على يد صلاح الدين الأيوبي (الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣ هـ / ٩ تشرين الأول ١١٨٧م) .

القاضي الفاضل .

الملحق رقم (٤) كتاب السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين في الاستنفار للجهاد ضد سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م .

الملحق رقم (٥) خطاب بقلم القاضي الفاضل مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي بالمغرب في سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م يستنجده على أثناء قتاله معهم حول عكا .

الملحق رقم (٦) خطاب بقلم القاضي الفاضل مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى شمس الدولة ابن منقذ – رسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن – يستنجده به ويطلب منه المساعدة بإرسال قطع من أسطوله أثناء حصار الصليبيون لعكا سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م .

الملحق رقم (٧) خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجده به على أثناء حصارهم لعكا (٢٨ شعبان ٥٨٦هـ/١١٩٠م) .

الملحق رقم (٨) رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسلة من صلاح الدين الأيوبي إلى شمس الدولة بن منقذ – وهو بالمغرب – ينهي إليه أخبار القتال حول عكا .

الملحق رقم (٩) جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين في مصر .

(٤٢٧ – ٥٦٧ هـ / ١٠٣٥ – ١١٧١م)

الملحق رقم (١٠) جدول بأسماء الخلفاء العباسيين في بغداد .

(٤٢٢ – ٦٥٦ هـ / ١٠٣١ – ١٢٥٨م)

الملحق رقم (١١) جدول بأسماء السلاطين السلاجقة .

(٤٢٩ – ٥٩٠ هـ / ١٠٣٧ – ١١٩٤م)

الملحق رقم (١٢) جدول بأسماء الولاة السلاجقة الموصل .

(٤٨٩ – ٥٢١ هـ / ١٠٩٥ – ١١٢٧م)

الملحق رقم (١٣) جدول بأسماء الأتابكة الزنكيين .

(٥٢١ – ٦٥٧ هـ / ١١٢٧ – ١٢٥٩م)

الملحق رقم (١٤) جدول بأسماء السلاطين و الأمراء الأيوبيين .

(٥٧٠ – ٦٤٨ هـ / ١١٧٤ – ١٢٥٠م)

الملحق رقم (١٥) جدول بأسماء الملوك الصليبيين في بيت المقدس .

(٤٩٣ – ٦٤٨ هـ / ١٠٩٩ – ١٢٥٠م)

الملحق رقم (١)

رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره بالفتوح التي سبقت تحرير بيت المقدس سنه ٥٨٣هـ/١١٨٧م من إنشاء العماد الأصفهاني [١][٢]

" وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ " [٣]

الحمدُ لله على ما أنجَز من هذا الوَعْد ، على نُصرته لهذا الدِّين الحنيف من قبْلُ ومن بعْد ، وعلى أن أجرى هذا الحسنة التي ما اشتملَ على شِبهها كرامُ الصَّحائف ، ولم يُجادَلْ عن مِثلها في المواقف ، في الأيام الأمامية الناصرية زادها الله غُررَاً و أوضاحاً ، ووالي البشائرَ فيها بالفُتُوح غُدُوّاً ورَوَاحاً ، ومكَّنَ سيوفها في كل مأزق ، من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة ، سَريَّة تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطالَ أيدي أوليائها لتحميَ بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحقَّ وقذفَ به على الباطل الزاهق ، وملّكها هَوادِيَ المغارب ومَراميَ المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابحَ ، وسيوفها للبلاد مَفاتِحَ ، وأطرافُ أسنَّتها لدماء الأعداء نَوازح .

والحمدُ لله الذي نَصرَ سلطان الديوان العزيز وأيَّده ، وأظفر جُنْدَهُ الغالبَ وأنْجده ، وجَلا به جلابيبَ الظلماء وجدّد جُدُده ، وجعل بعد عُسرٍ يُسْراً ، وقد أحدث

---

[١] القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص٥٦١-٥١٩ .
[٢] أنظر : الحسّو والرمضاني ، "رسالتان لصلاح الدين" .
[٣] سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٥ .

الله بعد ذلك أمراً ، وهوّنَ الأمرَ الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صَبْراً ، وخُوطِب الدينُ بقوله : " وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى " (١)

فالأولى في عصرْ النبي صلى الله عليه وسلم والصَّحابة ، والأخرى هذه التي عَتَقَ فيها من رقّ الكآبةِ ، فهو قد أصبحَ حُرّاً فالزمانُ كهيئته استدار ، والحقُّ بمُهْجَته قد استَنار ، والكُفر قد رَدَّ ما كان عنده من المستعار ، وغُسِلَ ثوب الليل بما فجَّر الفَجْرُ من أنهار النَّهار وآتى الله بنيان الكُفْر من القواعد ، ويشفي غليل صدور المؤمنين برقراق ماء المَوْردات البَوَارد . أنزل ملائكةً لم تَظهَر للعيون اللاحظة ، ولم تَخْفَ عن القُلوب الحافِظة ، عَزّت سيما الإسلام بمسوَّمها ، وترادفِ نصرة بمُرْدَفِها ، وأُخذت القُرى وهي ظالمةٌ فترى مُتْرَفيها كأن لم لؤو فيها ، فكَمْ أقدَمَ بها حَيْزُوم ، وركَضَ فأتبضعهُ سَحابُ عَجاج مَرْكوم ، وضَرَبَ فإذا ضَرْبه كتابُ جواح مرقوم ، وإلا فإنَّ الحروب إنما عُقِدَت سِجالاً ، وإنما جمعَتْ رجَالاً ، وإنما دَعَتْ خِفافاً وثِقالاً ، فإمَّا سيوفٌ تقاتِلُ سُيُوفاً ، أو زحوف تقاتِلُ زُحوفاً ، فيكون حدُّ الحديد بيدٍ مذكراً وبيدٍ مؤنثاً ، ويكون السيفُ في اليدِ الموحّدة يُغني بالضربة المُوَّحدة وفي اليد المثلّثة لا يُغني بالضَّرب مُثلثاً ، وذلك أنه في فئتين التقتا ، وعدوَّتين لغير مودَّة اعتنقتا . وإن هذه النُّصْرة إن زُويت عن ملائكة الله جُحِدَت كراماتُهم ، وإن زُوِيَت عن البشر فقد عُرفت قبلها مقاماتُهم ، فما كان سيفٌ يتَيقظُ من جَفْنه قبل أن ينبِّهه الصَّريخ ، ولا كان ضَرْب تطير الهام قبل ضَرْب يراه الناظر ويَسْمعه المُصيخ ،

---

(١) سورة طه ، الآية: ٣٧ .

فكم قرْيةٍ كأنّها هجرةُ الموت وبها التاريخ ، وكم طعْنةٍ تَخِرُّ لها هِضَابُ الحديد ولـــها شَمَاريخ .

والحمدُ لله الذي أعادَ الإسلام جَديداً ثوبُه ، بعد أن كان جَديـــدا حبلُــه ، مُبْيضـّــا نَصرْه ، مُخضَرا نَصلُه ، مُتسعا فضلُه ، مجتمعا شَمْلُه . والخادم يشرحُ من نبأ هـــذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ما يَشْرح صُدور المؤمنين ، ويمنحُ الحُبـــور لكافّــةِ المسلمين ، ويُكرِّر البُشرى بما أنعم الله به – من يوم الخميس الثالث والعشرين مـــن ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة – وتلك سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أيّام حُسُوما سَـــخّرها الله على الكُفّار " فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ " (١).

ورايتُها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الكُفْر باكية ، فيـــومَ الخميـــس الأوّل فُتِحَتْ طبريّة وفاضَ ريُّ النصر من بُحيرتها وقضت على جَسْرها الفرَنْجُ فقضـــت على نَحْبَها بُحَيْرتِها . وفي يوم الجمعة والسبت كُسِرَ الفرَنْجُ الكسرة التي مـــا لـــهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيْدي أوليائه أخْذ القرى وهي ظالمـــة . وفـــي يـــوم الخميس منسلخ الشهر فُتِحَتْ عكّا بالأمان ، ورُفعت بها أعلام الإيمـــان ، وهـــي أمُّ البلاد ، وأُخْتُ إرمَ ذاتِ العماد ، وقد أصبحَت كأن لم تَغْنَ بالكفر وكأنْ لم تفتقر مـــن الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليبُ الصّلبوت مأسور ، وقلبُ ملك الكُفْـــر الأســـير جيشهُ المكسور مكسور ، والحديد الكافرُ الذي كان في الكفر يَضْرب وجه الإســـلام ، قد صار حديداً مُسلِماً يُفَرِّق خُطوات الكُفْر عن الأقدام ، وأنصار الصليب وكبَـــاره ،

وكُلٌّ مَن المعموديةُ عُمدتُه والدَّيْر دارُه ، قد أحاطت به يَدُ القبضة ، وأُخِذَ رَهْناً فــلا تُقبَل فيه القناطير المقنطرة مِن الذهبِ والفضَّة ، وطبريّةُ رُفِعَتْ أعــلامُ الإســلام عليها ، ونَكَصتْ من عَكَّا مِلَّةُ الكُفر على عَقِبَيْها ، وعَمَّرت إلــى أن شَــهِدَت يَــوْمَ الإسلام وهو خير يَومَيْها ؛ بل ليس من أيام الكُفر يوم فيه خير ، وقد غُسِلَ عن بـلاد الإسلام بدماء الشِّرك ما كان يتخلّلها فلا ضَرَر ولا ضَـير ، وقـد صـارت البِيَــعُ مساجِدَهم بها مَنْ آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المناحِرُ موقف لخطباء المَنــابر ، واهتزتْ أرضُها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتَجَّت لمَوَاقِــفَ الكــافِر ، والبــأسُ الإماميّ الناصريُّ قد أمضى مِشكاتَهُ على يدِ الخادم حتى بالدَّنِيِّ في الكنــائس ، وإنَّ عِزَّ أول الإسلام بحَطِّ تاج فارس ، فكم حطَّتْ سيوفُهُ في هذا اليوم من تاج فارس .

فأما القتلى والأسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً .

وأما فرسان الديوية والاستبارية فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نــار الجحيم ، ووصل الراحل منهم إلى الشقاء المُقيم ، وفتَكَ بــافرنس كــافر الكفَّــار ، ومُشيِّد النار ، من يَدِهِ في الإسلام كما كانت يَدُ الكليم ، وافترَّت الثُّصرة عــن ثَغــر عكَّا بحمد الله الذي يسَّر فتْحَها ، وتسلَّمها المِلَّةُ الإسلامية بالأمان وعَرَفَت في هـــذه الصَّفقة ربْحَها .

وأما طبريَّة فافترتها يدُ الحرب فأنهرت الحرب جُرْحَها .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : (٧)

فالحمدُ لله حمدا لا تضرب عليه الحدود ، ولا تزكّى بأزكى منه العقود ، وكأنـــه بالبيت المقدّس وقد دَنا الأقصى من أقصاه ، وبلّغ الله فيه الأمَل الذي علم أن يُحصيَه وأحاط بأجَلّه وأقصاه ، لكلّ أجلٍ كتاب ، وأجل العدّو هذه الكتائب الجامعة ، ولكـــلّ عملٍ ثواب ، وثوابُ من هدى لطاعته جناتُ نعيمة الواسعة ، والله المشكورُ على مـــا وهب ، والمسؤول في إدامة ما استَيقظ من جَدّ الإسلام وَهَبَّ .

وقد توجه من جانبه الأميرُ رشيدُ الدين دام تأييده في إهداء هذه البُشرى نيابةً عن الخادم ، ووصف ما يَسَّره الله لأوليائه من العزائم . والبلادُ والمــعَاقِل التي فُتِحَــتْ هي : طبريّة ، عَكّا ، الناصرَة ، صفُوريّة ، قيْســاريَّة ، نابُلس ، حَيْفــا ، مَعليــا ، القزلة ، الطُور ، الشقيف ، وقلاعٌ بين هذه كثيرة . والولدُ المظفّر تقي الدين بصــور وحصْن تَبْنين . والأخُ العادل سيفُ الدين نصره الله قد أوفت بالوصول مِن عنده مَـن يَعْندهُ مِن العساكر فينزل في طريقه على غزّة وعَسقلان ، ويجهِّز مراكب الأســطول المنصود ويُكثِر عددها ، ويَسير بها إلى ثَغر عكّا المحروس ويَشْحنها بالرجال ويوفّر سلاحها وعُدَدِها ، والنهوض إلى القُدْس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضّــلال ، وقد آن أن يستقرّ فيه الهدى مشكور الإحسان ، إن شاء الله تعالى'' .

الملحق رقم (٢)

رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يبشره فيها بتحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م من إنشاء القاضي الفاضل [١][٢] .

'' أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد ، غنيا بالتوفيق عن رأي كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المجاهد ، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد ، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنبل غوي وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة ، تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة . والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ،

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص ٤٩٠ – ٥٠٤ .

(٢) أنظر : الحسّو ، أحمد ، الرمضاني ، عبد الواحد ، "رسالتان لصلاح الدين الأيوبي بعث بهما إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله حول القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وما سبق ذلك من انتصارات " دراسة وتحقيق ، غزو الفرنجة للأراضي العربية ، "الحروب الصليبية" ، مجلة المورد ، مج ١٦ ،ع ٤ ، ١٩٨٧ . سيشار إليه تاليا : الحسّو والرمضاني ، رسالتان لصلاح الدين .

ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب ولله صارت أمـــور الإســلام إلــى أحســن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلــص ظــل رجــاء الكافـــر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه ، وأمر أمــر الحق وكان مستضعفا ، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنــوف أهل الشرك راغمة فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله فـــي إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عنـــدها حيــان الحين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا انـــهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت علـــى الأقصى أعلامهــم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخــرة كما تشفى بالماء غللهم .

ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود ببــت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لـــهذه العظمـــى ، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطله في حربـــه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة إلـــى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بـــالعرض الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبـــها بالاحتقــار ، وكـــانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبـــار ، ومـــن طلـــب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقته رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلي غمرة غــامر ،

وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعظها ، ويضعف في أيديها مـــهر القوائم فتقضها ، هنا إلى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ولا يرعى بـــه حق الله في العباد ، ولا يوفي به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمـــة قضـــوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم لله يتسألون ، لا جـــرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشـــريفة ، وطلعتهم المنيفة وعلوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد القلم وبياض الصحيفة ، فمـــا غابوا لما حضر ولا غضوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان بـــه موصـــولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص إليهم إلى المضاجع مـــا اطمأنت به جنوبها وإلى الصحائف ماعبقت به جنوبها وفاز منها بذكر لا يزال الليـــل به سميرا والنهار به بصيرا ، والشرق يهدي بأنواره ، بل أبدى نورا من ذاته هتـــف به الغرب بأن وراه ، فإنه نورا لا تكنه أغساق السدف ، وذكـــر لا يواريـــه أوراق الصحف .

وكتاب الخادم هذا ، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا حصى ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف منه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يـد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكـــانت عيـــون السيوف دونها كسيفه ، ونـــام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نظـــف الكـــرى مـــن الجفون ، وخدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راكضة بـــالمنون ، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكـــان

عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية مذعنة يبذل المطامع الوافية ، لا يرون في الماء الحديد لهم عصرة ، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكته ، فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثأر فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه ، وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، والإسلام مولودا وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه وأكد وصله بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهائمهم يبسط لهم باعة ، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعة ، لا جرم أنهم تهافت على نارهم فراشهم ، وتجمع في

ظل ظلامه خشاشهم ، فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقـه ويرونـه ميثاقا يبثون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سراتهم ، وذهبت دهـاتهم ، ولـم يفلـت معـروف إلا القومص ، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال ، ويوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف؟ وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيـام بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذلك ، وأنتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسـية السوداء صبغا ، البيضاء صنعا ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة هي وعزائـم أوليائها المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البشر ، وأشارت بأنامل العذبات وإلى وجه النصر ، فافتتح بلد كذا وكذا ، وهذه أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بـلادا وهـي مزارع وفدن وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر وبحار وجزائر ، وجوامـع ومنـائر ، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ويحصد منها كفرا ويزرع إيمانا ، ويحط من منائر جوامعها صلبانا ويرفـع آذانـا، ويبدل المذابح منابر والكنائس مساجد ويبوىء بعد أهل الصلبان أهل القـرآن للـذب عن دين الله مقاعد ، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصـر فيـه ومـن عسكره بجار ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله ، إلى يوم النفخ في الصور ، ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليـها شـريد منـهم وطريـد واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيسـتها

إلى الله شافعتهم ، فلما نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من جانب ، فإذا أودية عميقة ولجج وعرة غريقة وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقر الدار ، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها معرج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها ، وضربت خيمته ليبحث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السور بأكنافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الخد عن عتق الصفح ، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظارا لنجدة ، فعرفهم في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول وقدم المنجنيقات ، التي تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها ، فصافحت السور بأكنافه فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك ، فشجع مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، فأمكن الثقاب ، أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الصخر إلى سيرته من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده ، بأنياب معولة ، وحل عقده ، بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينة واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض ، وفتح في

السور باب سد من نجاتهم أبوابا ، وأخذ نقب في حجره ، قال عنده الكافر " يَـــالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا "(١) فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .

وفي الحال خرج طاغية كفرهم وزمام أمرهم ابن بارزان سائلا أن يؤخذ البلـــد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة وألقى بيده إلى التهلكة ، وعـــلاه ذل الملكـــة بعد عز المملكة ، وطرح جبينه في التراب ، وكان حينا لا يتعاطاه طارح ، وبـــذل مبلغا من القطيعة لا تطمع إليه طرف آمل طامح ، وقال : هاهنا أســـارى مؤمنـــون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاقد الفرنج على أنهم إن هجمت عليهم الـــدار ، وحملـــت الحرب على ظهورهم الأوزار بدئ بهم فعجلوا ، وثني بنساء الفرنـــج وأطفالـــهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ، ولم يسل سيف مـــن يد إلا بعد أن تنقطع أو ينقصف ، وأشار الأمراء بـــالأخذ بالميســـور ، مـــن البلـــد المأسور ، فإنه إن أخذ حربا فلا بد أن تقتحم الرجال الأنجاد ، وتبذل أنفسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد ، وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منـــها مـــا اعتقـــل الفتكات ، واعتاق الحركات ، فقبل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون ، وانصـــرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون ، وملك الإســـلام خطة كان عهده بها دمنة

---

(١) سورة النبأ آية ٤٠

سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لا جرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق واسخطهم ـ فإنهم – خذلهم الله – حموها بالأسل والصفاح وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية ، منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ، ولا يطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توشيعه ، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمدا كالأشجار لها من إلتنبيت أوراق .

وأوزع الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان ، فكادت السموات يتفطرن للسجوم لا للوجوم ، والكواكب ينثرن للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة ، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يعقدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الأقرب من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماه في حفافيه ، فلو طار به سرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور ، فإن قوى العساكر قد استنفذت قواردها ، وأيام الشتاء قد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها . فهي بلاد ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولا تستنفذ ، وينفق

عليها ولا ينفق منها ، وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المرابط لبرها ، ويدأب في عمارة أسوارها ومرمات معاقلها ، وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة ، فلن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع .

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخص . فلذلك نفذنا لسانا شارحا ومشيرا صادحا ، ينشر الخبر على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته " .

الملحق رقم (٣)

الخطبة التي ألقاها قاضي دمشق محي الدين بن الزكي القرشي في صلاة أول جمعة في بيت المقدس بعد تحريره على يد صلاح الدين الأيوبي (الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣ هـ / ٩ تشرين الأول ١١٨٧) [١] .

" فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " [٢] .

" الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ " [٣]

" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ " [٤]

" وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا " [٥]

" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ " [٦]

" قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى " [٧]

" الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " [٨]

" الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ". [٩]

---

(١) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج٣ ، ص ٣٨٤ – ٣٩٠
(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٤٥
(٣) سورة الفاتحة ، الآيات : ٢ – ٤
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١
(٥) سورة الإسراء ، الآية : ١١١
(٦) سورة الكهف ، الآية :١
(٧) سورة النمل ، الآية : ٥٩
(٨) سورة سبأ ، الآية : ١
(٩) سورة فاطر ، الآية : ١

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومُذِلِّ الشِّرك بقهره ، ومُصرِّف الأمور بأمره ، ومديم النِّعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قـــدَّر الأيـــام دولاً بعَدْلـــه ، وجَعَلَ العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظلّه ، وأظهر دينه على الديـــن كله ، القاهرُ فوق عباده فلا يُمانع ، والظّاهرُ على خليقته فلا يُنازع ، والآمـــرُ بمـــا يشاءُ فلا يراجع ، والحاكمُ بما يريدُ فلا يدافع .

أحمده على إظفاره وإظهاره ، وإعزازه لأوليائه ونَصْرِه لأنصاره ، وتطـــهيره بيتِه المقدَّس من أدناس الشرك وأوضاره ، حَمْدَ من استشعر الحمـــد بـــاطنُ ســـرِّه وظاهرُ جَهاره .

وأشهدُ أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الأحـــد الصمد الذي " لَمْ يَلِدْ وَلَـــمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ "(١) ، شهادة من طهَّر بالتوحيد قلبَه وأرضى به ربَّه .

وأشهدُ أنَّ محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشـــك ، وداحـــض الشرك وراحض الإفك الذي أسريَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعُرِجَ به منه إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى ، عندها جَنَّةُ المأوى ، مـــا زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه ، وعلى خليفته أبي بكر الصدّيق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى

---

(١) سورة الإخلاص ، الآية : ٢ – ٤

أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القران ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان .

أيها الناس ، ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالّة من الأمة الضالّة . وردّها إلى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام وتطهير هذا البيت الذي أذِنَ الله أن يُرْفع وأن يُذْكرَ فيه اسمه ، وإماطةِ الشرْك عن طرُقه بعد أن امتدَّ عليها رُواقه ، واستقَّر فيها رسمه ، ورَفع قواعده بالتوحيد فإنه بُنِي عليه ، وبالتّقوى فإنه أسِّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التي كنتم تُصلّون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقرُّ الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومَقرُّ الرُسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تَنَزُّل الأمر والنّهي ، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدَّسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقرّبين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه ؛ عيسى الذي شرَّفه الله برسالته ، وكرَّمه بنبوّته ، ولم يزحزحه عن رُتبة عبوديّته ، فقال تعالى : "لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ"(١) وقال تعالى : "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ "(٢).

(١) سورة النساء ، الآية : ١٧٢

(٢) سورة المائدة ، الآية : ١٧، ٧٢

وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، ولا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق ادماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا – رحمكم الله – هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء ، أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء .

أليس هو البيتُ الذي ذكره الله في كتابه ، ونصَّ عليه في خطابه ، فقال تعالى : "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه"[(١)] ، أليس هو البيت الذي عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتُلِيَتْ فيه الكتب الأربعة المنزّلة من إلهكم عزّ وجل ؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تَغْـرُب ، وباعد بين خطواتها ليتيسَّرَ فتحهُ ويقرُب ؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلات ، وغضب الله عليهم لأجله فألقاهم بالتيه عقوبة للعصيان ؟.

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل ، وقد فضّلهم على العالمين ، ووفّقكم لما خُذِلَ فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجَمَعَ لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته "كان" و "قد" عن "سوف" و "حتى" .

فليهنِكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم – بعد أن كنتم جنودا لأهويتكم – جُنْدُه ، وشكركم الملائكة المنزّلون ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمَطْتُم عن طُرُقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث فالآن يستغفر لكم أملاكُ السموات وتصلّي عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا – رحمكم الله – هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النّعمة عندكم ،

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١

بتقوى الله التي من تَمَسَّكَ بها سَلِمَ ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصِم ، واحذروا من اتّباع الهوى ، وموافقة الرَّدى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العِدَى ، وخذوا في انتهاز الفُرْصة ، وإزالة ما بقى من الغصَّة ، وجاهدوا في الله حقَّ جهاد ، وبيعوا عبادَ الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من عباده ، وإياكم أن يستزلّكمُ الشيطان ، وأن يتداخلكم الطُّغيان ، فيُخَيِّل لكم أن هذا النَّصر بسيوفكم الحِداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم في مواطن الجلاد ، لا والله "وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (١)

واحذروا عبادَ الله – بعد أن شرَّفكم بهذا الفتْح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصَّكم بهذا الفتح المُبين ، وأعْلَقَ أيديكم بحبله المتين – أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه فتكونوا كالتي نقضت غَزْلها من بَعد قوةٍ أنكاثا والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم ، انصروا الله ينصركم ، اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء وقطع شأفة الأعداء وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية .

الله أكبر ، فتح ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ١٠

واعلموا – رحمكم الله – أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ومهمة فاخرجوا لها هممكم وبرزوها وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون وقد قال الله تعالى : "فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ "[١] أعاننا الله وإياكم على أوامره والازدجار بزواجره وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده "إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ "[٢].

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة ، وقال بعد الدعاء للخليفة : اللهم ، وأدم سلطان عبدك ، الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبده الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي النظفر يوسف بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، واحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم ابق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٥

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٠

اللهم كما فتحت على يده البيت المقدس بعــــد أن ظنــت الظنــون ، وابتلــي المؤمنون ، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيــها ، وملكــه صيــاصي الكفــرة ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعــد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها .

اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه ، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء الممالك وأكنافها .

اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيــه وبنــي أبيــه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم .

الله كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ، وتتخلــد على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفذ فــي دار المتقيــن ، وأجب دعاءه في قوله "رَبِّ أوْزِعْنِي أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ وَأنْ أعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ "(١)

(١) سورة النمل ، الآية :١٩

الملحق رقم (٤)

كتاب السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين في الاستنفار للجهاد ضد الصليبيين سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م :[١]

" وقد مضت ثلاثة أشهر (شهر) بها التثليث وحل التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وقتل من الفرنج وعدم في الواقعات التي روعت (و) الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ، ورامح وتارس ونابل ، فما أثر ذلك في نقصهم ولا أرث إلى نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتي عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من في ديار الكفر ، فإنه لم يبقى لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبا ، وأنهضت كتائبها ، وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، وثار ثائرها ، وسار سائرها ، وطار طائرها ، ونقصت خزائنها ، وانفضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخائرها ، ونثلت كائن كنائسها ، واستخرجت دفائن نفائسها ، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها ، وعصت بالأفواج فجاجها ومسالكها ، وتصلبت للصليب السليب ، وتعصبت للمصاب المصيب ، ونادوا في نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر سفر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدره ، فجاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد ، وتواصلت منهم الأمداد " .

---

(١)أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٠٦-٣٠٧ .

الملحق رقم (٥)

خطاب بقلم القاضي الفاضل مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، الخليفة الموحدي بالمغرب ، في سنة ٥٨٦هـ ١١٩٠م ، يستنجده على الصليبيين أثناء قتاله معهم حول عكا (١) .

"فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ، أبواب الميامن ، وأسباب المحاسن ، وأحله كمن كفايته في الحرم الآمن ، وأنجزه من نصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كل رأي عليه الهوى رائن ، ومكن له في هذه البسيطة بسطة ، وزاره بالعلم غبطة ، حتى يكون للأنبياء بالعلم وللأرض بالعزم وارثا ، وقد يشيد بحادث قديما من مجده الذي لا يزال بغض الحديث حادثا .

كان من أوائل عزمنا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا ، وأن نتيمن بمكاتبتها ، ونتزين بمخاطبتها ، وننهض إليها أماثل الأصحاب ونستسقي معرفتها استسقاء السحاب ، وننتجعها بالخواطر ونجعل الكتب رسلها ، أيدي الرسل سبلها ، ونمسك طرفا من حبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا العالية طرفه ، ونمسح غرة سبق وارثها ووراث نورها سلفه ، ونتجاذب أعداء الله من الجانبيين ، لا يسيما بعد أن نبنا عنه نيابتين في نوبتين : فالأولى تطهير الأرضين المصرية واليمنية من ضلالة أغضت عيون الأيام على قذاها ، وأنامت عيون الأنام بائعة يقضتها بكراها ، ونيابة ثانية في تطهير بيت المقدس ممن كان يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ضلاله تأسيسه ، وما كان إلا جنة إسلام فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة ، وأعقبهم فيها إبليس الكفر وما أجارته مما أعقبه اللعنة ، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنة .

---

(١) أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٩٦-٤٩٩ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص٥٢٦-٥٣٠ .

ولما حطت لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذويه صلبان ؛ وأخرس الناقوس الأذان ، ونسخ الإنجيل القرآن ، وفكت الصخرة من أسرها ، وخف ما كان على قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها ، وبذلك أن يد الكفر غطتها وغمرتها.

فلله الحمد أن أحرمت هذه الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ماطر من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط ، فهناك غلب الشرك وانقلب صاغرا ، واستجاش كافر من أهله كافرا ؛ واستغضب أنفاره النافرة ، واستصرخ نصرانيته المتناصرة ، وتظاهروا علينا أن الله مولانا ، وطاروا إلينا زرافات ووحدانا ، فلم يبقي طاغية من طواغيهم ، ولا أثفية من أثافيهم ، إلا ألجم وأسرج ، وأجلب وأرهج ، وجاد بنفسه أو بولده ، وبعدده وبعدده ، وبذات صدره وبذات يده ، وبكتائبه برا ، وبمراكبه بحرا ، وبالأقوات للخيل والرجال ، والأسلحة والجنن لليمين والشمال ، وبالنقدين على اختلاف صنفيهما في الجمع ، وائتلاف وصفيهما في النفع ، وأنهض أبطال الباطل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل ، وحاف وناعل ، ومواقف ومقاتل ، كل خرج متطوعا ، وأهطع مسرعا ، وأتى متبرعا ، ودعا نفسه قبل أن يستدعى ، وسعى إلى حتفها قبل أن يستسعى ، حتى ظننا (أن) في البحر طريقا يبسا ، وحتى تيقنا أن ما وراء قد خلا وعسى ، وقلنا : كيف نترك ، وقد علم أنه يدرك ؟ وزادت هذه الحشود المتوافية ، وتجافت عنهم الهمم المتجافية ، وكثرت إلى أن خرجت من سجن حصرها ، ومستقر كفرها ، وبقية ثغرها – وهو صور – فنازلت ثغر عكا في أسطول ملك بحره ، وجمع سلك بره ، فنهضنا ، إليه ونزلنا عليهم وعليه ، فضرب معنا مصاف قتلت فيه فرسانه ، وجدلت شجعانه ، وخذلت صلبانه ، وساوى الضرب بين حاسر القوم ودارعهم ، وبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، فهناك لاذوا بالخنادق يحفرونها ، وإلى الستائر ينصبونها ، وأخلدوا إلى الأرض متثاقلين ، وحملوا أنفسهم على الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق ، وراحوا بين المجانق ، وكلما يجن القتل من عددهم مائة أوصلها البحر ممن يصل وراؤه بألف ، وكلما قالوا في أعيننا في زحف ، وقد كثروا فيما يليه من

الزحف ، ولو أن دربة عسا كرنا في البحر كدربتها في البر ، لعجل الله منهم الانتصاف ، واستقل واحدنا بالعشرة ومائة بالألف ، وقد اشتهر خروج ملوك الكفار في الجمع الجم ، والعدد الدهم ، كأنهم إلى نصب يوفضون ، وعلى نار يعرضون ووصولهم على جهة القسطنطينية – يسر الله فتحها – على عزم الإتمام إلى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل الصيف ، والعساكر أن يتطرق العدو إليهم وإليها ، ويفرغ لها ويتسلط عليها ، والله من ورائهم محيط ، وإذا قسمت القوة على تلقى القادم وتوقي المقيم ، فربما أضطر بالإسلام انقسامها ، وثمله والعياذ بالله انثلامها .

ولما مخض النظر زبده ، وأعطى الرأي حقيقة ما عنده ، ولم نر لمكاثرة البحر إلا بحرا من أساطيله المنصورة فإن عددها واف ، وشطره كاف ، ويمكنه – أدام الله تمكينه – أن يمد الشام منه بعد كثيف وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه وأن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغية صقلية ليحص جناح قلوعه أن تطير ، ويعق عباب بحره أن يغير ، ويعتقله في جزيرته ، ويجري إلى قبل جريرته ، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها ، فإذا نفذ طريقه وعلى الناس بموفده وأوردوا وأصدروا في موردته ، وشخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى البدار ، وهذا يستطلع لمن تكون عقبي الدار ، وخاف وطأة من يصل من رجال الماء من وصل من رجال النار ولو بزقت عليهم بازقة غربية لأغرقهم طوفانها ، ولو طلعت عليهم جارية بحرية لنعقت قيمهم بالشتات غربانها.

وما رأينا أهلا لهذه العزمة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخير فيه ، إذ كان منحه عادة في الرضى به وقدرة على الإجابة ، ورغبة في الإنابة ، ولاية لأمور المسلمين ، ورياسة للدنيا والدين ، وقياما لسلطان التوحيد القائم بالموحدين ، وغضبا لله ولدينه ، وبذلا لمذخوره في الذّبّ عنه دون ما عوده .

والآن فد خلا الإسلام بملائكته ، لما خلا الكفر بشيطانه ، وما أجلت السوابق إلا لإطلاقها ، ولا أثلت الذخائر إلا لإنفاقها ، وقد استشرفت المسلمون وطلعوها من

جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشى البحار ، ولیالي من المراكب تركب من البحر والنهار ، وإذا خفقت قلوعها خفقت للقلاع قلوب ، وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت عن الملاعين جنوب ، فهي بين ثغر كفر تعتقله وتحصره ، وبين ثغر إسلام تفرج عنه وتنصره ، يكون بها مصائب عن المسلمين (؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائده ، ويمضي سيف الله الذي لا يعدم في كل زمان فيعلم معه أن سيف الله خالد .

أعز الله الإسلام بما يزيد حضرة سيدنا عزها ، فيما مد عليها من ظلها ، وبما يسكنه من حرزها ، فما يبسط على الأعداء بها من بأسها ، وينزل بهم من رجزها ، وبما يجرده من سيوفها ، التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها .

قد أوفدناه على باب حضرة سيدنا ، وهو الداعي المسمع ، والمبلغ المقنع ، والمجمع المستجمع ، علمناه أمرا يسرا ، وبوأناه الصدر فكان وجها ، وأودعناه السر فكان صدرا" .

الملحق رقم (٦)

خطاب بقلم القاضي الفاضل ، مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى سيف الدولة ابن منقذ – رسوله إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن – يستنجده به ، ويطلب منه المساعدة بارسال قطعا من أسطوله ، أثناء حصار الصليبيين لعكا سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م .[(١)]

الأمير الأجل ، الاسفهسلار ، الأصيل ، العالم ، المحترم ، شمس الدين ، عدة الإسلام ، جمال الأنام ، تاج الدولة ، أمين الملة ، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص ، أدام الله توفيقه ، وبسر طريقه ، وأنجح مقصده ، وأعذب مورده ، وحرس مغيبه ومشهده ، وأسعد يومه وغده .

يستخير الله سبحانه ، ويتوجه – كيفما يسر الله – إلى الجهة الإسلامية المغربية ، – حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها – ويستقرى في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم ، وما يحبونه من القول : نزره أو جمه ، من اللقاء : منبسطة أو منقبضة ، ومن القعود بمجالسهم : مخففة أو مطولة ، من التحيات المتهاداة بينهم : ما صيغته وما موقعه ، وهل السنن الدينية أو العوائد الملوكية ، ولا يلقه إلا بما يحبه ، ولا يخاطبه إلا بما يسره .

والكتاب قد نفذ إليه ولم يختم ليعلم من خوطب به ، والمقصود : أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وما زلنا من البدع بها ، وعطلنا من الإلحاد فيها ، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها ، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفار من مصر ، فكانت مقدمة لملك الشام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا ، ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا ، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا ، وتفصيل ما جرى لنا مع الفرنج من

---

(١) أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٥٠٠-٥٠٤ .

الغزوات المتقدمة التي حسنا فيها خلال ديارهم ، وعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى ، وفتح البيت المقدس ، وتلك على الإسلام منة الله العظمى ، إلى غير ذلك من أخذ الثغور ، وافتتاح البلاد وإثخان القتل فيهم والأسر لهم ، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب ، وخروج نجداتهم وكثرتها ، وقوتها ومنعتها ، وغناها وثروتها ، ومسارعتها ومبادرتها ، وأنه لا يمضي يوم إلا عن قوة تجدد ، وميرة تصل ، وأموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل ، وأن ثغرنا حصره العدو ، وحصرنا نحن العدو ، فما من قتال الثغر ولا تمكن من قتالنا ، وخندق على نفسه عدة خنادق ، فما تمكنا من قتاله ، وقدم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله ، وخرج مرتين إلى عسرنا فكسر العدو أقله ، فإنه اغتنم أوقاتا لم تكن فيها العساكر مجموعة ، وارتاد ساعات لم تكن فيها الأهب مأخوذة ، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم ، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار خرجت أنفسها إلى مصارعها ، وهدمت أجسامها إلى مضاجعها ، والعدو إن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو أبرز صفحته لكان بإذن الله هو المثبور المكسور .

وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات ، وإحراقها لمراكبهم وهي الأكثر ، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأطهر ، وأن أمر العدو مع ذلك قد تطاول ، وخطبه قد تمادى ونجدته تتواصل ، ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وأن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبق لها بالدخول إلى إنطاكية لتلف وهلك .

وتذكر أن الله قصم طاغية الألمان وأخذه أخذة فرعونية بالإغراق ، في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة ، وأن هذا العدو لو أرسل الله عليه

أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، ولأخذنا العدو إما بالجوع والحصر أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر .

فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، العدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة ، فالبدار البدار وأنت أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار .

وإن كانت دون الأسطول موانع : إما من قلة العدة ، أو شغل هناك بمهمة ، أو بمباشرة عدة ما تحصن منه العورة ، أو لاحت منه الفرصة ؛ فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدود ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال .

وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤا لإنجادنا ، ولا محقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا ، إلا ذلك الجناب ، فلم ندعه إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها ، فينال من العدوة الدنيا جناها ، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الإسلام الإسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره ، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ، ولأنه بحر والنجدة بحرية ، ولا غزو أن يجيش البحار البحار .

وإن سئل عن المملوكين : يوزبا وقراقوش ، وذكر ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال ، الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم أن المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأمراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء ، وإنما كسدت سوقهما ، وتبعتهما ألفاف أمثالهما ، والعادة جارية أن العساكر إذا طالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منها وانضاف إليها ، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذا المملوكان ممن إذا غاب أحضر ، ولا ممن إذا فقد افتقد ، ولا يقدر في مثلهما أنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي بما يوجب شكوى من

جناية ، ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الأرض ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .

وإن سئل عن النوبة المصرية ، وما فعل بجندها ، فيعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار ، وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الإسلام على أمر شديد ، وكاد يقرب على الكفر كل أمر بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين فقولوا ما يجب ، وكانوا دعاة الكفر والضلال ، ومحاربين لله بما سعوا في الأرض من فساد .

فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا ، فإنهم اقتصرنهم على ألا يكونوا جندا ، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه ، وشملته آمنة تسكنه .

وأما الهدية المسيرة على يد الأمير فتفصيلها يرد في كتاب الأمير الأجل ، الاسفهسلار ، العالم الكبير ، مجد الدين ، سيف الدولة – أدام الله علوه – مقرونا بالهدية المذكورة .

ومع قرب الشتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الأشتية .

والله سبحانه يوفق الأمير يسهل سبيله ، ويهدي دليله ، ويكلاه بعينه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحلة ، ويبلغه أهله ، ويشرح له صدره ، وييسر له أمره ، إن شاء الله تعالى" .

الملحق رقم (٧)

خطاب مرسل من صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى ملك المغرب يعقـــوب بـــن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على الصليبيين أثنـــاء حصـــارهم لعكـــا (٢٨ شعبان ٥٨٦هـ/١١٩٠م).[١]

" بلاغ إلى محل التقوى الطاهر ، ومستقر حزب الله الظاهر ، مـــن المغـــرب ، أعلى الله به كلمة الإيمان ، ورفع به منار البر والإحسان .

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب :

أما بعد : فالحمد لله الماضي المشية ، الممضي القضية ، البر بالبريـــة ، الحفـــي بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الأرض ، وأغنى من أهلها من ســـأله القرض ، وأجزل أجر من أجرة على يده النافلـــة والفـــرض ، وزان ســـماء الملـــة بدراري الذراري التي بعضها من بعض ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أنـــزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الإسلام بأمته التي شبهها صاحبها بالبنيـــان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم فنصروه ، وظاهروا رسوله – صلـــى الله عليه وسلم – فنصرهم وأظهرهم ، وير بهم السبيل ثم السبيل يســـرهم ، ون الله بهم لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم ... .

" ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غـــلا للذيـــن آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " .

---

(١) أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٥٠٠-٥١١ .

وهذه التحية الطيبة الكـريمة الصيبة الواجبة الرد ، الموجبة للقصـــد ، العذبـــة الورد ، المتنفسة عن العنبر والورد ، وقادة دار الملك ، ومدار النســـك ، وجــل الجلالة ، وأصل الإصالة ، ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلــم العلم ، وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الإسلام ومقدمه ، ومقتضى دين الدين ، ومثبــت المتقين على اليقين ، ومعلي المــوحدين على اللحدين أدام الله له النصرة ، وجهز به تيسير العسرة ، ورد الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الألفة ، ومهد لــه درجات الغرفة ، وعــرفه في كل ما يعتريه صنعا جزيلا جميــلا ، ولقطفــا حفيــا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو أشد وطأ وأقوم قيلا .

تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب ، وقد حفـــز لـــها حـــافزان : أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى أن تتيسر الأسباب ، والآخرة مـــرام عظيم ماكره إذا استفتحت به الأبواب ، وكان وقت المواصلـــة ، وموســم المكاتبــة هناؤه بفتح المقدس ، وسكون الإسلام منه إلى المقيل والمعــــرس ، ومـــا فتــح الله للإسلام من الثغور ، وما شرح لأهله من الصدور ، وما أنزله عليهم مــن النــور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعــوات أسرار ذلك الصدر ، وملاحظات أنــوار ذلــك البدر ، ومطالعات تلك الجهة ، التي هي إن كانت غـــربية فـــإن الغـــرب نســتودع الأنوار ، وكنز دينار الشمس ومصب أنهار النهار ، ومن جانبه يأتي ســكون الليــل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار ، إن فـــي ذلــك لعبــرة لأولـــي الأبصار ، ولم تتأخر المكاتبة إلا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية ما لم ينقطــع بتقطيع يد الشرك من حبله .

والمفتتح بيد الله من الشاك : مدن وأمصار ، وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقــلاع كانت للشرك معاقل ، وللإسلام معاقر ، ولبني الكفــر مصـــانع ، ولبنـــي الإســـلام مصارع ، والباقي بيد الكفر منها : ثغرا طرابلس وصور ، ومدينة إنطاكية – يســـر

الله أمرها ، وفك من يد الكفر إرها – إذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجا إيجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه وتعالى جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد كسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعد ، وألجئ إلى حصونه التي للحصر أعدها ، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها فكأن لم يغن بالأمس ، وكانت على إثر غزوات قبلها فما الظن بالمجهزة بعد النكس .

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، شيبا وشبانا ، وزرافات وحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبي دعوة بطركة ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على أسمائها ، وأتت العزيمة – بحمد الله – على أشخاصها عند لقائها .

ومنهم ملك الألمان ، خرج في جموع برية ، من الله تعالى برية ، ملأت الفجاج ، وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثج البحر فركب الأجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجبر ، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة ، وإلى قاع كفر (كذا) .

وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملأ عليهم ثغرهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات وأطعمة ، والآلات وأسلحة ، وشلة وجنة ، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدى وذهب وفضة ، إلى أن شحنوا بلادهم ، رجالا مقاتلة ، وذخائر

للعاجلة من حربهم الآجلة ، لا تشرق شارقة إلى طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا ونظروا فإنهم لا يستطيعون أن يلقوا ويحصروا ، ويستطيعون أن يحصروا على أن ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بإمداده ، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأزواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته وأجناده ، فانقطعت مادة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر ، فحدقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم ، وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون ، فأتمنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها ، ففذت عمارتنا إلى الثغر وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر ملأ يحمله الظهر ، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الإسلام في صدور الكفر ، وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة فعدد مراكبهم كبير ولكن لقيانهم بأصدق منها عزمة ، والقليل مع العزم الصادق كثير ، واستمر مقام العدو محاصرا للثغر ، محصورا منا أشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر لأنا من خلفه ، ولا يستطيع الخروج إلينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول إليه ، لأنه قد سور وخندق ، وحاجزين من وراء الحجرات وأغلق .

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد ، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد – صلى الله عليه وسلم – أحمد ، قويت به نفوسهم ، وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا أنه يزعجنا من مخيمنا ، ويخرجنا من خيمنا ، فبعثا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية فسلك ذات الشمال متوعرا فيها ، ومحتجزا عن لقائهم ، ومظهرا أنه ضريع داء وما به غير دائها .

وكان أبو الطاغية ملك الألمان شبية اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سـجين : وقد هلك في طريقه غرقا ن وخاض الماء فخاضه الماء شرقا ، وبقى له ولـد هـو الآن المقدم المؤخر ، وقائد الجمع المكسر ، وربما وصل بهم إلى عكافى البحـر ، تهيبا أن يسلك البر ، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى إنطاكيـة لأخذوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه – لا في النهر – صريعا ، ولكن لله المشيئة في البرية ، والطاغية إنما يمشي إلى البلية ، فإنـه لـولا احتجاز مقيمهم بالخنادق ، واجتياز واصلهم بالمضائق ، لكان لنا ولهم شأن ، وكـان ليومنا في النصرة الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان .

ولما كانت حضرة سلطان الإسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام ، أولى مـن توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه ، واستعان به على حماية نسـله وحرثـه ، وكـانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغر المحجلة ، المؤمرة الكاشفة لكـل معضلـة ، الكاسفة لكل مشكلة ؛ والأخبار بذلك سائرة ، والآثـار ظاهرة ، والصحـف عنـه باسمة ، والسير به معلمة وعالمة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في أغمادهـا ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها ، لا يزال في سبيل الله غاديا ورائحا ، ومواجـها ومكافحا ، ومماسيا ومصابحا ، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسـرة ، وغزاة تصافح وجوهها بالسيوف فلا يخمد نور الأسرة ، يذود الفرق الكـافرة ولـو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد ، وكلما أوقدوا نارا للحـرب أطفأهـا الله ، ولـولاه لأخمد شرارة كل زناد .

كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية ، مع القدرة الوافية ، واهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد بـه غـرب لكفـار الكافرين فيملأها عليهم جواري كالأعلام ، ومدنا في اللجج سـوائر كأنـها الليـالي مقلعة بالأيام ، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا ، وتطلع على الكفار آجالا ، وتردنـا

إما جملة وإما أرسالا مسومة ، تمدها ملائكة مسمومة ومعلمة ، تقدم حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه ، وإنما هي منه عزمة كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة ، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت عن الاستدعاء ، فصرخنا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلا أنها تحركها أيدي الرياح ، وقد تترك النصرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها السنة الصفاح .

وسير لحسن مجلسه الأطهر ، ومحله الأنور ، الأمير ، الأجل ، المجاهد . الأمين ، الأصيل شمس الدين ، نفير الإسلام والمسلمين ، سفير الملوك والسلاطين ، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ – كتب الله سلامته وأحسن صحابته – ، وما اختير للوفادة إلا من هو أهلها ، ولا حمل الوديعة إلا من هو محلها ، ولا بعث لنهج الصلة إلا من هو مفتاحها ، ولأداء الأمانة إلا من هو قفلها ، ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة ، وفي العربية ذو بيت وعسيرة ، والمشاهدة له أوصف ، على أن تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف ، وما أجدره بأنه يصادف بسطة على بساطه ، ونظرا يأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وإفراطه ، فكل هو به واف ، وكل هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منافى استنهاض العزمة منه بالغا مبلغا يسر أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه .

والسلام الصادر عن القلب السليم ، والود الصميم ، والعهد الكريم ، على حضرة الكرم العلية ، وسدة السيادة الجليلة ، سلام مودة ما وفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ما خطرت إلى أن أنفذت وراءها المحبة أرسلها ، ليصل السلام ورحمة الله وبركاته ، ورضوانه وتحياته ، إن شاء الله تعالى .

كتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

والحمد لله ، وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

الهدية

ختمة كريمة في ربع مخشية بمسك .

ثلاثمائة مثقال عنبر .

عشر قلائد : عددها ست مائة حبة .

عود في سفط : عشرة أمنان .

دهان بلسمان : مائة درهم وواحد .

قسى بأوتارها : مائة وقوسان .

سروج : عشرون .

نصول سيوف هندية : عشرون .

نشاب ناسخ خاص مريش ، كبير ومتوسط ضمن صندوق خشبي مجلدة : سبعمائة سهم" .

الملحق رقم (٨)

رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسلة من صلاح الدين الأيوبي إلى شمس الدولة بن منقذ – وهو بالمغرب – ينهى إليه أخبار القتال حول عكا .[١]

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان إلى شمس الدولة بن منقذ – وهو بالمغرب في الرسالة – :

" لقد تجاوزت عدة من قتل عكا – يعني الفرنج – الخمسين ألفا ، قولا لا يطرقه التسمح ، بل يحرزه التصفح ، فانبروا في هذه السنة ملكا أفرنسيس والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ، وأحدقت بالثغر ، فمنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة عليه " .

ثم قال :

" وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب ، وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وما ضعفنا ، ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا ، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجزهم ، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم ، وأقمنا على طريقهم ، وخيمنا على مخنقهم ، وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ما كنا إلى النجدة البحرية ، والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا به ترد ، وعاديتنا به تشتد .

والأمير يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبته ، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويجعل العودة وقبلها الإجابة ، ويستصحب السهم ويسبق بشرى الإصابة ، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه ، فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربي يقلبها ، وخطرات من اللطف الخفي يقربها ، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرق غربا ، وخطرة أوهمت أن تلك لو تلم بالسفائن لأخذت كل سفينة غصبا " .

---

[١] ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٥١٦-٥١٧ .

الملحق رقم (٩)

جدول بأسماء الخلفاء الفاطميين في مصر[١]

(٤٢٧-٥٦٧هـ / ١٠٣٥-١١٧١م)

١ - المستنصر بالله أبو تميم معد	(٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م)
٢ - المستعلي بالله أبو القاسم أحمد	(٤٨٧-٤٩٥هـ/١٠٩٤-١١٠١م)
٣ - الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور	(٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م)
٤ - الحافظ لدين الله أبو ميمون عبدالمجيد	(٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م)
٥ - الظاهر بالله أبو منصور إسماعيل	(٥٤٤-٥٤٩هـ/١١٤٩-١١٥٤م)
٦ - الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى	(٥٤٩-٥٥٥هـ/١١٥٤-١١٦٠م)
٧ - العاضد لدين الله أبو محمد عبدالله	(٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م)

---

(١) نقلا عن : زامباور ، معجم الأنساب ، ص١٤٦ .

الملحق رقم (١٠)

جدول بأسماء الخلفاء العباسيين في بغداد[١]

(٤٢٢-٦٥٦هـ/١٠٣١-١٢٥٨م)

١ – أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله	(٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م)
٢ – أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله	(٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٥-١٠٩٤م)
٣ – أبو العباس أحمد المستظهر بالله	(٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م)
٤ – أبو المنصور الفضل المسترشد بالله	(٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م)
٥ – أبو جعفر المنصور الراشد بالله	(٥٢٩-٥٣٠هـ/١١٣٥-١١٣٦م)
٦ – أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله	(٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)
٧ – أبو المظفر يوسف المستنجد بالله	(٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م)
٨ – أبو محمد الحسن المستضيئ بالله	(٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م)
٩ – أبو العباس أحمد الناصر لدين الله	(٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م)
١٠ – أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله	(٦٢٢-٦٢٣هـ/١٢٢٥-١٢٢٦م)
١١ – أبو جعفر المنصور المستنصر بالله	(٦٢٣-٦٤٠هـ/١٢٢٦-١٢٤٢م)
١٢ – أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله	(٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٨٥م)

(١) نقلا عن : زامباور ، معجم الأنساب ، ص١٣٢ .

الملحق رقم (١١)

جدول بأسماء السلاطين السلاجقة[١]

(٤٢٩-٥٩٠هـ/١٠٣٧-١١٩٤م)

١ – ركن الدنيا والدين أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م) .

٢ – عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن جعفري بك (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م) .

٣ – معز الدنيا والدين ملكشاه بن ألب أرسلان محمد (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) .

٥ – محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان محمد (٤٨٥-٤٨٦هـ/١٠٩٢-١٠٩٣م)

٥ – ركن الدنيا والدين أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه (٤٨٦-٤٩٨هـ/١٠٩٣-١١٠٤م) .

٦ – غياث الدنيا والدين أبو شجاع محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م) .

---

(١) نقلا عن : البنداري ، تاريخ دولة آل سلجوق .

٧ – معز الدنيا والدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه (٤٩٧-٥٥١هـ/١١٠٣-١١٥٦م) في خراسان .

٩ – مغيث الدنيا والدين محمود بن ملكشاه (٥١١-٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣٠م) .

١٠ – داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٥هـ/١١٣٠م)

١١ – ركن الدنيا والدين أبو طالب طغرل بن محمد بن ملكشاه (٥٢٦-٥٢٩هـ/١١٣١-١١٣٤م) .

١٢ – غياث الدنيا والدين مسعود بن محمد بن ملكشاه (٥٢٩-٥٤٧هـ/١١٣٤-١١٥٢م) .

١٢ – مغيث الدنيا والدين ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه (٥٤٧هـ/١١٥٢م) .

١٣ – مغيث الدنيا والدين أبو شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه (٥٤٧-٥٥٤هـ/١١٥٢-١١٥٩م) .

١٤ – معز الدنيا والدين أبو الحارث سليمان بن محمد بن ملكشاه (٥٥٤-٥٥٥هـ/١١٥٩-١١٦٠م) .

١٥ – ركن الدنيا والدين أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه (٥٥٥-٥٧١هـ/١١٦٠-١١٧٥م) .

١٦ – ركن الدنيا والدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه (٥٧١-٥٩٠هـ/١١٧٥-١١٩٤م) .

الملحق رقم (١٢)

جدول بأسماء الولاة السلاجقة في الموصل[١]

(٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م)

١ – قوام الدولة أبو سعيد كربوغا	(٤٨٩-٤٩٥هـ/١٠٩٥-١١٠١م)
٢ – شمس الدولة جكرمش	(٤٩٥-٥٠٠هـ/١١٠١-١١٠٧م)
٣ – جاولي سقاو	(٥٠٠-٥٠٢هـ/١١٠٧-١١٠٩م)
٤ – مودودين التونتكين	(٥٠٢-٥٠٧هـ/١١٠٩-١١١٣م)
٥ – جيوش بك (الولاية الأولى)	(٥٠٧هـ/١١١٣م)
٦ – آق سنقر البرسقي (الولاية الأولى)	(٥٠٧-٥٠٩هـ/١١١٣-١١١٥م)
٧ – جيوش بك (الولاية الثانية)	(٥٠٩-٥١٤هـ/١١١٥-١١٢٠م)
٨ – آق سنقر البرسقي (الولاية الثانية)	(٥٢٠-٥٢١هـ/١١٢٦-١١٢٧م)
٩ – عز الدين مسعود بن البرسقي	(٥٢٠-٥٢١هـ/١١٢٦-١١٢٧م)

(١) نقلا عن : خليل ، المقاومة الإسلامية .

الملحق رقم (١٣)

جدول بأسماء الأتابكة الزنكيين[١]

(٥٢١-٦٥٧هـ/١١٢٧-١٢٥٩م)

أ - أتابكية الموصل

١ - عماد الدين زنكي	(٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م)
٢ - سيف الدين غازي بن عماد الدين	(٥٤١-٥٤٤هـ/١١٤٦-١١٤٩م)
٣ - قطب الدين مودود بن عماد الدين	(٥٤٤-٥٦٥هـ/١١٤٩-١١٦٩م)
٤ - سيف الدين غازي بن قطب الدين	(٥٦٥-٥٧٦هـ/١١٦٩-١١٨٠م)
٥ - عز الدين مسعود بن قطب الدين	(٥٧٦-٥٨٩هـ/١١٨٠-١١٩٣م)
٦ - نور الدين أرسلان شاه بن مسعود	(٥٨٩-٦٠٧هـ/١١٩٣-١٢١٠م)
٧ - عز الدين مسعود بن نور الدين	(٦٠٧-٦١٥هـ/١٢١٠-١٢١٨م)
٨ - ناصر الدين محمود	(٦١٦-٦٣١هـ/١٢١٩-١٢٣٣م)
٩ - بدر الدين لؤلؤ	(٦٣١-٦٥٧هـ/١٢٣٣-١٢٥٩م)
١٠ - ركن الدين إسماعيل بن لؤلؤ	(٦٥٧هـ/١٢٥٩م)

ب - أتابكية الشام (حلب ، حمص ، حماة ، دمشق)

١ - عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م)

٢ - نور الدين محمود دين زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م)

٣ - الصالح نور الدين إسماعيل (٥٦٩-٥٧٧هـ/١١٧٣-١١٨١م)

---

(١) نقلا عن : زامباور ، معجم الأنساب ، ص١٤٩ .

الملحق رقم (١٤)

جدول بأسماء السلاطين والأمراء الأيوبيين [١]

(٥٦٩ – ٦٤٨هـ / ١١٧٣ – ١٢٥٠م)

أ – الأيوبيون في مصر :

١ – الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف (٥٦٩–٥٨٩هـ/١١٧٣–١١٩٣م)

٢ – العزيز عثمان بن صلاح الدين (٥٨٩ – ٥٩٥هـ /١١٩٣ – ١١٩٨م)

٣ – المنصور ناصر الدين محمد (٥٩٥ – ٥٩٧هـ /١١٩٨ – ١٢٠٠م)

٤ – العادل سيف الدين أبو بكر أحمد (٥٩٧ – ٦٥١هـ /١٢٠٠ – ١٢١٨م)

٥ – الكامل ناصر الدين محمد (٦١٥ – ٦٣٦هـ /١٢١٨ – ١٢٣٨م)

٦ – العادل الثاني سيف الدين أبو بكر (٦٣٦ – ٦٣٨هـ /١٢٣٨ – ١٢٤٠م)

٧ – الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل (٦٣٨ – ٦٤٧هـ /١٢٤٠ – ١٢٤٩م)

٨ – المعظم توران شاه (٦٤٧ – ٦٤٨هـ /١٢٤٩ – ١٢٥٠م)

ب – الأيوبيون في دمشق :

١ – الأفضل علي بن صلاح الدين (٥٨٢–٥٩٢هـ /١١٨٦–١١٩٦م)

٢ – العادل سيف الدين أبو بكر أحمد (٥٩٢–٦١٥هـ /١١٩٦–١٢١٨م)

---

[١] نقلا عن : زامباور ، معجم الأنساب ، ص ١٥٠ – ١٥٥ .

٣ – المعظم شرف الدين عيسى (٦١٥-٦٢٤هـ /١٢١٨-١٢٢٧م)

٤ – الناصر صلاح الدين داوود (٦٢٤-٦٢٥هـ /١٢٢٧-١٢٢٨م)

٥ – الأشراف موسى مظفر الدين أبو الفتح (٦٢٥-٦٣٥هـ /١٢٢٨-١٢٣٧م)

٦ – الصالح عماد الدين إسماعيل (٦٣٥-٦٣٦هـ /١٢٣٧-١٢٣٨م)

٧ – الكامل الأول محمد (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م)

٨ – العادل الثاني سيف الدين أبو بكر (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م)

٩ – الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦/١٢٣٨م)

١٠ – الصالح عماد الدين إسماعيل (٦٣٧-٦٤٣هـ /١٢٣٩-١٢٤٥م)

١١ – الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٣-٦٤٧هـ/١٢٤٥-١٢٤٩م)

١٢ – المعظم توران شاه (٦٤٧- ٦٤٨هـ/١٢٤٩ – ١٢٥٠م)

جـ – الأيوبيون في حلب :

١ – العادل سيف الدين أبو بكر أحمد (٥٧٩-٥٨٢هـ/١١٨٣-١١٨٦م)

٢ – الظاهر غازي بن صلاح الدين (٥٨٢-٦١٣هـ/١١٨٦-١٢١٦م)

٣ – العزيز غياث الدين محمد (٦١٣-٦٣٤هـ / ١٢١٦-١٢٦٠م)

٤ – الناصر صلاح الدين يوسف (٦٣٤-٦٥٨هـ/١٢٣٦-١٢٦٠م)

د – الأيوبيون في ميافارقين وسنجار :

١ – الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٨١-٥٩١هـ/١١٨٥-١١٩٤م)

٢ – العادل سيف الدين أبو بكر (٥٩١-٥٩٦هـ/١١٩٤-١١٩٩م)

٣ – الأوحد نجم الدين أيوب (٥٩٦-٦٠٧هـ/١٠٩٩-١٢١٠م)

٤ – الأشرف مظفر الدين موسى (٦٠٧-٦١٧هـ/١٢١٠-١٢٢٠م)

٥ – المظفر شهاب الدين غازي (٦١٧-٦٤٢هـ/١٢٢٠-١٢٤٤م)

٦ – الكامل الثاني ناصر الدين محمد (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)

هـ – الأيوبيون في حماة :

١ – المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه (٥٧٤-٥٨٧هـ / ١١٧٨-١١٩١م)

٢ – المنصور ناصر الدين محمد (٥٨٧-٦١٧هـ / ١١٩١-١٢٢٠م)

٣ – الناصر صلاح الدين قلج ارسلان (٦١٧-٦٢٧هـ / ١٢٢٠-١٢٢٩م)

٤ – المظفر الثاني تقي الدين محمود (٦٢٧-٦٤٢هـ / ١٢٢٩-١٢٤٤م)

٥ – المنصور الثاني سيف الدين محمد (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)

و – الأيوبيون في حمص :

١ – القاهر محمد ابن شيركوه (٥٧٤-٥٨١هـ /١١٧٨-١١٨٥م)

٢ – المغيث شيركوه الثاني ابن القاهر (٥٨١-٦٣٧هـ /١١٨٥-١٢٣٩م)

٣ – المنصور إبراهيم بن شيركوه الثاني (٦٣٧-٦٤٣هـ /١٢٣٩-١٢٤٥م)

الأشرف مظفر الدين موسى الثاني (٦٤٤-٦٤٦هـ/١٢٤٦-١٢٤٨م)

ز – الأيوبيون في اليمن :

١ – المعظم توران شاه الأول بن أيوب (٥٦٩-٥٧٧هـ /١١٧٣-١١٨١م)

٢ – سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (٥٧٧-٥٩٢هـ /١١٨١-١١٩٦م)

٣ – معز الدين إسماعيل بن طغتكين (٥٩٢-٥٩٨هـ /١١٩٦-١٢٠١م)

٤ – الناصر أيوب بن طغتكين (٥٩٨-٦١١هـ /١٢٠١-١٢١٤م)

٥ – المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه (٦١١-٦١٢هـ /١٢١٤-١٢١٥م)

٦ – المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل (٦١٢-٦٢٥هـ /١٢١٥-١٢٢٨م)

ح – الأيوبيون في بعلبك :

١ – المعظم توران شاه الأول بن أيوب (٥٦٨-٥٧٥هـ /١١٧٢-١١٧٩م)

٢ – عز الدين داود شاهنشاه الاول بن ايوب (٥٧٥-٥٧٨هـ /١١٧٩-١١٨٢م)

٣ – الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن داود (٥٧٨-٦٢٧هـ /١١٨٢-١٢٢٩م)

٤ – الأشراف الأول بن مظفر الدين موسى (٦٢٧-٦٣٦هـ /١٢٢٩-١٢٣٨م)

٥ – الصالح إسماعيل بن الكامل (٦٣٦-٦٤٣هـ /١٢٨٣-١٢٤٥م)

٦ – الصالح نجم الدين أيوب (٦٤٣-٦٤٧هـ/١٢٤٥-١٢٤٩م)

٧ – المعظم توران شاه (٦٤٧-٦٤٨هـ /١٢٤٩-١٢٥٠م)

٨ – الناصر يوسف (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)

ط – الأيوبيون في الكرك :

١ – العادل سيف الدين أبو بكر (٥٨٤-٥٩١هـ /١١٨٨-١١٩٥م)

٢ – المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر (٥٩١-٦٢٣هـ /١١٩٥-١٢٢٦م)

٣ – الناصر صلاح الدين داوود بن عيسى (٦٢٤-٦٣٧هـ/١٢٢٦-١٢٣٩م)

٤ – المغيث فخر الدين عمر بن العادل (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)

ي – الأيوبيون في حصن كيفا و آمد :

١ – الصالح نجم الدين أيوب (٦٢٩-٦٣٦هـ /١٢٣١-١٢٣٨م)

٢ – المعظم توران شاه بن أيوب (٦٣٦-٦٤٧هـ /١٢٣٨-١٢٤٩م)

٣ – الموحد تقي الدين عبد الله بن توران شاه (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)

الملحق رقم (١٥)

جدول بأسماء الملوك الصليبيين في بيت المقدس[١]

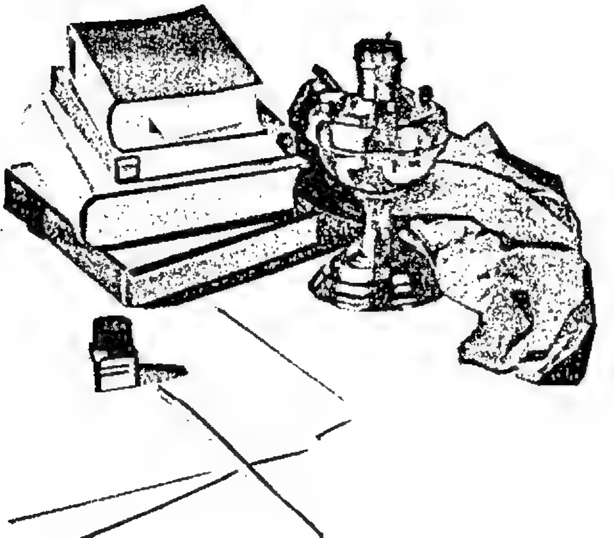
(٤٩٣-٦٤٨هـ/١٠٩٩-١٢٥٠م)

١ – جودفري دي بوايـون Geoffery de Bouillon	(٤٩٣-٤٩٤هـ/١٠٩٩-١١٠٠م)
٢ – بلدوين الأول البولوني Baldwin I of Boulngne	(٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م)
٣ – بلدوين الثاني Baldwin II	(٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣١م)
٤ – فولك الأنجوي Fulk of Anjou	(٥٢٥-٥٣٧هـ/١١٣١-١١٤٢م)
٥ – بلدوين الثالث Baldwin III	(٥٣٧-٥٥٨هـ/١١٤٢-١١٦٢م)
٦ – عموري الأول Amarlic I	(٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م)
٧ – بلدوين الرابع Baldwin IV	(٥٦٩-٥٧٩هـ/١١٧٣-١١٨٣م)
٨ – بلدوين الخامس Baldwin V	(٥٧٩-٥٨٣هـ/١١٨٣-١١٨٧م)
٩ – جاي دي لوزينيان Guyde lusignan	(٥٨٣ – ٥٨٨ هـ/١١٨٧ – ١١٩٢م)
١٠ – كونراد دي مونتفـرات Conrade De Montefatc	(٥٨٨هـ / ١١٩٢م)

(١) نقلا عن : رنسيمان ،تاريخ الحروب الصليبية .

١١ – هـنري دشـاومبيني Henry de champane	(٥٨٨ – ٥٩٤هـ ـــــــ / ١١٩٢ – ١١٩٧م)
١٢ – عموري الثاني Amarlic II	(٥٩٤ – ٦٠٢هـ ـــــــ / ١١٩٧ – ١٢٠٥م)
١٣ – ماري أبنة كونراد Mary daghtur of Conrade	(٦٠٣ – ٦١٤هـ ـــــــ / ١٢٠٦ – ١٢١٧م)
١٤ – حنا دي برين Hanna de praine	(٦٠٧ – ٦٢٢هـ ـــــــ / ١٢١٠ – ١٢٢٥م)
١٥ – فريدريك الثاني Fredric II	(٦٢٢ – ٦٢٦هـ ـــــــ – ١٢٢٥ – ١٢٢٨م)
١٦ – كونراد الأول Conrade I	(٦٢٦ – ٦٥٢هـ ـــــــ / ١٢٢٨ – ١٢٥٤م)

قائمة المصادر والمراجع



أولا : المصادر :

أ – المصادر العربية .

ب – المصادر الأجنبية المترجمة .

ثانيا : المراجع :

أ – المراجع العربية .

ب – المراجع الأجنبية .

ثالثا : المقالات :

أ – المقالات العربية .

ب – المقالات الأجنبية .

رابعا : الرسائل الجامعة

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

أ - المصادر العربية:

١ - القرآن الكريم

ابن الأثير ، علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ،

٢ - الكامل في التاريخ ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٢م .

٣ - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تح : عبد القادر احمد طليمات ، د . ط ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣م .

الأبيوردي ، محمد بن أحمد بن اسحاق (ت ٥٠٧هـ / ١١١٣م) ،

٤ - ديوان الأبيوردي ، تح : عمر الأسعد ، د . ط ، مطبعة زيد بن ثابت ، دمشق ١٩٧٥م .

الإسنوي ، جمال الدين عبدالرحيم (ت ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م) ،

٥ - طبقات الشافعية ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م .

ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) ،

٦ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تح : نزار رضا ، د . ط ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥م .

البغدادي ، صفي الدين عبدالمؤمن عبدالحق (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)،

٧ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تح : علي محمد البجاوي ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٢م .

البغدادي ، عبداللطيف (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) ،
٨ – الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تح : علي محسن مال الله ، د . ط ، دار الحكمة ، بغداد ١٩٨٧م .

البنداري ، الفتح بن علي بن محمد (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) ،
٩ – تاريخ دولة آل سلجوق ، إختصار كتاب نصرة الفترة وعصرة الفطرة لمحمد بن محمد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) ، تح : لجنة إحياء التراث العربي ، د . ط ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠م .

١٠– سنا البرق الشامي (٥٦٢هـ / ١١٦٦م – ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) ، تح : فتحية النبراوي ، د . ط ، مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٧٩م .

بهاءالدين ، زهير بن محمد بن علي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ،
١١– ديوان البهاء زهير ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م .

ابن تغري بردي ، أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ،
١٢– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، د . ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢م .

ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) ،

١٣- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تح : محمد مصطفى عبدالقادر عطا ، مراجعة نعيم زرزور ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٢م .

١٤ - فضائل القدس ، حققه وقدم له جبرائيل سليمان الجبور ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٩م .

الحنبلي ، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م) ،

١٥- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تح : ناظم رشيد ، وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ١٩٧٨م .

الحنبلي ، مجيرالدين عبدالرحمن بن محمد (ت ٩٢٧هـ/١٥٢١م)،

١٦- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، د . ط ، مكتبة المحتسب ، عمان ١٩٧٣م .

الحنفي ، محي الدين أبي محمد عبدالقادر بن محمد (ت٧٧٥هـ/١٢٧٣م) ،

١٧- الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية ، تح : عبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ، هجر للطباعة ، د . م ، د . ت .

ابن خلكان ، أحمد بن محمد أبي بكر (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ،

١٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح : إحسان عباس ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٨م .

ابن الديباجي ، موفق الدين (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) ،

١٩- رسائل عن الحرب والسلام من ترسل القاضي الفاضل ، تح : محمد نغش ، ط١ ، د.ن ، القاهرة ١٩٨٤م .

الذهبي ، الحافظ شمس الدين (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ،

٢٠- العبر في خبر من غبر ، تح : وضبط على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م

ابن رجب ، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م) ،

٢١- كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، د.ط ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

ابن رزّيك ، طلائع (ت ٥٥٦هـ / ١١٦٠م) ،

٢٢- ديوان طلائع بن رزّيك ، جمعه وبّوبه وقدم له محمد هادي الأميني ، ط١ ، منشورات المطبعة الأهلية ، مطابع النعمان ، النجف ١٩٦٤م .

الأزدي ، جمال الدين علي الأسدي (ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م) ،

٢٣- بدائع البدائة ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم د.ط ، القاهرة ١٩٧٠م

الزبيدي ، المرتضى(١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م) ،

٢٤ - ترويح القلوب في ذكر الملوك من بني أيوب ، تح : صَلاح الدين المنجد ، د.ط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٩م .

ابن الساعاتي ، علي بن رستم (ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م) ،

٢٥ - ديوان ابن الساعاتي ، تح : أنيس المقدسي ، ط١ ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ١٩٣٨م .

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين قزا أوغلي (ت ٦٥٤هـ /١٢٥٦م)،
٢٦ - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة الجمعية التاريخية التركية ، أنقرة ١٩٦٨م .

السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م) ،
٢٧- طبقات الشافعية الكبرى ، تح : عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي ، د.ط ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت .

ابن سنا الملك ، هبة الله بن جعفر بن محمد (ت ٦٠٨هـ/١٢١١م) ،
٢٨- ديوان ابن سنا الملك ، تح : محمد إبراهيم نصر ، ط١ ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٩م .

السيوطي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) ،
٢٩- إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تح : أحمد رمضان أحمد ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢م .

السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)،
٣٠- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تح : أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، د.م ، ١٩٦٧م .

أبو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦) ،
٣١- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تح : إبراهيم الزيبق ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٧م .

٣٢- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، صححه محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، راجعه عزت العطار الحسيني ، ط٢ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤م .

ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) ،

٣٣- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ، تح : جمال الدين الشيال ، د.ط ، د.ت ، القاهرة ١٩٦٤م .

ابن شداد ، محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٤٨هـ / ١٢٨٥م) ،

٣٤- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تح : سامي الدهان ، د.ط ، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية ، دمشق ١٩٥٦م .

ابن شاهنشاه ، محمد بن عمر الأيوبي (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) ،

٣٥ – مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تح : حسن حبشي ، د.ط ، د.ن ، القاهرة ١٩٦٨م .

الشاغوري ، فتيان بن علي (ت ٦١٥هـ / ١٢١٨ م) ،

٣٦ – ديوان فتيان الشاغوري ، تح : أحمد الجندي ، ط١ ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٦٧م .

ابن الشعّار ، كمال الدين بن أبي البركات الموصلي (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) ،

٣٧ – قلائد الجمان في فرائد الأعيان ، تح : نوري حمودي القيسي ، محمد نايف الديلمي ، ط١ ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٩٩٢ .

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) ،

٣٨ – الوافي بالوفيات ، باعتناء س. ديدرينغ ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢م .

ابن العديم ، كمال الدين بن القاسم (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) ،

٣٩ – بغية الطلب في تاريخ حلب ، تح : سهيل زكار ، د.ط ، د.ن ، دمشق ١٩٨٨م .

٤٠ – زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تح : سامي الدهان ، د.ط ، د.ت ، بيروت ١٩٦٨م .

٤١ – **ابن عساكر ، أبو القاسم بن علي بن هبة الله بن عبدالله** (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) ، تاريخ مدينة دمشق ، تح : صلاح الدين المنجد د.ط ، مطبوعات المجمع العلمي ، دمشق ١٩٥١ .

ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) ،

٤٢ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، د.ط ، مطبعة مصر ، مصر ١٩٢٦م .

ابن العميد ، المكين جرجس (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) ،

٤٣ – أخبار الأيوبيين ، د.ط ، مكتبة الثقافة الدينية ، د.م ، د.ت .

العماد الأصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) ،

٤٤ – البرق الشامي ، تح : فالح صالح حسين ، ط١ ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ١٩٨٧م .

٤٥ – خريدة القصر وجريدة العصر : أ) قسم شعراء الشام ، تح : شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٦٨م ، ب) قسم شعراء مصر ، تح: أحمد أمين وآخرين ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١م جـ) قسم شعراء العراق ، تح : محمد بهجة الأثري ، مطبعة المجتمع العلمي العراقي ١٩٦٤م .

٤٦ – ديوان العماد الأصفهاني ، تح : ناظم رشيد ، ط١ ، كلية الآداب جامعة الموصل ١٩٨٣ .

٤٧ – الفتح القسي في الفتح القدسي ، تح : محمد محمود صبح ، د.ط ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٥م .

ابن عنين ، شرف الدين محمد بن نصر (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) ،

٤٨ – ديوان ابن عنين ، تح : خليل مردم ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

أبو الفداء ، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

٤٩ – تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر ، علق عليه ووضع هوامشه محمود ديّوب ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٧م .

ابن قاضي شهبة ، محمد بن تقي الدين (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ،

٥٠ – الكواكب الدّرية في السيرة النورية " تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي " ، تح : محمود زايد ، ط١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١م .

ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علـــي (ت ٥٥٥هـــ / ١١٦٠م) ،

٥١ – تاريخ دمشق ، تح : سهيل زكار ، د.ط ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ١٩٨٣م .

٥٢ – ذيل تاريخ دمشق ، تح : أمدروز ، د.ط، د.ن، القاهرة ١٩٠٨م .

القلقشندي ، أحمد بن علي بن اليمن (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) ،

٥٣ – صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، د.ط، المطبعة الأميريـــة ، دار الكتب المصرية ، د.ت .

الكتبي ، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)،

٥٤ – فوات الوفيات ، تح : إحسان عباس ، د.ط ، دار صادر ، بـــيروت د.ن .

ابن كثير ، عماد الدين ابن الغداء اسماعيل (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ،

٥٥ – البداية والنهاية ، تح : أحمد ملحـــم وآخـــرون ، ط٣ ، دار الكتـــب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م .

ابن مطروح ، جمال الدين (ت٦٤٩هـ/١٢٥١م) ،

٥٦ – ديوان جمـــال الديـــن بـــن مطـــروح ، ط١ ، مطبعـــة الجوائـــب ، القسطنطينية ١٢٩٨م.

ابن منقذ ، مؤيد الدولة أسامة بن مرشد (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) ،

٥٧ – الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، د.ط ، مطبعة برنستون ، الولايـــات المتحدة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٨١م .

٥٨ – ديوان أسامة بن منقذ ، تح : أحمد أحمد بدوي وحامد عبد الحميد ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٣م .

ابن منير الطرابلسي ، أحمد بن منير بن أحمد (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)،

٥٩ – ديوان ابن منير الطرابلسي ، جمعه وقدم له عبد السلام تدمري ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٨٦م .

ابن ميسر ، تاج الدين محمد بن علي (ت٦٧٧هـ/١٢٧٨م) ،

٦٠ – أخبار مصر ، حققه وكتب مقدمته وحواشيه أيمن فؤاد سيد ، د.ط ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨١م .

المقريزي ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٣٤٤م) ،

٦١ – السلوك لمعرفة دول الملوك ، صححه ووضع هامشه مصطفى زيادة ، مطبعة نخبة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦م .

٦٢ – اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تح : محمد حلمي أحمد، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٩٣م .

٦٣ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف "بالخطط المقريزية " ، د.ط مكتبة المثنى ، دار صادر د.ت .

المنذري ، زكي الدين أبو محمد عبد العظيم (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ،

٦٤ – التكملة لوفيات النقلة ، تح : بشار عواد معروف ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٤م.

ابن النبيه ، علي بن محمد (ت٦١٩هـ/١٢٢٢م) ،

٦٥ – ديوان ابن النبيه ، تح : عمر الأسعد ، ط١ ، دار الفكر ، د.م ، ١٩٦٩م .

النعيمي ، عبد القادر محمد الدمشقي (ت٩٧٨هـ/١٥٧٠م) ،

٦٦ – الدارس في تاريخ المدارس ، أعد فهرسه إبراهيم شمس الدين ، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م .

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)،

٦٧ – نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب ، تح : سعيد عاشور ، مراجعة محمد مصطفى زيادة وفؤاد عبد المعطي الصياد ، د.ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.م ، ١٩٨٥م .

ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) ،

٦٨ – مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح : جمال الدين الشيال ، ط١ ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٧م .

اليافعي ، عبد الله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) ،

٦٩ – مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، وضع حواشيه خليل المنصور ، ط١ ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧م .

ياقوت الحموي ، أبو عبد الله شهاب الدين (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ،

٧٠ – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء ، تح : إحسان عباس ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٣م .

٧١ – معجم البلدان ، إعداد فريد الجندي ، ط١ ،دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م .

اليمني ، نجم الدين أبو محمد عمارة (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) ،

٧٢ – النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ، اعتنى بتصحيحه هرتويغ درنبرغ ، ط٢ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩١م .

اليونيني ، قطب الدين موسى (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ،

٧٣ – ذيل مرآة الزمان ، صحح بعناية وزارة التحقيقات الحكمية ، والأمور الثقافية للحكومة العالمية الهندية ، ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدا باد الدكن ، الهند ١٩٦١ م .

ب – المصادر الأجنبية المترجمة

١ – **آجيل ، ريموند** ، تاريخ الفرنجة حجاج بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية ، تقديم جوزيف سبيم يوسف ، ط١ ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٩م .

٢ – **جوانفيل** ، القديس لويس وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، د.ط ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣ – **الشارتري ، فوشيه** ، تاريخ الحملة إلى القدس ، تحرير وتقديم هارولد س . فنك ، ترجمة زياد جميل العسلي ، دار الشروق ، عمان ١٩٩٠ .

٤ – **الصوري ، وليم** ، الحروب الصليبية (١٠٩٤ – ١١٨٤م) ، ترجمة وتقديم حسن حبشي ، د.ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د.م ، ١٩٩٢م .

٥ – تاريخ الحروب الصليبية (الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) ، نقله إلى العربية وقدم له سهيل زكار ، ط١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، د.م ، ١٩٩٠م .

٦ – **ابن العبري** ، غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٨م) ، تاريخ مختصر الدول ، تصحيح الأب أنطون صالحاني السيوعي ، د.ط ، الرائد اللبناني ، بيروت ١٩٨٣م .

٧ – **المؤرخ المجهول** ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، د.ط ، دار الفكر الغربي ، القاهرة ١٩٥٨م .

ثانيا : المراجع :

أ – المراجع العربية :

١ – إبراهيم ، محمود ، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة ، دراسة تحليلية ونصوص مختارة محققة ، ط١ ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الكويت ١٩٨٥ .

٢ – أحمد ، علي ، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري ، ط١ ، د.ت ، دمشق ١٩٨٩م .

٣ – أبو بدر ، شاكر أحمد ، الحروب الصليبية والحروب الأسرة الزنكية ، د.ط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم الدراسات العليا ، الجامعة اللبنانية ، د.ت .

٤ – آميل ، بول ، تاريخ أرمينية ، ترجمة شكري علاوي ، د.ط ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، د.ت .

٥ – جبران ، محمود ، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، ط١ ، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية ، الأردن ٢٠٠٠ .

٦ – حلواني ، أحمد عبد الكريم ، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولتين النورية والأيوبية ، د.ط ، دار الفداء ، دمشق ، د.ت .

٧ – خليل ، عماد الدين ، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٦٥-٨١٢هـ/١٠٧٢-١٤٠٩م) ، أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠ .

٨ – عماد الدين زنكي ، د.ط ، مطبعة الزهراء الحديثة ، الموصل ١٩٨٥م .

٩ - المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ، عصر ولاة السلاجقة فى الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ/١٠٩٥-١١٢٧م) ، ط١ ، مكتبة المعارف ، الرياض ١٩٨١م .

١٠ - رنسيمان ، ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، د.ط ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٩٧م .

١١ - زامباور ، ادوارد فون ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ترجمة وإخراج محمد حسن ورفاقه ، د.ط ، مطبعة فؤاد الأول ، القاهرة ١٩٥١م .

١٢ - الزركلي ، خير الدين ، الإعلام ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩م .

١٣ - السامرائي ، خليل إبراهيم وآخرون ، تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م) ، د.ط ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٩٨٨م .

١٤ - سعداوي ، نظير حسان ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، د.ط مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م .

١٥ - سيد ، أيمن فؤاد ، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد ، د.ط ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٢م .

١٦ - الشامي ، أحمد ، صلاح الدين والصليبيون ، تاريخ الدولة الأيوبية ، ط١ ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩١ .

١٧ - شكيل ، هادية دجاني ، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني (٥٢٦-٥٩٦هـ/١١٣١-١١٩٩م) ، ودوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته ، ط١ ، بيروت ١٩٩٣م .

١٨ - الشنتناوي ، أحمد وآخرون ، دائرة المعارف الإسلامية ، مراجعة محمد علام ، د.ط ، دار الفكر ، د.م ، د.ت .

١٩ - **عاشور ، سعيد عبد الفتاح** ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، د.ط ، د.ت ، د.م ، ١٩٧٧م .

٢٠ - الحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) ، ط٣ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٨م .

٢١ - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، د.ط ، دار النهضة ، بيروت ١٩٧٢ .

٢٢ - **عاشور ، فايد حماد** ، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية في العصر الفاطمي ، السلجوقي والزنكي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م .

٢٣ - الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي ، د.ط ، دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨٣م .

٢٤ - **عبد المهدي ، عبد الجليل حسن** ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٤٨هـ) ، د.ط ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٨٨م .

٢٥ - الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي ، ط١ ، مكتبة الأقصى ، عمان ١٩٨٩م .

٢٦ - ديوان المبشرات والقدسيات ، لعبد المنعم الجلياني (ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م) ، د.ط ، دار البشير ، عمان ١٩٨٩م .

٢٧ - **العريني ، السيد الباز** ، مؤرخو الحروب الصليبية ، د.ط ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٢م .

٢٨ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، د.ط ، د.ن ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٩ - **عوض ، محمد مؤنس** ، في الصراع الإسلامي الصليبي ، السياسة الخارجية للدولة النورية (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) ، ط١ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الهرم ١٩٩٨ .

٣٠ - **غوانمة ، حسن** ، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنـــج ، ط١ ، دار الفكر ، عمان ١٩٩٥ .

٣١ - **فرج ، وسام عبد العزيز** ، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطوريـــة الـــبيزنطية (٣٢٤-١٠٢٥م) ، د.ط ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية د.ت .

٣٢ - **مؤنس ، حسين** ، أطلس تاريخ الإسلام ، ط١ ، الزهراء للإعلام العربـــي ، القاهرة ١٩٨٧م .

٣٣ - **يوسف ، جوزيف نسيم** ، العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويـــس التاسع في المنصورة وفارسكور ، دار النهضة العربية للطباعة والنشــو ، بيروت ١٩٨١م .

ب – المراجع الأجنبية

1 - **Groussest, Rene**, Histoire des Croisades et du Royaume Frangue de Jerusalem, paris 1934-1936.

2 - **Kerr, A.J**, The Crusades, London 1966.

3 - B.M,Holt, The Age of the Grusades (the near east from eight century to 1517) London 1986.

4 - **Setton, K.M**, Ahistory of the Crusades, Philadelphia, Bennsylvenia university press 1955.

5 - **Stevenson,** W.B, The Crusaders in the East, Beruit 1958.

6 - **Treece Henry**, The Crusades, London 1962.

ثالثا : البحوث :

أ – البحوث العربية

١ – **الحسو ، أحمد ، الرمضاني ، عبد الواحد** ، "رسالتان لصلاح الدين الأيوبي بعث بها إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله حول تحرير القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وما سبق ذلك من انتصارات" (دراسة وتحقيق) ، غزو الفرنجة للأراضي العربية "الحروب الصليبية" ، مجلة المورد ، مج١٦ ، ع٤ ، ١٩٨٧م .

ب – البحوث الأجنبية :

1 - **Sivan, Emmonnal**, "Le Geneses de Conrte Croisade un traite damasquin du XII Siecle", Journal Asiatique, Tome, CCLIV, 1966.

2 - **Sivan, Emanual**, "The beginnings of the Fadail al Quds Literature", Israel Oriental Studies, January 1971.

3 - **Stevenson, William. B,** "peril of the Eastern Empire", in Cambrige medival history, Cambrige at the university press, 1957.

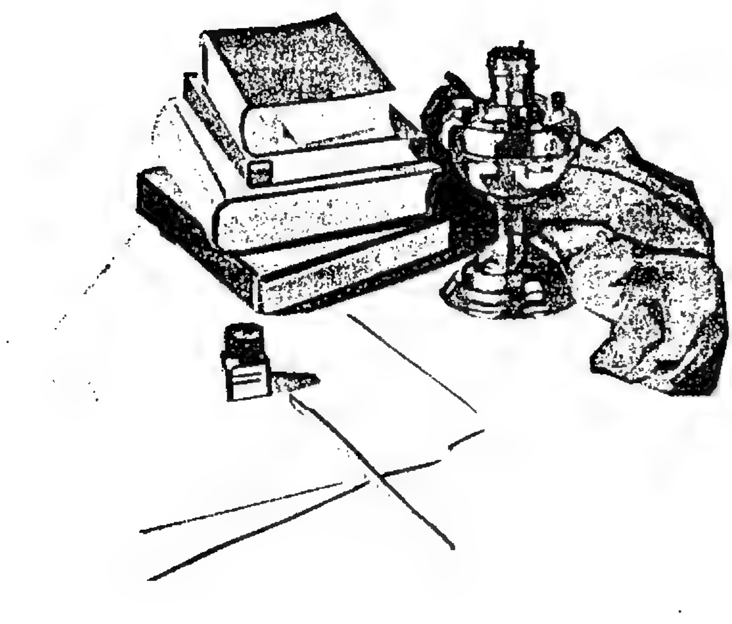
رابعا : الرسائل الجامعية :

١ - **خليفة ، جمال سالم** ، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ، دراسة في الموقف الشعبي (٤٩٢-٦٥٥هـ/١٠٩٨-١٢٦١م) ، رسالة ماجستير غير منشورة في كلية التربية بجامعة الفاتح ، الجماهرية العربية الليبية الاشتراكية ، طرابلس (الكانون ١٤٢٣-١٤٢٤) .

٢ - **سلطان جبر سلطان** ، الدور السياسي للعلماء المسلمين إبان الحروب الصليبية (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م) ، رسالة دكتوراة غير منشورة في كلية الآداب بجامعة الموصل ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

٣ - **سلامة ، جلال حسين عبد الحميد** ، عكا في أثناء الحملة الفرنجية الصليبية الثالثة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية ١٩٩٣ .

الفهارس العامة



الفهارس العامة :

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

جـ

حـ

خـ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

ق

ك

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ث

جـ

حـ

خـ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأشعار

أول البيت	آخر البيت	الوزن	الشاعر	الصفحة
ب				
أحل الكفر	النحيب	الوافر	مجهول	٦٩
فانهض	المطلوب	الوافر	طلائع بن زريك	٨٧
أبشر	جواب	البسيط	العماد الأصفهاني	١٣٩
وفتحكم	رجب	البسيط	محي الدين بن زكي الدين القرشي	١٠٩
هذي الغرائم	الكتب	البسيط	ابن القيسراني	٨١
عزيز	تغرب	الطويل	مجهول	١٨٤
ت				
أقوى الظلال	قسماته	الكامل	ابن منير الطرابلسي	٨١
الويل للروم	عادات	الطويل	ابن المجاور	١٧٧
أعيني لا	بالبكرات	الطويل	ابن المجاور	١٨٣
مدارس	العرصات	الطويل	ابن المجاور	١٨٢
على المسجد	الصلوات	الطويل	ابن المجاور	١٨٣
جـ				
أبشر	كالأنموذج	الكامل	العماد الأصفهاني	٨٢
حـ				
فكأنني	ساحة	الكامل	العماد الأصفهاني	١٠٥
قل للفرنسيس	صحيح	السريع	جمال الدين بن مطروح	١٩١
إذا ما دمشق	الذبح	الطويل	ابن القيسراني	٨٢

د

ر

س

ف

ل

م

ن

هـ

الملخص

موقف العلماء والأدباء من الصليبيين

في العصر الأيوبي

(٥٧٠ – ٦٤٨ هـ / ١١٧٤ – ١٢٥٠م)

إعداد

عبير احمد المحاسنة

إشراف

الأستاذ الدكتور احمد عبدالله الحسّو

هدفت الدراسة إلى الكشف عن موقف العلماء والأدباء من الصليبيين ، وتحديد مداه ، وأهميته . فقد عالجت هذا الموضوع استكمالاً لجهود سابقة ضمن كتب التاريخ والأدب ، وتركيزاً على الحقبة الأيوبية في الفترة ما بين (٥٦٩ – ٦٤٨هـ/١١٧٣ – ١٢٥٠م) .

قسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول : خصص الفصل الأول منها لدراسة المصادر ، أما الفصل الثاني فقد تناول دراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين قبل قيام الدولة الأيوبية في الفترة ما بين (٤٩٠ – ٥٦٩هـ/ ١٠٩٦ – ١١٧٣م) ، أما الفصل الثالث فقد تناول دراسة موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في عصر صلاح الدين الأيوبي في الفترة ما بين (٥٦٩ – ٥٨٩هـ/ ١١٧٣ – ١١٩٣م) ، والفصل الرابع تناول دراسة موقف العلماء والأدباء من

الصليبيين في عصر خلفاء صلاح الدين الأيوبي في الفترة ما بين (٥٨٩ - ٦٤٨هـ/١١٩٣ - ١٢٥٠م) .

وقد أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنت النتائج النهائية للدراسة ، وأرفقت بها مجموعة من الملاحق ، وفهارس بأسماء الأعلام والأماكن والأشعار .